الجمهورية العربية السورية

جامعة البعث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية



السيرة الذاتية في الأدبين العربي والروسي في النصف الأول من القرن العشرين

((رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها))

إعداد

علياء خطار العكش

بإشراف الأستاذ الدكتور

ممدوح أبو الوي

2009-2010م

1430-1431هـ

Syrian Arab Republic

Al-Baath university

Faculty of literature and human science



Autobiography in Arabic and Russian literature during the first half of the twentieth century

((A thesis prepared to attain master degree in Arabic language and its literatures))

Supervised by Dr. Mamdouh Abo Alwi

Prepared by : Alia Khattar Al-Aksh

2009-2010 A.D

1430-1431

كلمة شكر

حروف جمعت فشكلت كلمات ، وكلمات تراصفت فكونت جملاً تحمل في داخلها عبق الامتنان ،والعرفان بالجميل لمن ساعدني وساندني لأقوم بما أنجزته، وهو أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور ممدوح أبو الوي فقد وهبني من فكره الوضاء ما أنار عقلي ليسهل لي طريقي الموعرة في بحثي هذا ، فأينعت جهوده ثمار حب وكرم وعطاء.

وأتوجه بالشكر والعرفان لكل أساتذتي الأفاضل في هذه الجامعة جامعة البعث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية التي نهلت من نبع علمها ولا زلت...على ما قدموه لي من علم ، ونصائح ،وتوجيهات وملاحظات قيمة.

الإهداء

أهدي عملي إلى كل قلب صغير وكبير ساعدني، وأحبني بإخلاص إلى روح

والدي الحبيب......

إلى روح ملاكي الصغيرين

أنس وبلال.......

إلى اليد الحنونة التي ضمتني، والتي تفرح لفرحي وتحزن لحزني

أمي الحبيبة........

إلى رفيق عمري محمد المشهداني الذي ساندني في مراحل دراستي، وفي أثناء عملي على هذا البحث.....

إلى أبنائي الأحباء الذين فتّحوا أعينهم الصغيرة، ليروا نور العلم يضيء قلوبهم المخلصة له.

أحمد ،سمية، حمزة ....

إلى أخوتي وأخواتي الذين وقفوا إلى جانبي، وأخص بالذكر

أختي ثريا......

إلى صديقاتي وأصدقائي المخلصين ....

الجمهورية العربية السورية

جامعة البعث

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات نيل درجة الماجستير في الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة البعث

المرشحة :

عليا العكش

This thesis is submitted for the degree of M.A.to the faculty of arts and Humanities ,AL Bath University.

Candidate:
Alia Al-aksh

الجمهورية العربية السورية

جامعة البعث

تصريح

أصرح بأن هذا البحث (السيرة الذاتية في الأدبين العربي والروسي في النصف الأول من القرن العشرين) لم يسبق أن قُبل للحصول على أية شهادة ، ولا هو مقدم حاليا للحصول على شهادة أخرى .

التاريخ : / / 2010

المرشحة :

عليا العكش

DECLARATION

It's hereby declared that this research (Autobiography in Arabic and Russian literature during the first half of the twentieth century) has not been submitted or accepted for the fulfillment for any other degree.

Date:/ / 2010

Candidate:
Alia Al-aksh

الجمهورية العربية السورية

جامعة البعث

شهادة

أشهد أن العمل الموصوف في هذه الرسالة هو نتيجة بحث قامت به المرشحة عليا العكش تحت إشراف الدكتور ممدوح أبو الوي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة البعث .وأي رجوع إلى بحث آخر في هذا الموضوع موثق في النص.

التاريخ: / / 2010م

المرشحة : المشرف على الدراسة

عليا العكش أ.د. ممدوح أبو الوي

CERTLFLCATER

I hereby certify that the work described in this thesis is the result of the author ,s own investigations under the supervision of assistant professor Rateb Sukkar, Faculty of Arts and Humanities ,AL Baath University ,Reference to any works in this are fully acknowledge in the text.

Date: 2010

Candidate : Alia Al- aksh Supervisor: Dr. Mamdouh Abo alwi

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ /   /2010 بدرجة قدرها

وتقدير   وتألفت لجنة الحكم من الأساتذة :

-1

-2

-3

مخطط البحث

المقدمة

السيرة الذاتية هي لون أدبي قديم، وقد ظهر عند الفراعنة الذين كانوا يكتبون على قبورهم وفي معابدهم أشياء خاصة، وأورد هذا الرأي الدكتور شوقي ضيف الذي رأى أن أقدم صورة للسيرة الذاتية هي ما كان ينقشه القدماء على شواهد قبورهم ، ثم يشير إلى اشتهار الفراعنة بهذه النقوش إذ يقول : " واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم ، وأهراماتهم ، وفي معابدهم وهياكلهم من تواريخهم ، وأفعالهم ، وكانت تسري هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم " .[1]

ورأى أيضاً فيليب لوجون أن السيرة الذاتية قديمة جداً في الحضارات الإنسانية وعلى الرغم من ذلك فهو يرفض الدراسات التي تحاول أن تتناول السيرة الذاتية منذ نشأتها الأولى ، ثم تساير تطورها حتى تصل بنا إلى العصر الحديث ، و يفضل أن تكون الدراسة محصورة ضمن فترة زمنية معينة ، وبذلك تكون النتائج دقيقة يقول: "إن الأبحاث ذات النمط السلالي التي تعزل عنصراً ملائماً في الوقت الراهن من أجل تتبع آثاره بالرجوع إلى التاريخ لها إذن طابع وهمي " .[2]

وهذا ما قمت به في رسالتي، وظهر ذلك من خلال حصرها في النصف الأول من القرن العشرين، وقد رغبت باختيار هذا الموضوع لقلة الدراسة النقدية حوله وللتعرف على الأسباب التي دفعت الأدباء لكتابة سيرهم ، والظروف المحيطة بهم ، ومدى تأثيرها عليهم إن الدافع الأساسي الذي يحفّز الإنسان على كتابة سيرته الذاتية الرغبة الفطرية بالخلود ، وهذه الرغبة تشتد عنده عندما يحس بالتفرد، والتميز مما يجعله يشعر بأنه إنسان يستحق أن يبقى، ويخلد من خلال ما يسطّره على الورق من أشخاص، وأحداث تمر في حياته وهي أحداث مميزة لشخص متميز ، وتزداد الرغبة بالخلود لديه إذا أحس بدنو أجله ، وقد يتولد هذا الشعور لديه لأسباب مبهمة، أولإصابته بمرض مثلاً،وبذلك يندرج تحت السبب النفسي .

والاتجاه إلى كتابة السيرة الذاتية يقوى في عصور التحول والاضطراب لأن بعض الأدباء يشعرون بحاجة إلى الملاءمة بينهم وبين ما يحيط بهم،ويمكن أن نعد أن أكثر التجارب تحريضاً للإنسان على كتابة سيرته الذاتية ، التجارب الروحية التي تؤثر عليه من الداخل، وتحدث في نفسه تغييراً جوهرياً .

---

[1] -ضيف، د. شوقي ،"الترجمة الشخصية"، دار المعارف ،القاهرة ،الطبعة الثالثة ،ص٧.
[2] -لوجون ،فيليب ،"السيرة الذاتية :الميثاق والتاريخ"،بيروت ،الطبعة الأولى ،١٩٩٤،ص٧٣.

ويؤكد هذه الفكرة إحسان عباس بقوله :" ولست أقول إن التجارب في الحياة لا تكون إلا روحية ، ولكن التجارب الروحية من أشدها حثاً على كتابة السير الذاتية " .[١]

ومن الممكن أيضاً أن يكتب الإنسان سيرته الذاتية استجابة لدوافع خارجية ، وهذه الدوافع تتمثل بالرغبة في تعليم الآخرين وتوجيههم نحو أمور تتعلق بحياته، وتحسينها نحو الأفضل، ويكون ذلك عندما يشعر الكاتب أن حياته يمكن أن تصلح لأن تكون عِبرةً للآخرين ومن ناحية أخرى يمكن أن تتمثل بالرغبة في الدفاع عن النفس،وذلك حين توجه أصابع الاتهام إليه بسبب أفعال ينسب إليه عملها ، ونتيجة لذلك يكتب سيرته الذاتية لتصبح بمثابة تبرير لأفعاله أمام الآخرين، أونفي لها .

لكن الأمور التي ذكرتها غير كافية لجعله يكتب سيرته الذاتية ، أو أن يكتبها بشكل ناجح لأنه لا بد أن يعيش المبدع حالة من القلق ، ينتج عنها الدافع الخلّاق الذي يحفّز على الإبداع ، وذلك كي يخفف من العبء الملقى على كاهله ، وإذا استطاع إنجازها ، فإنه غالباً ما يصل إلى حالة من الاستقرار النفسي .

عرف الدكتور محمود السيد المنهج النفسي الذي أتّبعه في قراءتي لهذه الأعمال لأن كتاباتهم اعتمدت على الأحداث التي أثّرت في شخصياتهم،وخُلِق من تلك الشخصيات الإبداع.يقول:"ظهر هذا المنهج في مطلع هذا القرن وقُصد من خلاله التعرف إلى الإنسان من خلال الأدب ، فهو يهتم بشخصية الأديب وتاريخها على أنها أحد العوامل التي تتداخل في الإبداع الأدبي وتؤثر فيه، وتكشف هذه الشخصية من خلال النصوص ذاتها، وقد حمل لواء هذا الاتجاه شارل موروت بعد أن ظهر علي يدي "فرويد" الذي توخى تعرف الإنسان من خلال الأدب والفن كي يدعم نظريته في اللاوعي.. "[٢]

وليس بمقدور كل إنسان كتابة سيرته الذاتية ،لأن عليه حتى يبرع في كتابة سيرته الذاتية أن يمتلك موهبة فنية تساعده على ذلك لأن وجود الدافع نفسه لا يكفي إذا لم ترافقه الموهبة الفنية المتقدة.

كاتب السيرة الذاتية لا يشبه الروائي أو المسرحي ، اللذاين يعتمدان اعتماداً كاملاً على الخلق،والتصور في موضوعيهما سواء أكان أسطورياً أم خيالياً ،أما كاتب السيرة الذاتية فيختلف عنهما في هذا المنحى ، إذ إنه حين يكتب موضوعه ، لا يكون في حالة تصور لأنه

---

[١] -عباس ، إحسان ،"فن السيرة"، دار الثقافة بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ، ص١٠٨.
[٢] -السيّد ، محمود أحمد ، "الأدب مفهوماً وتدريساً " ، دار الندوة للدراسات والنشر،دمشق،ص٩٣.

يعتمد على الذاكرة فهو بذلك يعاني صعوبات الفنان المبدع عندما يلتزم التزاماً كبيراً بالحقيقة إذ عليه أن يظهرها في عمله، ويصورها في كل جزء من أجزائه .

وفي مطلع القرن العشرين شهدت البلاد العربية أحداثاً وأطماعاً استعمارية ، كانت ذات دورٍ فعال في استثارة وعي الإنسان العربي لذاته ، مما مكّنه من تطوير الإحساس بالذات و الفردية ، وأدى ذلك إلى حثّه على كتابة سيرته الذاتية ، ونتيجة لذلك أنتج القرن العشرون للأدب العربي العديد من السير الذاتية التي انتشرت كتابتها في الأقطار العربية كافة .

يقول شوقي ضيف (١٩١٠-٢٠٠٥): "ونمضي في القرن العشرين، فنجد كثيرين يترجمون لأنفسهم لا في مصر وحدها، بل في بلدان العالم العربي المختلفة، ومن أشهر من كتبوا حياتهم محمد كرد علي أديب سوري..."[١]

وتعد سيرة محمد كرد علي وثيقة تاريخية ، وأقرب إلى المذكرات منها إلى السيرة الذاتية ، أما سيرة طه حسين في كتابه " **الأيام** " التي بدأ بكتابتها سنة ١٩٢٩م، فتعد أول سيرة ذاتية فنية في الأدب العربي،و طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) لم يذكر الدوافع التي أدت به إلى كتابة سيرته الذاتية ، وعدم ذكره لتلك الدوافع جعل بعض الباحثين يعدون ذلك الأمر عيباً ونقصاً في سيرته ، ومن ناحية أخرى فتح إخفاء الدوافع الباب على مصراعيه أمام بعض الدارسين لاستنتاج تلك الدوافع بأنفسهم من خلال قراءتهم لسيرته بشكل متأنٍ .

حاول عبد المحسن طه بدرالربط بين سيرة طه حسين و كتابه " في الشعر الجاهلي" إذ يقول : "و كان الإحساس بالظلم الذي واجهه طه حسين نتيجة للضجة، والثورة التي واجهت بها البيئة كتابه " الشعر الجاهلي " صدر عام ١٩٢٦هو الذي أعاد إلى ذاكرته صورة الحرمان و الظلم ، الذي تعرض لهما في طفولته ، وصباه نتيجة لجهل بيئته ، هذا الجهل الذي يواجهه من جديد في رجولته ، وكان كتابه " الأيام " (صدر عام ١٩٢٩ الجزء الأول)، تعبيراً عن حرمانه في طفولته ، وصباه من ناحية ، واحتجاجاً على جهل بيئته من ناحية أخرى ، ويتحكم في هذا التعبير كبرياء المؤلف والأديب الذي انتصر على حرمانه ورغبته في أن يظل قوياً، وصلباً في بيئته "[٢]

طه حسين في كتابته لسيرته الذاتية اعتمد على الأسلوب القصصي الروائي، وقد استطاع من خلاله أن يرسم بعض الصور المتكاملة للشخصيات المحيطة به، واللافت للنظر

[١] ضيف،د.شوقي،"الترجمة الشخصية"،ص١١٠.
[٢] -بدر، عبد المحسن طه، "تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، الناشر دار المعارف، القاهرة الطبعة الثالثة،ص٣٠٣.

أن طه حسين استخدم ضمير الغائب في الحديث عن نفسه ، وهذا ما ذكرته تهاني عبد الفتاح شاكر حيث تقول :" ولعل استخدام ضمير الغائب قد ساعد طه حسين على التجرد، والتزام الصدق و الصراحة فيما يذكره من أحداث" [١]

كان طه حسين(١٨٨٩-١٩٧٣) حريصاً على رصد الصراع الذي يدور في داخله، أومع البيئة المحيطة به ، وبسبب ذلك أصبحت سيرته الذاتية مرآة تعكس ما بداخله دون أي حجاب،ظهر إبداع طه حسين في سيرته الذاتية في الجزء الأول من "الأيام" الذي كتبه عام (١٩٢٩)،فقد كانت شخصيته المحور الأساسي في هذا الجزء، وقد تشاركتِ الأحداث والشخصيات في كشف النقاب عن حياته الفكرية، وإظهار مراحل تطور شخصيته.

وهذه البيئة تجسدت في الجزء الأول من كتابه بشيخه في الكتّاب ، وعلماء الريف، وشيوخ الطرق، أما الجزء الثاني الذي كتبه سنة(١٩٣٩) فقد كشف فيهما عن عدم إخلاص شيوخ الأزهر في العمل .

أصبح ينفر شيئاً فشيئاً من الشيوخ أصحاب العمائم ، ويرى أن أصحاب الطرابيش أكثر صدقاً ، ووفاء منهم ، وترسيبه في امتحان العالمية بسبب تآمر شيوخ الأزهر عليه ، زاد من نفوره منهم، وقد وصف أيضاً في الجزء الثاني من سيرته غرف الربع الذي أقام في إحداها خلال دراسته في الأزهر.

صور شخصيات الطلاب الذين سكنوا في تلك الغرف، والشخصيات جميعاً التي رسمها غير قادرة على إكمال الطريق الذي أتمه هو، ويبدو أن الغاية من رسم تلك الشخصيات إظهار تميزه ونجاحه، وبذلك يكسب القارئ بعد أن أثار شفقته عليه عندما تحدث عن معاناته بسبب فقد البصر .

ويذكر في الجزء الثالث سنة(١٩٦٧)سفره إلى فرنسا الذي تأجل بسبب الحرب العالمية الأولى ونيله الدكتوراه عام(١٩١٩) وزواجه بفتاة فرنسية عام(١٩١٧) ثم عودته إلى مصر عام(١٩١٩)والتدريس في الجامعة.

وفي الحديث عن الدكتور أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤م)نجد أنه حين كتب سيرته الذاتية في كتابه " حياتي " التي كتبها سنة ١٩٥٠ تأثّر بكتاب " الأيام " لطه حسين، وسبب هذا التأثر تلك النشأة الأزهرية التي تشبه نشأة الدكتور طه حسين فأحمد أمين يشبه طه حسين في

[١] -شاكر، تهاني عبد الفتاح ، "السيرة الذاتية في الأدب العربي"،بيروت، الطبعة الأولى ،٢٠٠٢،ص٧٦.

دراسته في الكتّاب ، ثم الأزهر ، ثم عمله في الجامعة ، وقد عمل أحمد أمين مدرساً بكلية الآداب بدعوة من طه حسين ، فهو يقول :"ودقّ جرس التليفون ...... و إذا المتكلّم صديقي الدكتور طه حسين ، يطلب إلي مقابلته وذهبتُ لمقابلته ، فإذا هو يعرض علي أن أكون مدرساً بكلية الآداب ، فترددت قليلاً ثم قبلت لنفوري من القضاء ، وحبي للتدريس " [1].

تحدث أحمد أمين عن ضعف البصر الذي كان يعاني منه، وما يسببه له من متاعب وأظهر أن متاعبه أخف وطأةً من متاعب الأعمى ،وقد تحدث أيضاً في سيرته عن سفره إلى بلاد عربية وغربية، وعلاقته بعاطف بك بركات ناظر مدرسة القضاء الذي شجعه على الكتابة، وقد درس في مدرسة القضاء ودرس فيها.

وبالحديث عن حنا مينه الأديب السوري فقد جرت أحداث سيرته في النصف الأول من القرن العشرين فهو من مواليد اللاذقية سنة ١٩٢٤م، وقد كتب سيرته في ثلاثة أجزاء هي "بقايا صور"سنة ١٩٧٥، "المستنقع" سنة ١٩٧٧م،"القطاف"١٩٨٥م.

ذكر في "بقايا صور" مرحلة الطفولة التي كانت مليئة بالفقر والخوف، وتولد الخوف نتيجة رحيل الوالد بين فترة وفترة، وذاك الوالد دائم التلهف إلى الشرب والجنس وترك الأولاد مع أمهم وحيدين، وأكثر ما آلمهم عندما تركهم في حقل من حقول التوت المترامية الأطراف في بلدة السويدية تحت رحمة المختار الظالم الذي تحكّم بمصير الأم وأولادها في أثناء سفر الوالد.

أتى الحرير الاصطناعي ودمر صناعة الحرير الطبيعي، فهاجرتِ الأسرة إلى قرية الأكبر،وهناك فتك الجراد بمواسم الحبوب،جاع الفلاحون وهاجموا مخزن الإقطاعي وحدثت الانتفاضة التي قُتِلت فيها زنوبة التي شجعت الفلاحين على الثورة .

أما رواية "المستنقع" فتحدث فيها عن سفرهم إلى حي الصاز في إسكندرونة ،وقد كانت أرضه ذات رائحة نتنة تغمرها المياه في الشتاء، وأغلب الصيف، فيه كثير من النباتات المستنقعية ،وقد التحق بالمدرسة الأرثوذكسية، وهو في الثامنة من عمره، ثم المدرسة الرشدية، وقد سلخ لواء إسكندرونة عن سورية في تلك الفترة عام ١٩٣٩م.

---

[1] - أمين ،أحمد ،"حياتي"،لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة،١٩٥٠،ص٢١٨-٢١٩.

وأهم أحداث رواية "القطاف" هي هجرة الأسرة إلى اللاذقية بعد سلخ لواء إسكندرونة والعمل في ريفها في قطاف الزيتون،ومعاناة الفلاحين من ظلم الإقطاع وأتباعه الشوباصي والمطعون.

ظهر في الأدب الروسي ترجمات ذاتية، وقد تناولت سيرة مكسيم غوركي(١٨٦٨-١٩٣٦) التي تمت كتابتها في النصف الأول من القرن العشرين وذلك تماشياً مع رسالتي، وهي ثلاثة أجزاء "طفولتي"كتبها ١٩١٣-١٩١٤م. "بين الناس" ١٩١٥-١٩١٦، "جامعاتي" ١٩٢٣م.

ذكر في "طفولتي " وفاة والده وعمره أربع سنوات وانتقاله مع أمه إلى بيت جده والد أمه، ومعاناته من عقاب جده، وطيبة الجدة،وسردها الحكايات له وللجيران وتعلمه على يد جده القراءة وتنتهي هذه المرحلة من حياته بوفاة والدته ،التي توفيت وعمره عشر سنوات.

وتحدث في رواية "بين الناس" عن الأعمال الكثيرة التي قام بها، والمشقة التي واجهها نتيجة ذلك وعن وفاة أخيه من أمه ، ووجود زوج الخياط والمرأة الملقبة بالملكة مارغو اللتين زودتاه بالكتب فكان لهما أثر كبير في تثقيفه.

ذكر في رواية "جامعاتي "(١٩٢٢) سفره إلى قازان ليلتحق بالجامعة، ولكن ظروفه السيئة منعته من ذلك ، فعمل في مخبز عند ديرينكوف، واجتمع بطلاب الجامعة، وطلاب الأكاديمية اللاهوتية والكلية البيطرية الذين كانوا يسكنون في منزل ديرينكوف وكانت أفكارهم عامرة بالقلق على مصير الشعب الروسي، ثم انتقل إلى روماس صاحب الأفكار الاشتراكية الذي غذّى أفكار الواقعية الاشتراكية لدى مكسيم.

إن الأديب الروسي مكسيم غوركي من أهم الأدباء الذين وضعوا حجر الأساس في بناء مدرسة الواقعية الاشتراكية ،عالج موضوع الإنسان المبدع ،وتعاطف مع تطلعاته ودعا إلى الثورة على واقعه، وقد تأثر حنا مينه بواقعية مكسيم الاشتراكية ، وظهر ذلك في سيرته ومؤلفاته الأخرى ،أما طه حسين وأحمد أمين فكانت واقعيتهما نقدية صورا الواقع، ونقداه دون إيجاد حلول لتغيير الواقع المؤلم.

وبذلك فإن الرسالة تتألف من مقدمة ، توضح الأسباب التي دعتني لاختيار الموضوع المذكور، وهي قلة الدراسات النقدية التي تناولت الموضوع المذكور، على الرغم من أهمية السيرة الذاتية في دراسة الأدباء العرب والأجانب واستيعاب الظروف التي ساعدتهم على

الإبداع . وهناك أربعة فصول هي مكسيم غوركي ، وحنا مينه، وطه حسين، وأحمد أمين،وخاتمة بينت فيها النتائج التي توصلت إليها وقائمة بالمصادر والمراجع.

والحقيقة كانت هذه الدراسة محاولة للوقوف على سير أدباء أربعة من الأدبين العربي والروسي بإيجاز وهم الدكتور طه حسين و أحمد أمين و حنا مينه و مكسيم غوركي، وقد تناولت حياتهم وأسرهم، وبيئتهم والأشخاص المحيطين بهم،وعملهم وتعليمهم.

حاولت إجراء مقارنات بينهم من نواح متعددة (اقتصادية ، اجتماعية ،سياسية ، فكرية)لأن تلك النواحي كان لها دور في بناء شخصية هؤلاء الأدباء ،ولاسيما مايتعلق باللبنة الفكرية لديهم ،ثم عرضت وجهات نظر بعض النقاد الذين تناولوا أدبهم شرحاً وتحليلاً ونقداً ،ومن ثم أبديت رأيي المتواضع ،وقد لاحظت أن أوجه التشابه بين الأدباء الأربعة فاقت أوجه الاختلاف،فإن استطاع هذا البحث أن يفي هؤلاء الأدباء حقهم من التمثيل والتحليل والمقارنة فقد بلغ هدفه،وإن لم يستطع فحسبي مابذلت من جهد، وا الموفق.

مقدمة الفصل الأول:

يشكل إبداع مكسيم غوركي مرحلة مهمة في تاريخ الأدب الروسي بكامله، لابل في تاريخ الأدب العالمي، فإذا كان ألكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) مؤسس المدرسة الواقعية النقدية في الأدب الروسي ، فإن غوركي استطاع الانتقال من الواقعية النقدية إلى الواقعية الاشتراكية التي انتشرت في الآداب العالمية فمثلها في الأدب الأمريكي الروائي أرنست همنغواي (١٨٩٩-١٩٦١) وفي الأدب الإسباني الشاعر لوركا وفي الأدب الألماني المسرحي بريخت وفي الأدب التركي الشاعر ناظم حكمت (١٩٠٢-١٩٦٣)، وبذلك انتشر أدب الواقعية الاشتراكية في العالم كله.

استطاع غوركي تأسيس اتحاد الكتّاب السوفييت الذي عقِد مؤتمره الأول برئاسة مكسيم غوركي عام ١٩٣٤، وتبقى أسس الواقعية الاشتراكية التي تؤمن بوجود صراع طبقي في المجتمعات البشرية كلّها، وتؤمن بضرورة التفاؤل واستشراق المستقبل، وتصوير البطل الإيجابي، ولقد حققت الواقعية الاشتراكية إنجازات عظمى فحصل بعض ممثليها على جائزة نوبل للآداب مثل الروائي ميخائيل شولوخوف الذي ألف رواية " الدون الهادئ" وقصة " "مصير إنسان"، وقدّر لمكسيم غوركي الذي ألّف الرواية والقصة والمسرحية،والقصائد الشعرية الجميلة، وله دراسات نقدية أن يصور لنا حياته بصدق، وصراحة في سيرته الذاتية.

- **حياة الطفولة**

مكسيم غوركي هو الاسم المستعار لكاتبنا ألكسي بيشكوف والمقصود بغوركي المر ، لذلك أطلق على نفسه هذا الاسم وسنتعرف على حياته المريرة من خلال ما سأورده في هذه الصفحات .

مات والده وهو طفلٌ صغير رحلت به والدته إلى بيت جده، والمقصود هنا والدها، وكان جده رجلاً قاسياً، أما جدته فقد كانت إنسانة طيبة لم يمض على وصولهما فترة وجيزة حتى دار شجار عنيف بين خاليه ميخائيل وياكوف، وأخذا يصرخان في وجه الجد، ويمكن أن أشير هنا إلى وضع الأسرة المتفكّك، والعلاقة السيئة القائمة بين أفرادها.

وقد تحدث مكسيم عن تفكك الأسرة يقول:"كان بيت جدي مليئاً بضباب محرق يتصاعد من بغض الجميع للجميع ، وبعد مضي وقت، علمت من جدتي أن أمي قد عادت في اللحظة التي كان أخوتها يلحون على أبيهم ليقسم الممتلكات..."[١]

كان مكسيم يخاف جده، ويشعر أحياناً بأنه شرير، وفي لهجته الكثير من التهكم والاستهزاء يذكر لنا حادثة عن قسوة جده، فقد قام بصبغ غطاء المائدة ذلك الأمر أزعج جده فهجم عليه ولم تستطع الجدة أن تخلصه من بين يديه، وضربه حتى فقد وعيه وبقي بعدها فترةً يعاني من المرض.

كانت فترة مرضه إحدى المراحل المهمة في حياته ، شعر فيها أن روحه قد تألمت أكثر من جسده، وأصبح حساساً بصورة غير مألوفة، وجراء ذلك تشاجرت أمه وجدته لأن أمه برأي الجدة لم تبذل جهداً لا نتزاعه من بين يدي جده وفي أثناء ذلك صرحت الأم بأنها لولا ابنها لهربت لأنها لا تستطيع الحياة في ذلك الجحيم .

وهذه الآلام التي تعرض لها وغيرها من المواقف الصعبة دفعته لكتابة سيرته ويذكر الدكتور ممدوح أبو الوي الأسباب التي تدفع الأديب إلى كتابة سيرته الذاتية حيث يقول: " يكتب الأدباء سيرتهم الذاتية لأسباب كثيرة منها "ضرورة معرفة القراء للمناخ الذي ظهر ونما فيه أدب

---

[١] غوركي ،مكسيم،" مكسيم غوركي" ، ترجمة ،بهيج شعبان،دار بيروت للطباعة والنشر ،بيروت ١٩٥٤،ص١١١

أديب معين ومنها أسباب نفسية"(١)، ويجد ميخائيل نعيمة أن الأديب يشعر بمتعة إذا كشف أسراره فيقول:" هناك مبرر ما أظنه يخطر للقارئ في بال وهو اللذة التي يلاقيها الإنسان إذا هو تعرى أمام إخوانه الناس من جميع أسراره وأوزاره،فبات وكأنه البيت من الزجاج..."(٢)

وجاء الجد في ذات يوم، واعترف للصغير بأنه ضربه بعنف أكثر مما يستحق وأخبره بحكمةٍ بأنه إذا ضربه أحد من أهله فهو لا يقصد إهانته بل تربيته.

كانت الجدة تصلّي بهمس يعلو حتى يصبح دمدمةً تقوم فيها بالدعاء لميخائيل ابنها البكر الذي يقع على عاتقه واجب البقاء في المعمل، وتجد أن إرساله إلى مكان آخر ليعمل هو إساءةٌ بحقه، وأن والده كان يفضل ياكوف عليه، ونتيجة لذلك كانت ردة فعل ميخائيل قاسية فقد قام بإضرام النار في المعمل.

إن مشكلة التفريق بين الأولاد، وعدم الإنصاف بينهم موجودة، ونعيشها في المجتمعات كلها ولو كان هذا الأمر في أغلب الأوقات غير مقصود من الوالدين ولكنه موجود وهو حقيقة ملموسة ومزعجة.

وقد كان مكسيم يمتلك إحساساً مرهفاً فمن خلال مشاهدته للمعمل وهو يحترق وصفه بصورة فنية رائعة حيث قال:" وهذه شرائط حمر ذهبية تنزلق عجلانة فوق أخشاب السقف الجافة السوداء، وتبرز بينها بوضوح المدخنة الضيقة المصنوعة من الصلصال، وتصب في الجو ينبوعاً رفيعاً من الدخان ..."(٣)

ولم تقف جدته مكتوفة اليدين فقد بدأت بإعطاء توجيهات للناس الذين تراكضوا للمساعدة وذلك لإيقاف الحريق ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مخزن الغلال ، ومن خلال ذلك تم إخماد النيران بحصرها في منطقة واحدة .

---

[١] مجلة ، "الموقف الأدبي" ، العدد ٤٥٥، ميخائيل نعيمة وفن السيرة ، السنة الثالثة والثلاثون،آذار ،٢٠٠٩،ص٢٣٧.

[٢] ـ نعيمة ،ميخائيل ،سبعون ،المجموعة الكاملة،المجلد الأول،دار العلم للملايين، بيروت ،١٩٧٠،ص١٤.

[٣] غوركي، مكسيم، "طفولتي "،المجلّد الأول ، ترجمة المحامي سهيل أيوب ، دار" رادوغا" موسكو، طبع في الاتحاد السوفيتي ،١٩٨٨،ص١١٢.

في الربيع قسم الجد الأملاك ، فأبقى ياكوف في المدينة ، وأرسل ميخائيل عبر النهر إلى كونافينو ،واشترى لنفسه منزلاً في شارع بوليفوي ، وصرح لمكسيم بأنه في وقت قريب سيبدأ بتعليمه القراءة، والكتابة وكانت تلك أول بادرة في مجال تعليم مكسيم .

لم يشعر مكسيم بالهدوء في حياته في ذلك المنزل ، لأن المستأجرين يتحركون كثيراً من الصباح حتى المساء ،كانت جدته تعمل قابلة،وأيضاً حكماً في المشاجرات البيتية،وتداوي المرضى من الأطفال الصغار، وتروي للنسوة قصة حلم العذراء،وتنصحهن فيما يتعلق بشؤون البيت .

كان مكسيم شديد التعلق بجدته ، ولم يذكر خلال تلك الفترة من حياته إلا رفقته لها فكان يذهب معها إلى الساحة،أوالحديقة، أوعند الجيران، أما والدته فلم تكن تقيم بينهما فترة طويلة فقد كانت تختفي دون أن تترك وراءها أثراً يذكّر بها .

أطلعته جدته على جزء من حياتها ألا وهو أنها عاشت يتيمة، ووالدتها وحيدة لا أهل لها وكانت عاملة تطريز، وقد حررها أسيادها بعد تعرضها لحادث، وذلك عندما أخافها سيد نبيل فألقت نفسها من إحدى النوافذ فكسرت كتفها، وبسبب ذلك وهنت ذراعها وهكذا أمست مستعطية في الطرقات.

عندما بلغت جدته التاسعة أخذت تتعلم التطريز وخلال سنتين ذاعت شهرتها في البلدة ، وكان يقصدها الناس عندما يريدون عملاً متميزاً، وما أسرع أن ظهر جده ، وهو كبير عمال الجر في نهر الفولغا وبما أنها ابنة امرأة مستعطية رأى بأنها ستكون زوجة مطيعة .

علّمه جده القراءة واستجاب مكسيم له ، وذلك الأمر جعل جده يهتم به أكثر ، ويقلّل من مرات جلده، وعندما كبر قليلاً وقوي جسده أخذ يخالف أوامر جده فيكتفي الجد بتعنيفه.

وقد كان يقرأ مع جده دائماً قبل العشاء مقطوعات من كتاب الصلاة، أو صفحات من مجلد ضخم من تأليف الواعظ المسيحي يفريم سيرين، وبعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء يعود إلى الصلاة فيردد كلمات لها نغمات مطردة حيث يقول : " الرب وحده أعطى، والرب

وحده أخذ ...يا أيها الملك الممجد الذي لا يموت ...لا تدخلنا في التجربة ....نجنا من الشرير ...ولتحلّني دموعي من خطيئتي..." [١]

وأجد أنا هذا الدعاء في الديانة المسيحية يحمل معنى الدعاء ذاته في الديانة الإسلامية وهنا إجماع على أن الديانات جميعها تدعو إلى التوجه لإله واحد، وأن البشر يلجؤون إليه في حالة الدعاء .

- **مشاكسات الشارع:**

كان يحرم من النزول إلى الشارع لميله إلى القتال ، ولذلك لم ينشِئ صداقات ، وكان سائر أبناء الجيران يناصبونه العداء بل أصبحوا يتلذذون بإغاظته ،ولم يكن يخرج إلى الشارع حين يسوده الهدوء ، فإذا سمع صيحات الأطفال نسي ما أقره الجد بعدم النزول إلى الشارع وذهب إلى الساحة.

كان يبدأ الشجار في الساحة ، وتظهر عليه آثار الضرب ولكنه لايبالي بذلك ، وما يثيره منهم رؤيتهم يدفعون بالديوك، والكلاب إلى مقاتلة بعضهم بعضاً، ويقومون بإيذاء القطط وإغاظة المتسولين الثملين وخاصة إيجوشا الملقب بحامل الموت في جيبه ، وقد كان محدودب الظهر يتمايل في مشيته ، وكان الصبية يتراكضون خلفه، ويرمونه بالحجارة .

وأكثر ما كان يؤلمه من مناظر الشارع رؤية رئيس العمال السابق لديهم جريجوري إيفانوفيتش الذي فقد بصره يمشي في الشارع يطلب من الناس الصدقات، وكانت تجره امرأة عجوز، وكانت جدته تدعوه أحياناً إلى المطبخ فتطعمه، ثم تقدم له الشاي، وهنا نلمس أيضاً الرحمة الكامنة في تصرفات الجدة حيث يقول: " ولكن أشد مناظر الشارع إيلاماً ، بالنسبة إلي ، كانت رؤية رئيس عمالنا السابق جريجوري إيفانو فيتش الذي كُف بصره تماماً يقضي أيامه متجولاً في شوارع البلدة يستجدي أكف الناس......"[٢]

---

[١] غوركي مكسيم،"طفولتي"ص١٧٨
[٢] المصدر ذاته ،ص١٨٢.

إن وجود إيجوشا، وجريجوري في الشارع كان يؤلمه ، ولكن كان ثمة امرأة مستهترة تدعى فورونيخا تلك المرأة كانت تخيفه ، فيهرب من الشارع كلما شاهدها فيه تظهر كل يوم أحد ثملة مغبرة الشعر، مشيتها غريبة أحياناً كانت تبكي، وتصيح دون سبب

سأل مكسيم يستوضح أمرها من جدته ، فأخبرته بأنها تزوجت من موظف،ولكنه باعها لرئيسه طمعاً في الترقية إلى رتبة عالية وبعد سنتين عادت إلى زوجها لتجد طفليها قد ماتا، وأصبح زوجها يقامر بأموال الحكومة حتى أُلقي في السجن ، ونتيجة لذلك أخذت المرأة تشرب لتتخلص من حزنها ، بعد فترة فقدت عقلها.

كان يرى أن أفضل الأوقات لديه التي كان يمضيها مع جدته بعد الغداء حيث تروي له قصصاً خرافية رائعة، وماسمعه من روايات جدته كان له دور في صقل موهبته، وحثه على التأمل، وتشكيل مخزون ساهم في دعم أفكاره عندما بدأ بالكتابة والتأليف .

- **صديقه هذا رائع:**

انتقل جده إلى منزل آخر بعد أن باع منزله ، وقد كان المنزل الجديد أكثر راحة من السابق ، وكانت الدار تعج بعدد من الناس ، قد سحره من بين أولئك الناس مستأجر لقبته الجدة بهذا رائع لأنه يكرر هذه المفردة غالباً غرفته ذات نافذتين تطل إحداهما على الحديقة، والثانية على الساحة ، والجدير بالذكر أن مكسيم كان يبرع في الوصف، ويفصل في ذلك فيمكن أن يصف الأشخاص ويمكن أن يصف الطبيعة،يقول في وصف هذا رائع جسدياً و نفسياً" كان ذلك المستأجر ممشوق العود ، منحني الجسم ذا لحية سوداء ، تضاعف من شحوب وجهه وعينين لطيفتين تحميهما نظارتان كبيرتان ، هادئاً على العموم ، منطوياً على نفسه سكوتاً كلما دعوناه إلى العشاء، أو الشاي أجاب قائلاً " هذا رائع "[1]

كانت غرفته مليئة بالصناديق، والكتب الضخمة التي حاول مكسيم معرفة أحرفها لكن دون جدوى ، إضافة إلى وجود زجاجات تحوي سوائل مختلفة الألوان،وقطعاً صغيرة من

[1] غوركي،مكسيم"طفولتي"،ص١٨٩-١٩٠

النحاس كان يقوم بصهر الرصاص ولحم النحاس ،لم يكن سكان الدار يحبونه، وكانت تفوح منه رائحة كريهة بسبب عمله.

كانت الجدة تقيم في المطبخ حفلات رائعة تدعو إليها الجيران جميعهم وفي إحدى الحفلات أخذت تسرد إحدى أقاصيصها الرائعة وهي قصة " إيفان المحارب والراهب ميرون " فكانت كلماتها مرتّبة متناسقة، وتدور أحداثها حول قائد شرير طلب من محارب لديه أن يقتل الراهب العجوز ميرون،وذهب المحارب ينفذ الأوامر وهو متألم وعندما لقيه خجل منه ولكنه خاف انتقام القائد، واستلّ سيفه،وطلب منه أن يصلي للجنس البشري قبل قتله،يقول في ذلك: " اذهب الآن إلى العجوز ميرون، واذبح ذلك الشيخ المتكبر ، دقّ عنقه ولا تخف ، ارفعه عالياً من لحيته الكثيفة وجئني به وليمة فاخرة لكلاب صيدي....."[١]

أخبره الراهب أن الصلاة لخلاص الجنس البشري لا نهاية لها والأفضل أن ينفذّ أوامر القائد، ولكن المحارب رفض وأمره أن يصلي، وسينتظره ولو بقي فترة طويلة، وأخذ الراهب يصلي وحتى هذا اليوم ما يزال يصلي، والمحارب ينتصب بالقرب منه وقد تحول سيفه إلى غبار، وذلك كان عقابه لأنه أخضع إرادته لإرادة سواه وعندما انتهت الجدة من قصتها قفزهذا رائع، وأشار إلى أن ما روته يجب أن يدون فهو صحيح وروسي بكل معنى الكلمة

شعر هذا رائع بموهبة الجدة في سرد القصص، وقدرتها على شد انتباه السامع، وهذا يعني بأن هذا رائع يمتلك القدرة على تحليل الأمور ونقدها، وكان مكسيم فرعاً من تلك الشجرة وهي الجدة فقد نما وترعرع في أحضانها، ونقشت ثقافة الجدة التي استقتها من الحياة وعلّمت في مكسيم، لأنه كما يقال العلم في الصغر كالنقش على الحجر، فكان راسخاً في مخيلته.

أخبر هذا رائع مكسيم أن جدته امرأة رائعة، وهي كالينبوع وسأله إذا كان يعرف الكتابة فأجابه مكسيم بالنفي، وعند ذلك نصحه بالتعلم وإذا تعلم عليه كتابة قصص جدته لما لها من أهمية كبيرة .

---

[١] المصدر السابق ،ص١٩٧

حدث لمكسيم مرة هذا رائع عن عدوه اللدود، وهو أحد أبطال شارع نوفايا الذي لم يستطع أن ينال منه بشكل مرضٍ فأخبره هذا رائع بأن القوة الحقيقة تكمن في الحركة السريعة النشطة، فأخذ مكسيم برأيه حيث جرب ذلك مع الصبي، فاستطاع التغلب عليه بسهولة، وذلك الأمر زاد من احترام مكسيم لنصائحه، فقد قال: " وفي نهار الأحد التالي جربت أن تكون لكماتي أسرع، فاستطعت بسهولة فائقة أن أتغلب على خصمي اللدود كلوشنيكوف الأمر الذي ضاعف من تقديري لكلمات جارنا ونصائحه..."[1]

كان كره السكان له يتضاعف يوماً بعد يوم، وأخذ جد مكسيم يجلده كلما علم أنه يزوره وجدته تخافه، وتظن أنه يشتغل بالسحر الأسود ،وأخيراً قرروا إبعاده عن البيت، فقام بحزم أمتعته ، وودع مكسيم فسأله عن سبب رحيله فأجابه : بأن جده يريد الغرفة من أجل والدته فأعلمه مكسيم بأن جده يكذب ، فحضنه وأخبره بأنه ظنّه على علم بتلك المكائد التي كانوا يكيدونها له ويخفي ذلك عنه ، ورحل بعد أن ودعه بألم.

الأديب قبل أن يكون أديباً هو إنسان ولا يمكن أن يعيش بمعزلٍ عما يجري حوله من أحداث سواء أكانت داخلية أم خارجية، وبطبيعته الإنسانية لابد أن يتأثر بها ، وهنا أورد رأي الدكتور سهيل إدريس الذي عد أن أفضل الآثار الأدبية العالمية يكمن في نزعتها الإنسانية ،وقد أشار إلى أن غوركي يجد أن الأدباء منتجو النزعة الإنسانية، وغوركي عندما أورد رأيه قال الأدباء بشكل عام، دون أن يحدد أدباء معينين من بلد محدد، وبذلك يكون الأدب ملكاً للجميع ،يؤثر ويتأثّر يقول الدكتور سهيل إدريس : "واهتمام الأدباء السوفيات بهذه النزعة إلى هذا الحد يجد تبريره الكافي في التغيرات التاريخية الكبيرة التي يشهدها العالم كله، وهذا كله يدعو إلى العودة بلا انقطاع إلى موضوع مكان الإنسان في العالم ،وعلاقاته بالمجتمع ،ومستقبله ومصيره.."[2]

وهنا أجد أن ظلماً قد ألم بهذا رائع، وربما يكون غير مقصود من الناس الذين أصدروا أحكامهم عليه فهو شخص مسالم لم يكن ينوي إيذاء أحدٍ، ولكنهم لم يتركوه بحاله وكان حكمهم قاسياً عليه دون ذنب يذكر.

---

[1] المصدر السابق،ص٢١١

[2] إدريس، سهيل، "مواقف وقضايا أدبية"، دار الآداب ،بيروت ،الطبعة الأولى ،١٩٧٧،ص١٧٥.

بعد أن رحل هذا رائع شكّل مكسيم صداقة مع العم بيوتر فقد قال فيه: " كان العم بيوتر على قسط وافر من الثقافة ،وله بعض الإلمام بالكتاب المقدس، فيخوض وجدي على الدوام غمار نقاش لا ينتهي ..."[1]

- **دور والدته في تعليمه:**

خرج مكسيم يوم سبت إلى حديقة جارته لاصطياد بعض الطيور،وعندما عاد إلى البيت أخبره جده بأن أمه رجعت، وطلب منه أن يمضي إليها ،فسمح له، بدت أمه أصغر من قبل وأكثر جمالاً ، التصق بها وتطلّع عميقاً في عينيها دون أن ينطق شيئاً لشدة انفعاله، وقامت أمه بضمه بقوة، وأخذت تمسح على رأسه بيدها.

دخل الجد فسألته إذا كان يريدها أن ترحل، وبعد جدال دار بينهما، وكانت نتيجته ودية نعتها بأنها حمقاء مباركة ، وهي الإنسانة الوحيدة التي بقيت له على الأرض فلم يحتمل مكسيم مزيداً وقفز عن الموقد وهو يبكي وركض نحوهما لأن أمه عادت،ولأنهما تبادلا كلمات لطيفة فعانقاه وذرفا الدموع.

قررت والدته تعليمه، فاشترت له بعض الكتب وأولها "مبادئ القراءة الروسية" فتعلّم خلال أيام حروف الهجاء المستعملة في غير الكتب الدينية ، ولم تكتفِ والدته بذلك بل أرادت أن يحفظ الشعرغيباً ويقول في ذلك: " ولم تمضِ أيام قليلة حتى أخذت والدتي على عاتقها مهمة ثقافتي " الدنيوية" ، فابتاعت لي بعض الكتب في عدادها " مبادئ القراءة الروسية" الذي تعلمت فيه، خلال بضعة أيام حروف الهجاء المستعملة في غير الكتب الدينية ، ولكن أمي أرادتني أن أحفظ الشعر ...."[2]

بدأ يشعر بالتعاسة ولايعرف سبباً لذلك ، وكثُرت دروس والدته عليه ،وازدادت صعوبة مع الوقت ، فهو لم يكن يجد صعوبة في فهم الحساب، ولكنه بالمقابل لا يطيق الإملاء ولا يفهم معنى قواعد اللغة ، وأكثر ماكان يؤلمه هو الشعور بشقاء والدته، وبؤسها في دار أبيها.

---

[1] -غوركي ، مكسيم ، "طفولتي"،ص٢١٨

وذات يوم أحد جاء الساعاتي الذي كان الجد يرغب بتزويج ابنته منه ، وذلك ليكون برأيه أباً طيباً لمكسيم ، ولكن ابنته رفضت فهدد بجرها من شعرها إذا لم تمتثل لأوامره ودار شجار بينهما، وانتهى إلى خروج الساعاتي من المنزل وفي أثناء ذلك تعثر على عتبة الباب وبعد تلك الحادثة أصبحت والدته قوية وقرارها يعود إليها.

وقد ربط مكسيم كتاباته بالواقع والمآسي وهذا مالمسته في كتاب "نظرات في الأدب العربي الحديث" حيث ورد فيه:"يعد الكاتب الروسي"مكسيم غوركي" أبرز مؤسس للواقعية الاشتراكية الجديدة، حيث امتاز أسلوبه الفني بواقعية ملتزمة تكشف عن عمق رؤيته للأشياء مع معاناة صادقة ، ومن أبرز أعماله "الأم ، حياة الطفل / ذكريات حياتي الأدبية"[١]

بعد انقضاء فترة عيد الميلاد أخذته أمه مع ساشا ابن خاله ميخائيل إلى المدرسة، وكان ساشا يسكن في بيت جده، وسبب وجوده هناك هو زواج والده التي أخذت تعذّبه بعد وفاة والدته ناتاليا فتكفّل به جده نزولاً عند رغبة جدته ، التحقا بالمدرسة مدة شهر واحد ولكن سرعان ما كره المدرسة ، فقد غفا ابن خاله ذات يوم في أثناء الدرس، وأخذ يصيح في نومه وحين استيقظ استأذن في مغادرة الصف ،وسخر منه التلاميذ بقسوة ، وفي اليوم التالي توقف ساشا عن السير، وأخبر مكسيم بأنه لن يذهب إلى المدرسة وسينطلق في نزهة ،وقد دفن كتابه في الثلج .

شعر مكسيم بالغيرة ولكنه تابع طريقه إلى المدرسة، وأصبح لابن خاله ذريعة للامتناع عن الذهاب إلى المدرسة بحجة أن الكتب سرقت، ولكن جده اكتشف تصرفات ساشا وحاكمهما على ذلك، فعاقبهما بالجلد ، ثم كلّف أحد عمال المطافئ باصطحابهما إلى المدرسة، ولكن لم يفلح في ذلك.

كان هدف مكسيم في ذلك الحين أن يصبح ضابطاً وهذا الأمر بحاجة إلى الاستمرار في الذهاب إلى المدرسة، وأخبر بذلك ابن خاله فرد عليه أنه عندما يصبح مكسيم

---

[١] التدمري، محمد غازي ، الغزّي، كمال ياسين،" نظرات في الأدب العربي الحديث"، دار الإرشاد ، حمص ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥ ،ص٥٨.

ضابطاً يكون ساشا بدوره زعيماً للصوص وسيقبض عليه ويقتل أحدهما الآخر، فلم يعجبهما الأمر، وقررا ترك المدرسة .

يقول:" كان الهرب مستحيلاً بالنسبة إلي ، كنت أهدف في ذلك إلى غاية أخرى في الحياة هي أن أصير ضابطاً ذا لحية كبيرة شقراء، الأمر الذي يضطرني إلى متابعة التحصيل والمواظبة على المدرسة ، وحين أوضحت لابن خالي مشروعي غرق في التفكير برهة، ثم أجاب وقد استصوب فكرتي : هذا حسن أيضاً فعندما تصبح ضابطاً أكون أنا زعيماً للصوص فيجب عليك إذن أن تقبض علي...وسيقتل أحدنا الآخر، أو يأخذه أسيراً ، أنا لن أقتلك مهما كاف الأمر ...ولا أنا أيضاً ، وعلى هذا تم قرارنا" ([1])

مرت الأيام على وتيرة واحدة مضجرة ،وقد رحلت والدته بعد أن أعلنت خطبتها فسيطر على المنزل جو من السكون الثقيل ،فأخذت جدته تدمن شرب الخمرة ،كانت تلك المرة الثانية التي تعاقر الخمرة فيها ، وكانت المرة الأولى يوم طُلب ابنها ميخائيل إلى الجندية الإجبارية.

طلب منه جده أن يتعلم الاعتناء بنفسه ،وألاّ ينحني لأحد، ويعيش هادئاً ومسالماً ويصغي للجميع ، لكن عليه أن يفعل ما يعتقد أنه الأفضل، أرى بأن هذه النصائح التي أعطاها الجد لحفيده هي بمثابة حكم ولا بد لكل إنسان أن يأخذ بها حتى يعيش حياة مستقرة ومستقلة وكريمة .

وضعت أمه وليداً جديداً وأتت به إليهم ، أما زوج أمه فقد خسر عمله في المعمل بسبب احتياله على العمال ، لكن سرعان ما استلم عملاً جديداً وهو محاسب في محطة السكك الحديدية .

أُرسِل مكسيم ليعيش مع أمه وبدورها أرسلته إلى المدرسة مرة ثانية ولكنه كان كارهاً لها وهنا يبين فقره الشديد من خلال ثيابه التي ارتداها وسبب كرهه للمدرسة:" مرت أيام طويلة فارغة قبل أن أُرسل مرة أخرى لأعيش مع أمي في قبو منزل حجري أرسلتني أمي فوراً إلى

[1] غوركي ، مكسيم ، "طفولتي "ص٢٨٤-٢٨٥.

المدرسة فأبغضتها منذ اليوم الأول، ظهرتُ فيها للمرة الأولى لابساً أحد أحذية أمي مرتدياً معطفاً خِيط لي من أحد قمصان جدتي، وقميصاً أصفر اللون و سروالاً طويلاً ...وطبيعي أن أكون مدعاة للسخرية بمثل هذا اللباس الذي أكسبني القميص الأصفر منه خاصة لقب "الشاب الديناري" وتفاهمتُ بسرعة مع أقراني لكن الكاهن والأستاذ نفرا مني......"[١]

وتحدث حنامينه عن إعفائه من الخروج في الجنائز بسبب ثيابه وصندله يقول:" وكان يصدف أحياناً أن يموت أحد وجهاء الطائفة فيخرج تلاميذ المدرسة في صفين متقابلين أمام الجنازة ، وكنت ُأعفى أيضاً من الخروج ، لا بسبب ثيابي وحدها بل لأن صندلي الذي كان قد اهترأ وليس لي سواه غير صالح بالنسبة لتلميذ يسير في جنازة فخمة..."[٢]

وقد نفر الأستاذ والكاهن منه نراه يقول في ذلك : "كان الأستاذ أصلع الرأس ، أصفر الوجه ، يدخل قاعة الدرس وقد حشا بالقطن منخريه لأن الدم ينزف أبداً من أنفه ويتخذ مكانه إلى الطاولة ، ويطرح علينا الأسئلة في صوت أخن، ثم يقف في منتصف الكلمة ليسحب القطن من أنفه، ويتفحصه وهو يهز رأسه " [٣]

كره الكاهن مكسيم لأنه لا يمتلك نسخة من "قصص مقدسة من العهدين القديم والجديد" ولأنه يقلّد طريقته في الحديث فيقول " أما أستاذ الديانة فكان كاهناً أنيقاً في شرخ الشباب، غزير الشعر أجعده ، أبغضني لأني لا أملك نسخة من " قصص مقدسة من العهدين القديم والجديد" ولأني أقلد طريقته في الحديث أيضاً.."[٤]

وهذا الأمر يذكّر بالدكتور طه حسين ومعاناته مع الشيوخ، وتهكمه على بعضهم، حيث يقول: " ولكنه في ذات يوم جادل الشيخ في بعض ماكان يقول، فلما طال الجدال غضب الشيخ،وقال للفتى في حدة ساخرة :"اسكت يا أعمى ما أنت وذاك" فغضب الفتى، وأجاب الشيخ في حدة : " إن طول اللسان لم يثبت قط حقاً ولم يمح باطلاً"[٥]

---

[١] مينه، حنا، "المستنقع"،دار الآداب ،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٧٧،ص٤٤.
[٢] المصدر ذاته ص٣٤٨
[٣] غوركي، مكسيم، "طفولتي"،ص٣٣٧
[٤] المصدر ذاته،ص٣٣٨-٣٣٩
[٥] حسين .د طه،"الأيام"،الجزء الثاني ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت،الطبعة الثانية،١٩٧٤،ص٣٤١-٣٤٢

وقد زار المدرسة أسقف ، وطلب من مكسيم أن يروي له قصة يحبها من التاريخ الديني، فأجابه بأنه لا يملك كتاباً ، ولكنه قال بعض الأشعار فأثنى عليه وسأله : ما الذي يجعله بمثل تلك الشقاوة ؟وكان جوابه : بأن المدرسة تبعث على الملل ، ورد عليه الأسقف أن التلميذ الضعيف يشعر بالملل أما هو فعلاماته عكس ذلك ،ونصحه بأن قليلاً من الشقاوة لا يضر، ولكن الناس لايتحملون المبالغة فيها، طلب الأسقف أن يعده بألا يتسبب بمتاعب في المستقبل وفعلاً تحسنت الأمور في المدرسة .

وقع حادث في البيت سبب له إحراجاً فقد سرق روبلاً من أمه دون أن يقصد تلك الجريمة، فقد وجد في كتاب تناوله لزوج أمه ورقة من فئة الروبل الواحد وأخرى من فئة العشرة روبلات أغلق الكتاب، ثم راودته فكرة لشراء كتابي "تاريخ الدين " و"روبنسون كروزو".

فتح الكتاب وأخذ الروبل منه ، وذهب إلى المدرسة وهو يحمل " تاريخ الدين " ومجلدين صغيرين من قصص هانس أندرسون الخرافية ، وثلاثة أرطال من الخبز الأبيض،تقاسمها مع رفاقه ، وعندما عاد إلى المنزل سألته أمه عن الروبل فأجاب بأنه أخذه واشترى به كتباً ، فضربته بعنف بالمقلاة وأخذت منه القصص الخرافية ،وأخفتها عنه إلى الأبد ، وكان ذلك العقاب أشد إيلاماً من الضرب .

انقطع بسبب ذلك أياماً عن المدرسة ، وقد أخبر زوج والدته الناس في المعمل بالقصة وانتقلت إلى المدرسة ، وعندما عاد إلى المدرسة نعته رفاقه باللص ، فوعدته والدته بترتيب الأمر في المدرسة، وعاد يتابع الدروس كالمعتاد ، ولكن رجع ليعيش مع جده بسبب زوج أمه، وذلك عندما رأى زوج والدته يضرب والدته، التقط سكيناً حادة وهي لوالده، وضربه في خاصرته فشقت السكين السترة وحدها، وجرحت الجلد جرحاً طفيفاً .

تصرف مكسيم بشيء من التهور، وذلك عندما استخدم السكين التي كان من الممكن أن يقتل بها لو أن الضربة كانت قوية كفاية ويصبح مجرماً ، ولكن تصرفه كان نابعاً من محبته لأمه ورؤيتها تهان أمامه فهب للدفاع عنها .

كان يشعر بأنه يتمتع بحياة الشوارع وكان محباً لرفاقه، ويرغب في مساعدتهم دائماً ،وعندما عاد إلى المدرسة واجه مصاعب فيها حيث أخذ التلاميذ ينادونه بالشحاذ ،وجامع الخروق، وقد أعلنوا للأستاذ بأن رائحته نتنة ويستحيل الجلوس إلى جانبه ، وكان ذلك الأمر يؤلمه لأنه يغتسل بعناية فائقة كل صباح ويرتدي ثياباً غير التي يرتديها في أثناء جمع الخروق،ولكنه اجتاز امتحانات الصف الثاني بنجاح وكُوفئ بشهادة شرف، ومجموعة من الكتب، ففرح جده وأعلن أن من واجبه الاحتفاظ بالكتب في مكان أمين .

جاءت أمه وأخوه بعد فترة إلى بيت جده للإقامة فيه بعد أن خسر زوجها عمله وفي أحد من شهر آب ماتت أمه ، وبعد أيام قليلة من تشييع والدته أعلمه جده بأنه ليس له مكان بينهم، وعليه أن يبحث عن رزقه في الشارع، وهكذا خرج إلى الناس وبخروجه إلى الناس أخذت بذور الثورة تنمو في داخله على واقعه المرير.

لمست لدى مكسيم في سيرته التي تأصلت بعد ذلك في كتاباته، روح الثورة، ومن كتاباته رواية "الأم" وبطلتها والدة بافل التي وقفت إلى جانب ابنها السجين السياسي في وجه الظالمين،حيث أخذت المنشورات،ووضعتها في حقيبة، وصاحت بالناس بصوت عال، فاجتمعوا وأخذت توزع المنشورات عليهم يقول "رأتهم الأم يختطفون المنشورات ويدسونها داخل معاطفهم وجيوبهم ، فأمدها ذلك بعزم جديد، وأخذت تتحدث في هدوء، وقوة أكثر، تحس بالفخر والفرح اللذين يجتاحانها،وبينما هي تتكلم كانت تختطف المنشورات من الحقيبة، وتلقي بها ذات اليمين ،وذات اليسار على الأيدي التي كانت تتلقفها في لهفة....."[١]

- **عمل مكسيم بائع أحذية :**

واجه مكسيم ظروفاً قاسية في تلك المرحلة من حياته فيها الكثير من الشقاء والتعب فقد بدأ بالعمل في مخزن لبيع الأحذية في المدينة، وقد كان كارهاً لصاحب المحل فهو لا يتوانى عن تهديده بزجه في السجن إذا سرق أحذية أو مالاً منه ،وكان في المتجر مساعدان له الأول ابن خاله "ساشا" والمساعد الكبير.

---

[١] غوركي ،مكسيم ،"الأم" ، ترجمة مازن الحسيني وإسماعيل عبد الرحمن ، مطبعة الدار المصرية، القاهرة،١٩٥٧،ص٤٦٩.

أخذ يشعر بالضجر والملل من حياته الجديدة وبالحنين إلى حياته السابقة في الحقول والغابات ،وكذلك إلى أصدقائه وجدته،وأجد أن حنين مكسيم إلى حياته السابقة أمر طبيعي،لأن الناس بشكل عام إذا أرادوا أن يرتاحوا يلجؤون إلى أجواء الريف والحنين إلى أصدقاء الطفولة المبكرة وأحضان الجدة أمر معروف لدى البشر.

بعد أن يودع المعلم ومساعداه السيدة بعبارات لطيفة ،يتلفظون بكلمات قذرة ومخجلة عنها، حتى إن مكسيم كان يرغب بالخروج خلفها وإطلاعها على ذلك وهذه عادة سيئة وموجودة في المجتمعات كلها تندرج تحت اسم النفاق عندما ينحنون لها باحترام شكلي ،والغيبة عندما يتحدثون عنها بألفاظ بذيئة ،وهذان الأمران النفاق والغيبة حذّرت منهما الأديان السماوية جميعها ،وأنا أرى أن أخلاق الكاتب عالية لأنه لم يشاركهم في هذا الأمر إضافة إلى رغبته بإطلاع الزبونة على ذلك.

فقد قال: " كنت أعلم طبعاً أن البشر يميلون إلى النيل من قدر الغائبين ،ولكن هؤلاء كانوا يتحدثون عن جميع الناس بصورة مهينة خاصة كأنهم أرفع الناس قدراً وأعظمهم شأناً قد عينوا كي يدينوا سائر البشر على حد سواء ، وكانوا يحسدون معظم الناس ولا يمتدحون أحداً..."[(١)]

في ذات يوم طلب منه حارس الكنيسة أن يسرق له خفين،فرفض مكسيم في بادئ الأمر، ولكن بعد إلحاح الحارس عليه قدم له الخفين، وظن مكسيم بأن الحارس سيكون راضياً بعد أخذه للخفين ،إلا أن مافعله الحارس كان مجرد امتحان لمكسيم ، وأخبره أن ينتبه ربما كان قد بعثه المعلم ليعرف مدى أمانة مكسيم ، وطلب منه ألاّ يثق بأي كان، وقد كانت تلك التجربة درساً لمكسيم ليكون أكثر يقظة.

---

[١] -غوركي ، مكسيم ،"بين الناس" ، المجلد الثاني ، ترجمة المحامي :سهيل أيوب ، دار "رادوغا"، موسكو، طُبع في الاتحاد السوفيتي،١٩٨٨،ص١١.

من خلال قراءتي لسيرة طه حسين أجد أن هناك تشابهاً في مسألة سرقة الأحذية ولكن الاختلاف يكمن في أن حادثة السرقة لدى مكسيم كانت تتم في مكان عمل ساشا والمساعد في متجر الأحذية ، يقول مكسيم: " كنت أعرف أنه يشترك مع المساعد في سرقة المعلم إنهما يخفيان زوجين من الأحذية في الموقد حتى يحين موعد إغلاق المحل، فيغادران المخزن، وقد أخفيا الحاجيات المسروقة في أكمام معطفيهما..."[1]

أما في سيرة طه حسين فالسرقة كانت تحدث في المسجد، بعد أن يخرج المصلي أوالدارس لا يجد حذاءه، وتُعلق أحياناً أوراق تشبه أوراق النعوات على أعمدة المسجد خاصة بالأحذية المفقودة، والدافع المشترك لتلك السرقة الفقر، وقلة الأمانة .

يقول الدكتور طه حسين:" وما أكثر ما كانت تسرق النعال في الأزهر ، وما أكثر ما كانت تلصق على جدران الأزهر من حول الصحن أوراق يعلن فيها أصحابها أن نعالهم قد ضاعت...."[2]

كان ساشا يكره الطاهية وهي امرأة غريبة الأطوار كبيرة السن، وقد غرز ساشا مرة عدة دبابيس في وسادتها ، ولطّخ وجهها بدهان الأحذية وهي نائمة، وحاول إشراك مكسيم في ذلك لكنه رفض، وهولا يختلف عن الأولاد الذين كانوا يلحقون بالرجل الأحدب في الشارع ويرمونه بالحجارة، ويتلفظون ألفاظاً سيئة بحقه كما ذكرت سابقاً الملقب بحامل الموت في جيبه.

ماتت الطاهية أمام عينيهما ، فشعرا بخوف شديد ، ولم يستطيعا النوم في تلك الليلة وطلب ساشا من مكسيم أن ينام معه في سريره، ولا يطفئ النور ،وبعد فترة أخذ ساشا يمارس على مكسيم بعض حيل السحر التي أخافته، وذلك عندما دخلت الطاهية الجديدة عليه وهو نائم وصاحت ماذا حلّ بوجهك، فظن أن السحر بدأ يأخذ مفعوله ،وأخذت تضحك، وتطلب منه أن ينظر في المرآة وإذا بطبقة سوداء تغطي وجهه .

---

[1] غوركي، مكسيم " بين الناس"،ص١٥.
[2] حسين ، د. طه ، "الأيام "ج٤،ص٣٣٦-٣٣٧.

قرر مكسيم الهرب ، لكن بينما كان يسخّن الحساء على الفرن غرق في بحر من التخيلات ، وترك الحساء يغلي كثيراً، وعندما أراد إطفاء النار قلب القدر على يديه ،فأرسلوه إلى المستشفى ،وهو في المستشفى سيطر عليه كابوس حول أكفان رمادية، وبيضاء ورجلٍ عملاقٍ له حاجبان كالشاربين يزمجر بأنه سيشكوه إلى صاحب السيادة المطران ،وكانت لديه رغبة شديدة في الكتابة إلى جدته ليطلب منها أن تنقذه غير أنه لم يستطع بسبب يديه ، ولأنه لم يكن يملك ورقاً .

شعر مكسيم أن تلك الليلة لن تنتهي ، وبدأ يتجول في الممشى، فرآه جندي، وأعلمه بأن ذلك الأمر مخالف للقواعد والأنظمة ، وسأله إن كان خائفاً فأجابه : بأنه خائف ، خفّف عنه الجندي وتحدث معه بكلمات بسيطة، ومريحة استسلم مكسيم بعدها للنوم ، وحين استيقظ وجد جدته جالسة مكان الجندي، وبذلك انتهى الخوف الذي لازمه برؤية جدته.

قدم أحد الأطباء وضمد يديه ، ثم وجد نفسه وجدته يجتازان شوارع المدينة في عربة فأحس بجمال الشمس المشرقة، وبالسحب التي تطير مثل العصافير، وراح ينشد لجدته كم هو يحبها .

وصلا إلى المنزل واستقبله الجد بكلمات فيها استهزاء بسبب فقدانه لعمله وقد تفقد مكسيم الحجرة ورأى أنها لم تتغير ، ماعدا زاوية أمه فقد كانت مهجورة وفارغة بصورة كئيبة ،أخذت صحة كوليا أخيه تتدهور، والذي زاد صحته سوءاً أنه كان ينام مع الجدة ومكسيم في عنبر صغير على أكوام من الخشب تغطيها أسمال مهترئة .

فالظروف الاجتماعية القاسية، وسببها الأكبر الفقر الذي لم يمكنهم من العيش في مكان صحي ساهم بدور كبير في موت كوليا وهذا الأمر موجود أينما حللنا وهو مسألة التفاوت الطبقي بين أغنياء ومتوسطي الحالة وفقراء، وهم الذين يعانون أينما وجدوا .

الظروف الصعبة جعلت مكسيم يفكر ويفكر في أثناء سيره حتى أنه خطر في باله أن يصبح لصاً يسرق من الأغنياء، ويعطي الفقراء بحيث يأخذ منهم الصدقات التي أمر ا بها أن تعطى للفقراء رغماً عنهم .

وكذلك الأمر لديه رغبة في الذهاب إلى إله جدته وعذرائها الطاهرة ليروي لها الحقيقة عن حياة البائسين، وإن صدقته يسألها أن تمنحه الحكمة الكافية ليبدل ذلك الواقع البائس ويجعله أفضل،فالثورة ضد الواقع المؤلم الذي يعيشه الفقراء كانت تلازم مكسيم منذ صغره.

جرت حادثة مؤلمة كان مكسيم يجمع مع جدته من الغابة الأعشاب وتوت العليق والفطر والجوز، وكانت الجدة تبيع مايجمعان فيعيشان من المال المجموع ، وبينما هو ذات مرة يتسلق الشجرة، ويفرغ العش من مؤونة الشتاء من الجوز اخترقت لحمة جنبه الأيمن سبع وعشرون حبة من الخردق الصغير أخرجت جدته بإبرتها إحدى عشرة حبة ، أما الخرادق المتبقية تحت جلده فقد خرجت منه بعد سنوات شيئاً فشيئاً وشعرت الجدة بالسرور لأن مكسيم يصبر على الألم لأنه يضاعف خبرته يقول: " كانت جدتي تُسر وتفرح عندما تراني أتحمل الألم بصبر، وتقول لي: ياللفتى الطيب خبرتك تزداد بمقدار ماتصبر..."[1]

- **عمل مكسيم عند ابن أخت الجدة ،ثم علاقته بسموري:**

عاد جده ذات يوم من المدينة، وأخبره بأنه سيذهب للعمل عند ابن أخت الجدة ، لكن الجدة رأت أنه لم يحسن الاختيار ، فرد عليها ربما يجعلونه رساماً ،وذهب مكسيم مرة أخرى إلى المدينة حيث سيسكن بيتاً أبيض مؤلفاً من طابقين كالنعش ، فالمكان موحش تعمه القذارة.

كانت أخت الجدة امرأة عصبية،فكره أن تكون قريبة الجدة ، وقد دلتّه خبرته أن الأقرباء يعاملون بعضهم بعضاً أسوأ من معاملتهم للغرباء، أحب معلمه وقد ذكّره لسبب ما بصديقه هذا رائع.

يذكر إرهاقه في العمل، وشراسة تلك العائلة فيقول: "كان عندي كثير من الأشغال أقوم بوظيفة خادم فأغسل أرض المطبخ ،وأنظّف السماور،والأواني النحاسية يوم الأربعاء،ونهار السبت أغسل أرض البيت بأجمعها،والدرجين ،وأقطّع الحطب، وأحمله إلى فوق لأجل الموقد

[1] غوري،مكسيم ، "بين الناس"ص٨٢.

،وأغسل الصحون ،وأنقّي الخضار ،وأرافق السيدة إلى السوق حاملاً سلة المؤونة، وأركض إلى دكان البقال والصيدلية"[1]

وبرأيي أن العمل الذي كان يقوم به مكسيم يحتاج إلى طاقة هائلة، وماتقوم به هذا العائلة استعباد لذاك الصبي .

شعر مكسيم أن الشر يحيط به حيث قال : " كنت لا أرى فيما حولي إلاّ الشر الذي لا يعرف الشفقة، والانحطاط السافل الدنس ، وذلك بصورة تزيد كثيراً عنها في شوارع كونافينو تلك التي لم تكن تنقصها بيوت الدعارة وفتيات الشوارع ...أما هنا فالناس يعيشون في نعيم وراحة والاضطراب المشوش يحلّ محلّ العمل، ويجثم على كل شيء ظلّ من السآمة الخداعة المرهقة...."[2]

لم يحتمل مكسيم هذا الوضع كثيراً، وهرب مع مطلع الربيع وهو يشتري طعام الفطور، وقرر ألاّ يعود إلى دار معلمه ، وبقي طوال يومين أوثلاثة أيام يتجول على ضفة نهر الفولغا يطعمه الحمالون الطيبون ، وينام معهم على الأرصفة ليلاً،وقد أخبره أحد الحمالين أن تطوافه لا فائدة منه، ولماذا لا يعمل على الباخرة الدوبري ؟ لأنهم بحاجة إلى غسال للصحون.

وقد عرض مكسيم في رواية "المتشردين" صفحة من حياته وحياة زملائه القدامى القاسية "الناس جميعاً هنا في هذا الميناء عبيد لهذه الآلات الجبارة تقضيهم انتباها لا يفتر ،وجهداً لا ينقطع ،هاهم أولئك يتزاحمون حول المراكب والقاطرات يملؤونها أو يفرغونها ،وكلهم متعبون منهكون ،يركضون ،ويصرخون في ضباب من الغبار ويتصببون عرقاً..."[3]

كان عمله منحصراً في غسل الصحون والسكاكين والشوك والملاعق وكان يبدأ بالعمل منذ السادسة صباحاً حتى منتصف الليل، أما بعد الظهر بين الساعتين الثانية والسادسة ،وفي العشية بين العاشرة والثانية عشرة فإن عمله يقل نوعاً ما، لأن المسافرين يشربون الشاي والجعة بعد وجبات الطعام .

---

[1] -غوركي، مكسيم ، "مكسيم غوركي"،ص١٢٧-١٢٨

[2] -غوركي ،مكسيم ، "بين الناس"،ص١١٠

[3] - غوركي ،مكسيم "المتشردون"ص٦٨

كان يحدث على ظهر القارب الكثير من المنازعات التي تنتهي إلى الاشتباك، لكن لم يجسر أحد على ضرب سموري الطاهي ، بسبب قوته الجبارة من جهة ،وبسبب أحاديثه الكثيرة اللاطيفة مع زوج القبطان ،وقد كان يحتسي كميات كبيرة من الفودكا لكنه لا يثمل ،ويشربها منذ الصباح.

سأله مكسيم مرة : لماذا يخشاه الجميع ، وهو طيب القلب ؟ فأجابه بأنه طيب القلب في معاملته مع مكسيم ، ويمكن أن يكون طيب القلب مع الجميع ولكنه لايظهر ذلك ، وطلب منه ألاّ يظهر للناس بأنه طيب القلب وإلاّ استغلوه.

أرى أن كلماته فيها شيء من الحكمة لأن طيبة القلب أحياناً تجرعلى صاحبها الويلات والعذاب ، ويستغلها بعض الناس إضافة إلى تهكمهم على الشخص وذلك بالتقليل من قدره وكأن الشخص عندما يعامل الناس بطيبة يظنون أنه بحاجة إليهم على الرغم من أنه يحِسن إليهم .

نصح سموري مكسيم بالقراءة ،لأن الكتب تخبره بكل ما يحب أن يعرف ،ووصف الكتاب بأنه شيء نادر وثمين،وتمنّى لو أنه ثري لأرسله إلى المدرسة ،وبرأيه أن الفتى الجاهل كالثور يضعون القيد في عنقه ، أويسلخون اللحم عنه باستغلاله في عمل شبه متواصل دون رأفة به ،وحبه للعلم وموقفه منه بتقديري يدل على أنه رجل يمتلك معرفة استقاها من الحياة القاسية التي عاشها، ولا ينقذ الإنسان من آلمه إلا وعيه.

ترك مكسيم المركب في ساراپول دون أن يودع أحداً، وعاد إلى جدته وقد استقبلته استقبالاً مؤثراً ،وسأله جده بسخرية : هل وفّر ذهباً كثيراً ؟ وكان جواب مكسيم بأن ما وفره يخصه وحده، وأخرج من جيبه علبة لفائف، وأشعل واحدة أمام جده ، وهذا الأمر أغاظ الجد .

اضطر مكسيم بسبب الفقر والعوز إلى صيد العصافير ،ولكنه كان يشعر بالشفقة على تلك الطيور ،وبالخجل من حبسها في أقفاص يشعر بالغبطة لمجرد مراقبتها ،إن الفقر يجعل الإنسان يقوم بأعمال لا يرغب بها كما حدث مع مكسيم فيتخلّى أحياناً عن رحمته لأنه

إن لم يفعل ذلك لا يمكن أن يستمر في الحياة ، والظروف تتابع لتكشف لنا عن مدى العذاب والآلام التي أحاطت بحياة الكاتب .

أعاد الجد مكسيم إلى بيت شقيقة جدته في الشتاء ،وقد غدت الحياة في بيت معلمه أكثر سأماً منها قبلاً، عاش مكسيم في ذلك المنزل حياة تعيسة حاول الإفلات من قيدها بالانكباب على العمل بأقصى جهده ،وقد كان هناك طفلان وجب عليه العناية بهما، ففي كل يوم يغسل خرقهما ويذهب مرة في الأسبوع إلى نبعة الدركي لغسل الثياب فتهزأ الغسالات به.

كانت كوزلوفسكايا أحسن الغسالات حديثاً، وهي امرأة تجاوزت الثلاثين من عمرها وتتمتع بالجمال وقوة البنية ترسل ابنتها إلى المدرسة الثانوية ، إذا تحدثت فالأخريات يصمتن ويمدحنها في غيابها، وحضورها فهي امرأة ذكية صنعت لنفسها من أعناق الأحذية أكماماً من الجلد لتحمي ذراعيها حتى مرفقيها فأعجب بذلك مكسيم، وقلّدها فسخرْن منه .

وقد تطرق الدكتور حسام الخطيب إلى ذكر معاناة غوركي، وأعماله الشاقة حيث يقول: "تقلّب غوركي في أعمال يدوية عديدة شاقة،وكان يعمل ليل نهار، وقلّما كان يحظى بعطلة حتى أيام الأعياد ،وفي أثناء ذلك كان يواظب على القراءة ..."[1]

وهنا يزداد احترامي لمكسيم،وإعجابي به لأنه ينظر إلى المرأة والرجل على حد سواء، ويأخذ من خبرة كليهما، ولايتوانى، أو يتردد في ذلك فهو لم ينظر إلى الأداء الجيد على أنه حكرعلى الذكر دون الأنثى .

كان يرى أن الحياة بين الغسالات ،أو في المطابخ بين خدم الضباط أكثرمتعة منها في البيت فأسياده يعيشون في دائرة ضيقة من الطعام والمرض والنوم ،في ساعات الفراغ كان ينصرف إلى المستودع يكسر الحطب ليخلو إلى نفسه ، إلاّ أن خدم الضباط يفاجئونه ويعيدونه إلى مجرى الحياة في الساحة ، فقد كان يكتب لهم الرسائل التي يبعثون بها إلى أسرهم أو خليلاتهم.

---

[1] الخطيب ،د. حسام ، "محاضرات في تطور الأدب الأوروبي" ، جامعة دمشق ، مطبعة طربين، ١٩٧٤-١٩٧٥،ص٣٠٧.

- **دور زوج الخياط في تثقيفه:**

قص عليه الجنود في إحدى المرات حكاية أثارت شجونه عن صاحب أكبر دكّان للخياطة في المدينة،وهو رجل هادئ الطبع متواضع أما زوجه فكانت امرأة صغيرة تدمن القراءة ،كان الزوجان يعيشان حياة هادئة ، لايزورهما أحد، ولا يقصدان مكاناً سوى المسرح أيام الأعياد .

كانت الزوجة تذهب إلى المكتبة مرتين في الأسبوع ،وهي تتمتّع بمقدار عالٍ من الجمال، لكن الجيران يدعون أنها فقدت صوابها من كثرة المطالعة، لا تهتم بأمور بيتها،وزوجها يشتري الحاجيات من السوق حدث مكسيم الخدم عن الضباط الذين يلعبون لعبة خبيثة مع زوج الخياط.

تلك اللعبة عبارة عن إرسال رسالة غرامية في كل يوم من ضابط يفصح عن آلامه فترد عليهم بأن يتركوها هادئة،وتعبرعن أسفها لما تسبب لهم من أحزان،وكان الضباط يقرؤون الأجوبة مجتمعين يضحكون كثيراً، ثم يبعثون برسالة أخرى .

قرر مكسيم إخبار زوج الخياط بأنهم يسخرون منها، فصعد السلم الخلفي المؤدي إلى مسكن المرأة ،ودخل غرفة نومها فرآها جالسة،وفي يدها فنجان ذهبي اللون،وفي اليد الأخرى كتاب مفتوح ، خافت منه ، فشدت الكتاب إلى صدرها وبدأت تصرخ، فأخبرها بأنه قدم ليحدثها بما سمعه ويحذّرها من الضباط وتصرفاتهم الشنيعة ،وبعد أن انتهى هم بالخروج، فأوقفته، وطلبت منه الاقتراب منها ، ولكنه تردد .

سألته :إن كان هناك من أرسله ليروي عليها ما قاله فأجابها : بأن هذا ما يتحدث به الجنود القذرون ، ونصحها أن ترحل فضحكت،وسألته إذا كان قد ذهب إلى المدرسة، وهل يحب المطالعة وكان الجواب بأنه لا يجد وقتاً لذلك، فرأت أن من يحب المطالعة يجد الوقت الكافي ، أعطته السيدة قطعة فضية فلم يجرؤ على رفضها،وتركها عند انصرافه على درابزون السلم خيّل لمكسيم أن فجراً أشرق في حياته،وشعر بأن زوج الخياط ملاك .

كانت واقعية مكسيم غوركي مغموسة بالرومانسية وكأنه تأثر بكلمات غوته، فقد أشار الدكتور حسام الخطيب إلى ذلك حيث قال:"ولعل المؤسس الفعلي للواقعية الاشتراكية ، مكسيم غوركي كان ينظر إلى غوته حين قال:"إن أعظم الأدباء تلتقي فيهم الواقعية والرومانسية معاً"[1] وهنا دليل على أن مسألة التأثر والتأثير واردة بين الآداب كلّها، فيمكن للأديب أن يؤثر بغيره، ويمكن له أن يتأثّر به

رغب مكسيم برؤية زوج الخياط مرة ثانية، لأنه أراد أن يطلب منها كتاباً ، فعاد إلى بيتها أعطته الكتاب، وعند وصوله إلى البيت لفّه بقميص نظيف ،وخبأه في العلّية خشية أن يراه الأسياد، ويمزقوه وبينما كان ينشر الغسيل في العلّية تذكّر الكتاب، فقرأ السطر الأول منه ثم تابع قراءته حتى شعر بالبرد،وحين انصرف أسياده في المساء لحضور صلاة الغروب نزل بالكتاب إلى المطبخ، وهو يقرؤه راوده شعور بأنه انتقل بسهولة إلى عالم آخر .

نسي مكسيم كل شيء في غمرة الصراع الموجود في الرواية، وأخذ يتملكه الفرح حيناً والحزن حيناً آخر،واستغرق في القراءة لدرجة أنه لم يسمع الطرق على الباب،والشمعة احترقت تقريباً، فحاول أن يخفي آثار فعلته ووضع الكتاب تحت الموقد وملأ القنديل.

عندما فتح الباب سأله المعلم عن سبب تأخره في فتح الباب،وقامت أخت الجدة بتوبيخه لأنه أحرق الشمعة كلها،وظلّوا يؤنبونه طيلة فترة العشاء، ولما ذهبوا إلى أسرتهم رغب بالقراءة.

ويذكر مكسيم هنا رغبته في القراءة،ومعاناته الشديد في سبيل ذلك:"كانت الليلة مشرقة وقمر براق يشع في السماء،بيد أن الحروف أدق من أن أميزها كنت أعاني شوقاً ملحاً إلى القراءة، فأخذت من الرف قدراً نحاسية وحاولت أن أعكس بها نور القمر على الصفحات فلم أنجح.."[2]

صعد على الدكة، وبدأ يقرأ على نور قنديل الأيقونات،ولما تعب نام على الدكة واستيقظ على صراخ العجوز، وقد أخذت الكتاب، وضربته به على كتفه ، وأخذ المعلم يستعلم

---

[1] -الخطيب، د. حسام ،" الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة" مطابع الدوحة الحديثة المحدودة ،الطبعة الأولى،٢٠٠١، ،ص١٩٠.
[2] غوركي، مكسيم، "بين الناس"ص٢٢٥.

عن الكتاب ، فلم يستطع أن يقول الحقيقة ، وقال: إنه أخذه من سيدوروف جندي المراسلة عند كاهن الفوج.

أجد أن كلمات زوج الخياط عندما قالت له: "لوكنت تحب المطالعة وجدت الوقت الكافي...."[١]

كمن نفض الرماد عن نار الرغبة للقراءة الموجودة داخل أعماق غوركي، فقد خلق الظرف المناسب من داخل الظروف القاسية وقرأ وتحمل الضرب والإهانة في سبيل ذلك.

ساعد سيدوروف مكسيم في متابعة قراءته، وأخبره بأنه يمكن أن يقرأ عنده وقت يرغب،وقد ضاعف موقف أسياده من الكتاب رغبته به، وأصبح ينظر إليه وكأنه أحجية بقيت العجوز تراقبه كيلا يزور الجندي ، ويتابع قراءته.

تمكّن مكسيم من رؤية زوج الخياط، وأطلعها بما يعانيه من أسياده، وبأنه لم يتمكن من إنهاء الكتاب،فأرادت أن تتحدث معهم لكن مكسيم رفض،وأخبرها بأنهم يسخرون منها ويتلفظون بعبارات بذيئة وأنهم لا يحبونها ، فعرضت عليه إن سمحوا له بالقراءة أن يأتي إليها لتعطيه كتباً .

جر ولع مكسيم المتزايد بالمطالعة عليه صنوفاً من الهموم والحرمان ، ورأى أن كتب زوج الخياط باهظة الثمن،فحاول أن ينساها خوفاً من أن تحرقها العجوز إن رأتها لديه،واتجه نحو كراريس صغيرة ملونة من الدكان الذي كان يشتري منه الخبز .

لجأ إلى أنواع كثيرة من الحيل للمواظبة على القراءة ، للاستمرار في القراءة يقول: " لجأت إلى جميع أنواع الحيل للمواظبة على القراءة ، أتلفت العجوز عدة مرات كتبي، فوجدتني أخيراً مديناً للبقال بمبلغ كبير يعادل سبعة وأربعين كوبيكا، ألح علي البقال في طلب المال وهددني بحسم المبلغ من مال أسيادي حين أتيت يوماً لشراء الخبز..."[٢]

---

[١] المصدر السابق ،ص٢٢١.
[٢]المصدر السابق، ص٢٣٣.

وأتلفتِ العجوز كتبه مرات عدة،ووجد نفسه مديناً للبقال بمبلغ كبير،فطالبه البقال به،وهدده أن يحسمه من مال أسياده، كان لدى مكسيم نهم شديد للقراءة، وهذا النهم شكّل لديه مخزوناً جيداً في الذاكرة الأمر الذي ساهم في مساعدته على الكتابة فيما بعد .

لم تكن لديه وسيلة أخرى للحصول على المال، ففكّر أن يسرق سيده للتحرر من صاحب البقالية،وذلك عندما كان ينظّف ثياب معلمه بالفرشاة يعثر في جيبه على قطع فضية تتساقط أحياناً على الأرض،وتتدحرج إحداها إلى كومة من الحطب تحت السلم.

ونسي إخبار معلمه بالأمر ولم يفطن لذاك إلاّ حين عثر على عشرين كوبيكا بين الحطب،فأعادها إليه،فطلبت زوجه أن يعد ماله إذا ترك شيئاً منه في جيبه،فأجابها وهو يبتسم بأنه لا يسرق شيئاً ، قرر السرقة ولكنه لم يستطع فقد عادت كلمات سيده إلى ذاكرته ،وأحس بصعوبة ما يقدم عليه ، وكلما أخرج من جيب معلمه المال أعاده، وبقي على تلك الحال ثلاثة أيام.

سأله معلمه عن أوضاعه المتغيرة ، فصرح له عن همومه ، فأعطاه خمسين كوبيكا ، وحذّره بألاّ يخبر زوجه،وأمه لأن مافعله لا يرضيهما، ووعده بأنه سيشترك في جريدة محترمة،وعندها يستطيع قراءتها عليهم ، وفعلاً وفى بعهده، وأخذ يقرأ على الأسرة بعد تناول طعام العشاء بصوت مرتفع جريدة " كراسة موسكو "

لم يكن يحب القراءة بصوت مرتفع لأنها تشوش فهمه لمضمون مايقرأ، كان يقرأ موضوعات " كراسة موسكو " في أمسية واحدة ، فأشار عليهم بقراءة المجلات الموجودة تحت السرير في غرفة النوم،فقد منحته تلك المجلات خدمة عظيمة، فبسبب استمتاعهم بقراءتها استطاع حمل تلك المجلات إلى المطبخ وقراءتها ليلاً .

لجأ إلى جمع ما تبقى من ذبالة الشموع خفية، ووضعها في علبة سردين فارغة ، وملأ بقية العلبة بالزيت المعد للاحتراق أمام الأيقونات،وغرز فيها فتيلة من الخيوط، وكل ذلك لعدم قدرته على شراء الشمع ليحصل على النور الذي يساعده على القراءة ليلاً .

و في يوم أحد ذهبت العائلة لحضور الصلاة ، وانصرف مكسيم إلى ترتيب المنزل فانسلّ أكبر الأولاد سناً إلى المطبخ وفتح صنبور السماور ، وبعدما فرغ الماء كله بدأت الغّلاية تذوب ، وأخذ السماور يصفر صفيراً قوياً، دخل مكسيم إلى المطبخ ، فأصيب بالذعر مما رأى لقد ذاب موضع الصنبور، وتدلى بشكل مخيف .

وفي أثناء ذلك طرق الباب ، وحينما فتحه سألته العجوز عما إذا كان السماور يغلي،فأجابها : بأنه يغلي، عدت العجوز أن جوابه فيه وقاحة وعدم مبالاة بما حدث فضربته بحزمة من أغصان الصنوبر.

يقول:" لجأت العجوز إلى ضربي بحزمة من أغصان الصنوبر ، لم يكن الضرب موجعاً أبداً ، ولكن النتيجة جاءت أشواكاً عميقة انغرزت في لحمي ، وما إن اقترب المساء حتى انتفخ ظهري مثل وسادة، وعند ظهيرة اليوم التالي اضطر معلمي أن ينقلني إلى المستشفى..."[١]

أعلن الطبيب أنه لابد من رفع دعوى لسوء معاملته وضربه ، فاضطرب المعلم لذلك ، لكن مكسيم رفض أن يرفع دعوى عليهم ،وكان همه أن يشفَى فقط .

عندما وصل إلى البيت استقبلوه بالترحيب، وطلبت منه المرأتان أن يروي لهما التفاصيل ، وقد لمس رضاهما لرفضه الشكوى بحقهما فاغتنم ذلك،وطلب منهما السماح له باستعارة كتب من زوج الخياط فسمحتا له بذلك .

إن السماح له بالقراءة أشعره بسعادة كبيرة، فقد قرأ الليل بطوله حتى بزوغ الفجر وأدى ذلك إلى إصابته بشيء من الألم في عينيه،وكانت المرأة العجوز تحذّره من كثرة القراءة ، وسيصاب بالعمى إذا بقي على تلك الحالة من النهم الشديد للقراءة ليلاً وسبب قراءته ليلاً انشغاله بالأعمال الكثيرة في النهارحيث يقول: "أصبت بشيء من الآلام في عيني ،وكانت معلمتي

---

[١] غوركي، مكسيم؛ "بين الناس"؛ص٢٤٧.

العجوز تحادثني في شيء من الارتياح والحبور: انتظر فحسب ، ياعثة الكتب، ينفجر بؤبؤا عينيك فتصاب بالعمى!"[١]

ويمكن أن أشير هنا إلى أن الكتاب جميعهم عانوا من مشاكل في العين ولكن بدرجات مختلفة، فألم مكسيم عادي من كثرة القراءة ، أما طه حسين فقد كانت آفة عمى أصيب بها منذ الطفولة ، وبالنسبة إلى أحمد أمين فكان فاقداً لجزء من بصره وبحاجة إلى نظارة طبية ليتمكن من القراءة ، وحنّا مينه كانت أمه تحذره من كثرة القراءة حتى لا يؤذي عينيه

ومن خلال قراءته لبعض مؤلفات غونكور، وغرينوود،وبلزاك (١٧٩٩-١٨٥٠)رأى أن المرء لا يعثر على أنذال، أوأبطال فقط، بل هناك أناس بسطاء يعيشون كما في الواقع ، لا يمكن لأحد أن يشك بأن ما يقولون أو يفعلون سبق أن قِيل،أو أُنجِز على غراره .

كثرتِ الأحاديث الخبيثة عن زوج الخياط ، وذلك الأمر كان يؤلم مكسيم ويجعله يشعر بالشفقة والخوف عليها ، ولكنه عندما يلمح وجهها الباسم على الدوام يتبدد خوفه،رحلت زوج الخياط في الربيع فجأة،وانتقل زوجها بعد أيام قلائل، سيطرت الكآبة على مكسيم ،وأخذه الشوق إلى رؤيتها مرة أخرى حتى يعبر لها عن شكره، وامتنانه لما قدمته له .

كان مكسيم يكره أن تعامل المرأة بإساءة ويجد أنها رمز للحياة يقول:"كانت طريقة معاملتهم للنساء تغضبني جداً لأنني ، وأنا متشبع بالروايات الفرنسية ، أعتبر المرأة أفضل وأهم شيء في الحياة ، وقوي عندي هذا الرأي بجدتي، وحكاياتها عن العذراء وفاسيليا السعيدة، وبالغسالة ناتاليا ،وبهذه المئات بل الألوف من النظرات والابتسامات التي رأيت النساء أمهات الحياة ، ويغمرن بها الوجود الفقير المحتاج ويملأنه بالفرح والحب..."[٢]

لا يمكن أن ننكر دور زوج الخياط في دفع مكسيم نحو المطالعة وذلك بإيقاظ تلك الرغبة الكامنة التي في داخله، فهي أحد المحاور الأساسية في حياة مكسيم الأدبية التي استند عليها في بداية حياته .

---

[١] المصدر ذاته ،ص٢٥٠.
[٢] غوركي ،مكسيم، "وراء الرغيف" ، ترجمة : بهيج شعبان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت،١٩٥٤،ص١٨٩.

قدر مكسيم المرأة واحترمها، وظهر ذلك عندما تحدث عن جدته والغسالة ناتاليا وزوج الخياط، وسيرد أيضاً في حديثه عن المرأة الملّقبة بالملكة مارغو، هذا ما ذكره في سيرته وقد جعلها بطلة لرواية "الأم" فكانت جريئة واعية مناضلة فأورد في تلك الرواية كلمات الأم التي حملت في طياته أثمن المعاني يقول:"لن ينفع حتى ولا محيط من الدماء في إغراق الحقيقة."[1]

- **دور الملكة مارغوفي حياته الفكرية:**

شُغِلاتِ الشقة القائمة تحت شقة بيت أخت الجدة بامرأة في ريعان الصبا سوداء العينين ، تسكن مع أمها وابنتها الصغيرة ، كانت المرأة أنيقة ،تتكلم بصوت لطيف مستبدة تركب الخيل،كانت بارعة الجمال، وذلك الجمال يبدو دائم التجدد يفعم القلب بمرح لذيذ ونشوة ساحرة، كان يشبهها بالملكة مارغو، أوالآنسة لافالييرأوديانا بواتييه، وهن بطلات روايات تاريخية وابنتها مجعدة الشعر تبلغ الخامسة من عمرها لا تقل عنها جمالاً .

لم يكن للطفلة مربية، وتعيش أكثر أيامها دون مراقبة تلعب على الشرفة ،أوعلى كومة من الأخشاب في الساحة ، وكان مكسيم يلعب معها على الأغاب ، وقد تعلّق بها وهي أحبته فكانت تستسلم للنوم بين ذراعيه وهو يروي عليها قصصاً خرافية ، وحين تنام يحملها إلى فراشها، وإذا أوت إلى سريرها ولم يكن موجوداً ألحت في طلبه ليتمنى لها ليلة هانئة .

في أمسية أحد الأيام ، وهو جالس يحمل الصغيرة النائمة، وينتظر عودة معلمه أقبلتِ الأم على جوادها ، وأخذتِ الطفلة منه ، ولكن عندما استيقظت ولم تجد مكسيم رفضت أن تنام قبل أن تتمنى له ليلة طيبة ، دخل غرفة الجلوس وهو شديد الاعتزاز بما فعلته الطفلة وقد تمنت له أن يحفظه المولى،وعندما نامت الفتاة سألته الأم عما يريد أن تعطيه لأنه حضر لرؤية الطفلة، فأجابها بأنه يريد استعارة كتاب يقرؤه، وبذلك علمت أنه يحب القراءة،ووضح لها أن الحياة شاقة ومرهقة بالنسبة له، وأن القراءة تساعده على نسيان شقائها.

قدمت له المجلد الثالث من كتاب " أسرار سان بطرسبورغ " المؤلف من أربعة مجلدات وأخذ يقرؤه بانتباه شديد فوجد أن "أسرار سان بطر سبورغ" أكثر سأماً من أسرار مدريد

[1] غوركي ،مكسيم ، "الأم"، ص٤٧٢.

ولندن وباريس عندما انتهى من قراءة الرواية أعادها، وقد سألته عن رأيه فيها ، ولكنه تحرج أن يقول: إنها لم تعجبه مخافة أن تغضب منه.

أعطته كتاباً صغيراً ، وأكدت له بأنه سيعجبه، وطلبت منه أن يحافظ على نظافته وكان الكتاب مجموعة من قصائد بوشكين فقرأها،وشعر بنشوة كبيرة فقد سحرته تلك القصائد وموسيقاها فكانت أفضل ما قرأ،ولكثرة ما أعاد مطالعتها حفظها يقول في ذلك:" حكايات بوشكين الرائعة هي أفضل ماقرأتُ وأقربه إلى إفهامي من آثاره الأخرى، ولكثرة ماأعدت مطالعتها حفظتها عن ظهر قلب، فحين ألجأ إلى فراشي أردد القصائد وأنا مغلق العينين حتى أستسلم إلى الرقاد ..." [١]

حمل مكسيم الكتاب إلى السيدة، وأخبرها بأنه أُعجِب بمحتواه، سألته عن القصائد التي يفضلها على غيرها ،فشرع ينشد القصائد غيباً وهو يلوح بيده ، أصغت إليه وهي صامتة مفكّرة أخذت تسير في الحجرة ذهاباً وإياباً وأخبرته بأنه كان يجب عليه أن يذهب إلى المدرسة،وسألته فيما إذا كان يمت لمعلمه بصلة قربى فأجابها بأنه يوجد صلة قربى بينهما، فألقتِ اللوم على معلمه لتقصيره .

منحته كتاب " أناشيد بيرانجيه " في طبعة فاخرة مذهبة الأطراف ، وقد جن جنونه وشعر بفرح لقراءة تلك القصائد ، لأنه وجد بأنها مزيج غريب من حرارة مؤلمة ومرح أخّاذ.

كانت تطولها الألسن كما زوج الخياط فيروون أقاصيص بذيئة يثور كيانه وتهتاج مشاعره لها على الرغم من صغر سنه ، ويتفجر قلبه كرهاً على مثيري تلك الشائعات.

تميز مكسيم بجرأة عالية في الحديث عن العلاقة التي تقوم بين المرأة والرجل وبصراحة مطلقة، وهذا الأمر لم ألمسه لدى طه حسين وأحمد أمين فكان هناك تحرج من التعمق في الأمور التي لها علاقة بالعلاقات الجنسية، وقد شابه مكسيم في صراحته حنا مينه فكان يتحدث عما يراه بصراحة.

---

[١] غوركي، مكسيم ،"بين الناس" ،ص٢٦٥.

تحدث مكسيم عن ملكته مارغو التي تختلف عن غيرها، ولم يكن يقوى على أن يتصورها بين ذراعي رجل، ورأى بأنه لا يحق لأحد أن يلمس تلك المرأة بسفاهة، أوأن يكون سيد جسدها،لكنه دخل يوماً غرفة الجلوس،وسمع ضحكتها الرنانة وصوت رجل فشعرت بوجود مكسيم، وطلبت منه الدخول ،عند دخوله أحس أن هواء الغرفة أصبح خانقاً وهنا يفصل في وصف المنظر يقول " الملكة مارغو مستلقية على السرير واللحاف يغطيها حتى ذقنها ، وإلى جانبها يجلس وظهره إلى الجدار الضابط العازف على الكمان في قميصه ، مكشوف الصدر.."[1]

ويتحدث حنّا عن علاقة والده الجنسية بغندف في أول يوم لهجرتهم من اللواء إلى اللاذقية بمرارة يقول:"رأيت والدي يتهامس والست غندف، وهما في وضع مريب، ولقد أثارني المشهد الذي كان الأول من نوعه في حياتي،أثارني إلى درجة الارتجاف ، فكرهت غندف هذه ،وكرهت والدي، وتمنيت أن يغيب القمر، وتسود الظلمة"[2]

أخبرته الملكة مارغو بأنه عندما يكبر سيتذوق السعادة ، تحطم قلبه لأنه اعتقد أن ملكته لا تحب مثل بقية النساء ، وفُوجِئ بالضابط أيضاً، وضع الكتاب مكانه وتناول كتاباً آخر بعد فترة عاد مكسيم إلى السيدة فطلبت منه أن يأتي إليها كلما أتيحت له فرصة ، استغل مكسيم صداقتها وبدأ ينزل إليها وقت القيلولة ، ويجلس معها ساعة أوأكثر،كانت تطلب منه مطالعة الكتب الروسية .

لم يسنح الوقت للملكة مارغو كي تُدخِل مكسيم مدرسة بسبب حادث حدث أيام عيد الثالوث المقدس فقد ُأصيب جفنا مكسيم بتورم شديد أطبق عينيه إطباقاً تاماً، وخاف معلموه أن يفقد البصر ، فأخذوه إلى طبيب نسائي شق باطن جفنيه ، وطلب منه الاستلقاء في البيت أياماً عدة معصوب العينين،وقبل يوم العيد نزع الضماد عن عينيه وقد تحدث عن الروح الروسية الحزينة من خلال الكتب التي كان يقرؤها يقول:" كنت أحب قراءة الكتب الروسية، أتلمس فيها

---

[1] المصدر السابق ،ص٢٧٦

[2] مينه ،حنا،" القطاف "،رواية الجزء الثالث من " بقايا صور" "المستنقع" ،دار الآداب ، بيروت،الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦، الطبعة الرابعة، ص٢٤.

دائماً روحاً حزينة مألوفة كأن أجراس الصوم الكبير توارت بين صفحاتها ، فلا أكاد أفتح كتاباً حتى تشرع تدق دقاتها في بطء وهدوء ..."[1]

هذه القصة تشبه ما جرى مع أحمد أمين عندما كان يقرأ، وفجأة رأى نقطة سوداء على نظارته فحسب أنها نقطة ماء قام بمسحها ثم أعادها ، ولكنها بقيت على حالها وإذ المشكلة في العين، وكان اليوم وقفة عيد الأضحى وكذلك الأمر لمكسيم كانت قبيل أيام عيد ، عانى من عدم وجود طبيب مختص ، وكشف على كل من مكسيم وأحمد أمين طبيب غير أخصائي ، وكانت مشكلة أحمد أمين انفصالاً في الشبكية، ويحتاج إلى عملية كما مكسيم ، وكذلك ضمد عينيه وانقلب نهاره ليلاً كما جرى مع مكسيم ، وعانى كلاهما من فقدان نعمة النور فترة من الزمن ، والسبب في ذلك نهمهما الشديد للمطالعة .

صعد معلمه إلى العلية، وتحدث إلى مكسيم حيث أخبره بأنه قليل الحظ ، قرر مكسيم الرحيل وبعد أربعة أيام ترك عمله، ورغب في الذهاب إلى الملكة مارغو لوداعها لكن الشجاعة خانته، فأوصى الصغيرة بأن تخبر أمها بأنه ممتن لها، وبعد عشرين عاماً رآها وكانت قد تزوجت من أحد ضباط الدرك .

السيدة التي لقبها بالملكة مارغو كزوج الخياط أسهمت في مساعدة مكسيم وكان ذلك من خلال إعارته الكتب ، وتشجيعه على المطالعة، وتعلّيمه بنفسها فكانت حلقة أخرى من السلسلة التي دعمت مكسيم، وصقلت موهبته ليصبح فيما بعد كاتباً يلمع اسمه في سماء الأدب.

لابد لمكسيم من العمل لكسب رزقه بعد أن ترك بيت أخت الجدة ، فقرر أن يعود مرة أخرى غسالاً للصحون على سطح البيرم،وهو مركب بخاري فسيح ، يتمتع بسرعة عالية،عمل عليه فترة من الزمن،واضطر المركب في أواخر الخريف إلى التوقف عن رحلاته.

---

[1] غوركي ،مكسيم "بين الناس"،ص٢٨١.

- **عمله في معمل للأيقونات:**

عمل مكسيم في معمل للأيقونات، وهو مؤلف من غرفتين في بناء كبير نصف حجري ، وقد كانت الغرفتان تغّصان بالطاولات التي ينحني فوق كل منها رسام أورسامان، وكانت هناك كرات زجاجية فيها ماء تتدلّى بحبال من السقف لتعكس نور المصابيح على ألواح الأيقونات المربعة .

كان الجو حاراً في المعمل، ولذلك يرتدي العمال قمصاناً من القطن وسراويل من قماش الكتان ، وكانوا ينشدون أغنيات خالية من المرح ، كان هناك عامل خاص يأخذ الأيقونة حين ينتهي رسامو الوجوه منها ليضيف إليها طلاء على الحافات المذهبة ، ثم تمر على عامل أخصائي يكتب عليها الكلمات المناسبة ،وأخيراً يقوم إيفان لاريونيش بإنهاء العمل في الأيقونة وهو شخص هادئ مهمته الإشراف على المعمل .

حاول مكسيم أن يعرف لماذا الناس الأقوياء يطيعون لاريونيتش بمثل تلك السرعة وتبين أنه يحاول دائماً توجيه الجميع بطريقة صحيحة للعمل، فيصغون إلى نصائحه حتى أكثر المعلمين تجربة بكل طيب خاطر ، كان يرى بأن الإنسان يستطيع أن يتقن أي شيء إذا بذل الجهد الكافي في سبيل ذلك .

كان عمل مكسيم في المعمل تسخين السماور من أجل الرسامين صباحاً قبل أن يستيقظوا إضافة إلى تنظيف الغرفتين ، وفصل المح من البيض المستخدم لمزج الألوان ، ثم الذهاب إلى التسوق،وفي المساء كان يمزج الألوان ،ويشاهد المعلمين وهم يعملون باهتمام عظيم ولكن بعد فترة أدرك أن معظم الرجال الذين يعملون يكرهون عملهم المجزأ ويشعرون بالضجر منه ، ولما لم يكن لديه عمل يقوم به ، فقد كان في المساء يحدث الرسامين عن الحياة على ظهر المركب،أو يقص عليهم حكايات من الكتب ، وبعد فترة أصبح يحتلّ مركزاً خاصاً في المعمل مركز القارئ والراوية.

الاهتمام بالعمال وأوضاعهم السيئة منغمس في أفكاره وقد تطرق له في سيرته وعدد من مؤلفاته فتحدث عن تعبهم، ورغبتهم بالثورة من خلال تمتمتهم التي تشبه زمجرة وحش

غاضب "انتهى وقت العمل ،وتراخت أيدي العمال ، فتهاوت الحبال حول الآلة ، ثم تهالك الرجال على الأرض ، يجففون العرق عن وجوههم ، ويملؤون صدورهم بالهواء، ويريحون ظهورهم، ويتحسسون أكتافهم ،ويشيعون في الهواء تمتمة خافتة بدت كزمجرة وحش غاضب... "[١]

عرف مكسيم بأن هؤلاء الناس لم يحتكّوا بالحياة، قدر احتكاكه بها فهم منذ طفولتهم قبعوا داخل قفص حرفتهم الضيق، ولم يتخلص منه إلا جيخاريف الذي زار موسكو عندما كان يحدثهم عن أمور شاهدها نادراً ماكانوا يصدقونه بسبب تقوقعهم في مكانهم إلا أنهم ميالون للاستماع إلى قصص مخيفة ، وأخرى مليئة بالعقد المحيرة، وحتى الشيوخ كانوا يفضلون الخيال على الحقيقة وكان يرى أن انتباههم يعظم بقدر ابتعاد القصة عن الواقع وبقدر إغراق الأحداث في الكذب، وتلك الأمور أثارت عجبه .

أخذ مكسيم يبحث عن الكتب ، ويقرأ للرجال كل ما يعثر عليه منها ، حتى أن المعمل يخيم عليه سكون يشبه سكون منتصف الليل ،كانت الوجوه هادئة مغرقة في التفكير ، وبين فترة وأخرى ينطَق بكلمة مديح في حق المؤلف، أوالبطل وكان مكسيم يحب فيهم ذلك الانجذاب نحوه ،وقد رأى سيتانوف أن تلك الكتب كالربيع حين تفتح النوافذ يترُك هواؤها اللطيف يتدفّق إلى الداخل للمرة الأولى .

كان مكسيم يجد صعوبات كبيرة في الحصول على الكتب ، ويتدبر أمره بطريقة سؤال كل من يلقاه ،وقد أعطاه يوماً ناظر الإطفائية كتاباً، ويذكر أن سيتانوف حين بدأ مكسيم بقراءة قصيدة " الشيطان " نظر في الكتاب، ثم في وجهه ، ودفع ذراعيه بين ركبتيه، وراح يترنح إلى الأمام والوراء مبتسماً ، وقد شعر بسعادة كبيرة.

كان مكسيم مغناطيساً جباراً يجذب الناس نحوه ، وحين انتهى من القسم الأول من القصيدة كان سائر الرسامين يتجمعون حول الطاولة ، وعندما أنهى القراءة تناول جيخاريف الكتاب، وطلب منه أن يقرأه غداً .

---

[١] غوركي، مكسيم، "رجال ونساء" ، ترجمة حلمي مراد، الناشر دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، بيروت ،١٩٩٨،ص٨٧.

لجأ مكسيم بعد فترة مع صديق له يدعى باول إلى وسيلة تسلية جديدة، وهي القيام بتمثيل بعض الفصول الهزلية من تأليفهما فطليا وجهيهما بالألوان، ووضعا الشعر المستعار على رأسيهما ، وسوالفاً من نبات القنب ، وبذلك قتلا سأم الناس وأشعرا الناس بالغبطة ، لكن الغبطة الروسية برأيه لا تعمر طويلاً وبطريقة مفاجئة تتحول إلى مأساة ، كان يرغب أن يبعث في نفوس الناس فرحاً طويل الأمد ، فيبذل جهوداً في سبيل ذلك وتلك الجهود لا تضيع هباء فيمتدحه الرسامون أحياناً.

وأرى أن مكسيم لديه قدرة على التأثير بالناس، وإسباغ السعادة عليهم ولم يكن مقتصراً على وسيلة واحدة وهي القراءة وإنما لجأ إلى التمثيل فخلع عنهم ثوب السأم والضجر وألبسهم ثوب المرح.

وقد ذكر عبد المعين الملوحي أن الأدباء ليس فقط أرباب بلاغة بل لسان الشعب وثغره الباسم حيث قال:" أكاد أجزم أن الأدباء من شعبهم ثغره الباسم، أو طرفه الدامع، وأنهم لسانه المفصح عن خواطر الفكر ومكنونات النفس ولواعج القلب .."[١]

كان مكسيم يستمع إلى أحاديث الرسامين التي تثيره ، فيشعر بالغبطة حين يراهم يؤيدونه بأن الحياة فاسدة، وينبغي أن تكون أفضل،ويجد في الوقت ذاته أن الرغبة وحدها لا تكفي في جعل الحياة أفضل، ولا تسهم في التخلص من الفساد ، كما أنها لا تغير مجرى الحياة في المعمل، أو العلاقة بين الرسامين ، وهذا دليل على أن لدى مكسيم رغبةً منذ صغره في الثورة على الواقع المتردي، والعمل على تغييره ليكون أكثر عدالة .

برع مكسيم في الوصف فقد كان يمتلك القدرة على تصوير أدق التفاصيل سواء أكان الوصف متعلقاً بالأشخاص أم الأشياء يقول في وصف الطبيعة: " ذابتِ الثلوج في الحقول وذابت في السماء سحب الشتاء ،وانصبت على الأرض ثلوجاً وأمطاراً ...وبدا أن الربيع المرح حلّ أخيراً ولكنه مختبئ في مكان ما بين الحقول مازحاً ماجناً ، متحضراً للوثوب على المدينة ...وعصافير دورية تتواثب مرحة بين برك الماء ..."[٢]

[١] الملوحي،عبد المعين،"الادب في خدمة المجتمع "، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،١٩٨٠،ص٢٣.
[٢] غوركي، مكسيم،" بين الناس"، ص٤١٢

ألمح تجسيد الطبيعة واضحاً في بعض مفرداته فقد جعل الربيع إنساناً يتميز بالمرح مرة، وحيواناً يتحفز للوثوب مرة أخرى، فمنح بذلك المفردات روحاً وإحساساً ومشاعر.

أخذت معاملة الناس تتحسن معه شيئاً فشيئاً ، فلم يعودوا يضايقونه ولا يسخرون منه ،ويسمونه باسمه الكامل وباسم أبيه احتراماً له ، وكان ذلك الأمر يشعره بالراحة، وأدرك من خلال قربه من الناس أن الخمرة والنساء هما التسليتان الوحيدتان لديهم.

- **عودته للعمل مع ابن أخت جدته على أرض المعرض:**

كان سيحقق رغبته في الفرار لولا أنه التقى بمعلمه القديم ابن أخت جدته يقوم بنزهة على ضفاف النهر، وهو محب لمكسيم أطلعه مكسيم على رغبته في السفر فقام بتغيير فكرته وذلك عندما طلب منه العودة إلى العمل عنده ، لأن أعمال المعرض تقدر بأربعين ألفاً من الروبلات، وسيقيم في المعرض،ويقوم بأعمال المراقبة واستلام مواد البناء في المكان الصحيح ووقته المحدد ، والسهر على العمال كيلا يسرقوا المعلم والأجر خمسة روبلات شهرياً وخمسة كوبيكات من أجل الغداء،وان يكون لأمه وزوجه شأن مع مكسيم، فوافق على ذلك.

ودع مكسيم الرسامين وقد كان الوداع محزناً فقد شعر بأنهم يتحدثون بلا مبالاة وعلى سبيل المجاملة ،وكأن الصلات التي تربطه بهم تعفّنت ، وكان موقف جيخاريف غير مرضٍ لأنّه لم يعِد إليه كتاب " الشيطان " وعرض عليه النقود ولكن مكسيم رفضها ورأى في ذلك قسوة بالنسبة إليه أن يفترق عن ليرمنتوف(١٨١٤-١٨٤١)، وخاصة أن الكتاب أُهدِي إليه من رئيس فرقة المطافئ .

عاد مكسيم مرة أخرى إلى عمله مع معلمه السابق ، فوجد أن الشقة التي كانت تسكنها الملكة مارغو تقطنها الآن أسرة مؤلفة من خمس فتيات، وأخوين يدرسان في المدرسة الثانوية وكانوا يعطونه كتباً فقرأ " حياة المدرسة الدينية " وذُهِل له حين اكتشف شبهه بحياته في المعمل.

رغب مكسيم في التفوق عليهم حتى في مسألة الحب تعلّق بحب بيتزينا، فصارحها بذلك،إلاّ أن خاتمة تلك القصة الغرامية كانت محزنة ، فقد اقترح عليها يوماً أن يقوما بنزهة على لوح خشبية ،ولكن ما إن اتخذتِ الفتاة مكانها حتى مالت اللوح تحت قدميها ، وسقطت الصبية في البحيرة ، فسحبها إلى الشاطئ على الفور ، إلاّ أن الفتاة اتّهمته بأنه تعمد إغراقها ورفضت اعتذاره ، وأصبحت خصماً له.

كان ينصرف إلى عمله في الساعة السادسة صباحاً حيث يلتقي أشخاصاً عدة منهم النجار أوسيب، وصانع السقوف بيفوموشكا الأحدب ، والبنّاء بيوتر الورع ، والطّيان غريغوري كانوا يأتون كل يوم أحد إلى المطهى بوقار، ورزانة، ويتلفظون بعبارات لطيفة لم يعهد سماعها وهم على جانب عظيم من الطيبة والصلاح ،ويختلفون عن الرجال الدنيئين والمدمنين على الخمرة .

أعجب مكسيم بالطيان غريغوري، وطلب منه أن يتمرن لديه ، لكنه رفض ذلك بلطف وبرر له سبب رفضه بأنه صغير، والمهنة شاقة وأراد منه أن ينتظر عاماً، أوعامين كان مكسيم يسهر في المعرض حتى لا يقدِم المتعهدون على سرقة شيء من المسامير ، أو القرميد أو الألواح الخشبية ، فإن كل عامل منهم يتعهد إضافة إلى عمله لدى معلمه أعمالاً مختلفة في أماكن أخرى،ويحاولون دائماً أن يسرقوا ما يمكن أن يفيدهم في تلك الأعمال .

ماكان يدفعه المعلم له ثمن طعام لا يسد حاجته فهو يشعر بالجوع في أغلب الأحيان ، ويرى العمال ذلك فيدعونه إلى تناول الفطور والعشاء معهم ، ويدعونه أحياناً إلى احتساء الشاي في الحانة ، وكان يقبل دعوتهم بسرور فقد كان يرغب في مجالستهم والاستماع إلى أحاديثهم وقصصهم الغريبة ،وقد أُعجِبوا بكفاءته في الاطّلاع على الكتب الدينية .

- **اهتمامه بقراءة الكتب للعمال :**

قرأ مكسيم قصصاً كثيرة عن العمال، ولمس من خلال تلك القراءات أن هناك فرقاً بين عامل الكتب، والعامل الحقيقي،فالعمال جميعهم في الكتب مخلوقات تعيسة ، ينقصهم ثراء التفكير والحديث، ويتحدثون قليلاً عن ا والطوائف والكنيسة ، وكثيراً عن الأشياء المفضلة

لديهم عن صعوبات الحياة ، كما يقل الحديث عن النساء ، وموقفهم منهن أقل قسوة وأكثر استعداداً للتعاطف.

المرأة بالنسبة إلى رجل حقيقي هي ملهاة ولكنها ملهاة خطرة وينبغي أن يكون خبيثاً معها كيلا تتفوق عليه وتدمر حياته ،الرجل الحقيقي ليس طيباً أو شريراً بل يثير الاهتمام إلى أبعد الحدود، ومهما يكن الرجل الحقيقي يتحدث بعشوائية ولا مبالاة يحتفظ بشيء لنفسه قد يكون الشيء الذي يحتفظ به لنفسه يمثل جوهره الخاص .

تعلّق مكسيم بشخصية بيوتر المذكور في قصة " عصبة النجارين "، وأراد أن يقرأ تلك القصة على زملائه فحمل الكتاب إلى أرض المعرض، وما أكثر ما كان يمضي الليل في مجمع هؤلاء العمال أوأولئك ، وحين أعلن أنه يملك كتاباً عن النجارين أظهر الجميع اهتماماً بالغاً وخاصة أوسيب ، أخذ الكتاب بين يديه وجعل يقلّب صفحاته، وهو يهز رأسه .

طلب بيوتر من مكسيم أن يقرأ عليه شيئاً ، وهذا الأمر أسعده ويبدو أن مكسيم كان يمتلك قدرة كبيرة على سرد القصص، وطريقة مشوقة في جذب انتباه السامع ، من خلال حسن انتقائه للكتب التي تناسب الأشخاص الذين يرويها لهم، لأنني دائماً من خلال قراءتي لمكسيم أجد رغبة كبيرة من قبل الآخرين في الإصغاء لحكاياته على اختلاف تفكيرهم ومعارفهم وفي أي مكان حلّ به وعلى سبيل المثال في بيت معلمه عندما كان يقرأ " كراسة موسكو " وبعض المجلات ، وفي مركب الدوبري كان يقرأ على سموري الذي أحب ما يرويه يقول : " ازداد شغف سموري بالكتب ، فكان ينتزعني من عملي ، ويخاطبني قائلاً : بشكوف! تعال واقرأ! هناك تلة من الصحون يجب أن أغسلها يدفع بخشونة كبير غسالي الصحون للقيام بعملي ..."[1]

وكذلك الأمر تعلق الرسامين بقصص مكسيم وغيرهم ممن صادفهم في حياته هو دليل على أن مكسيم يمتلك قدرة على جذب انتباه السامع، وجعله يصغي إليه إصغاء عفوياً مليئاً بالرغبة .

---

[1] غوركي، مكسيم ، "بين الناس"ص١٥٣.

وعند انتهاء العمل يعود العمال إلى مجمعهم لتناول العشاء،وبعد العشاء يزوره بيوتر مع مجموعة من الحرفيين ، فيشعل بيوتر مصباحاً في السقيفة حيث ينام العمال ، ويبدأ بالقراءة ويستمعون إليه دون أن يصدروا صوتاً أوحركة وبعد أن انتهى سأله بيوتر عن هدف الكتب لأنه رأى أنه إذا كان مكتوباً ضد زوجات الآباء فلن يصلحهْن، وإذا كان مكتوباً ضد بتوتر فسيجب عليه تلقي ما هو مكتوب له في لوح القدرلأنه ارتكب جريمة واستحقّ عليها الإقامة في سيبريا عقاباً له والكتاب برأيه لا يمكن أن يساعده .

أعطاه أوسيب جواباً، وطلب أوسيب من مكسيم ألاّ يبالي لتلك الأمور لأنه لا يزال شاباً والحياة أمامه ، وعليه أن يختزن أفكاره ففكرة يبدعها تساوي فكرتين من إبداع الآخرين وألاّ يكفّ عن القراءة ولكن لا يصدق كل ما كُتِب ، فالكتّاب برأيه يطبعون مايخطر في بالهم وقوتهم هي القوة الغالبة ،والكتاب مصدر للأخبار ، هذا ما هو عليه إنه أشبه بمن يقول لك مايشبه رجلاً عادياً نجاراً أومثيلاً له أوما يشبه السادة فالكتاب يكتَب للدفاع عن هذا الإنسان أو ذاك .

أبدع مكسيم في عالم الأدب، ولمع اسمه وقد ذكر الناقد السوري(توفي١٩٨٤) جلال فاروق الشريف أن مكسيم هوالمؤسس الفعلي للواقعية الاشتراكية يقول:"إذا كان بوشكين مؤسس الأدب الروسي الكلاسيكي فإن مكسيم غوركي مؤسس الأدب السوفياتي، كان الجسر الحي الذي ربط الماضي بالمستقبل ،أي بين تقاليد الواقعية في الأدب الروسي الكلاسيكي، وبين الواقعية الاشتراكية التي يعد مكسيم مؤسسها الفعلي في ظل ثورة أكتوبر.."[١]

- **تعطّل أعمال المعرض وتبدل نفسية معلمه:**

تعطّلت أعمال أرض المعرض حين قدم الشتاء ، فعاد إلى البيت، وعادت الأعباء ذاتها التي كان يتحملها فالأعمال تأخذ النهار بطوله أما في وقت العشاء فيكون حراً، وهكذا عاد لقراءة روايات منشورة في " النيفا " "وكراسة موسكو" لأسياده وفي ساعات الليل يطالع الكتب القيمة ، ويحاول نظم الشعر .

[١] الشريف، جلال فاروق ، "في الأدب السوفياتيّ "دراسة تاريخية تحليلية موجزة" وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق، ١٩٨٣، ص٩٩.

هذا هو مكسيم لا فراغ لديه ولاراحة فقد كانت راحته بين الكتب وسعادته بتقليب صفحاتها، ومعرفة ما تحمله في طياتها في وقت فراغه يقرأ لأسياده ،وفي وقت راحته وهو النوم ليلاً الذي يتطلبه الجسد ليستعيد قوته، ويسعى إليه البشر جميعهم يفضل عليه المطالعة وصقل موهبته الشعرية.

هذا مالمسته لدى كتابنا فهم يمتلكون طاقة هائلة يسخرونها في نهل المعرفة ولديهم نهم عظيم للقراءة فكلما تبحروا في القراءة زادت عندهم الرغبة فيها حتى إن مكسيم غوركي وأحمد أمين أصيبا بمشكلة في بصرهما كما أسلفت سابقاً من القراءة المتواصلة، وبالحديث عن طه حسين أصيب بآفة العمى، منذ صغره إلا أن هذه الآفة لم تقف عائقاً في وجهه فقد أجاد حسن الإصغاء فكتب، وأبدع في كتاباته.

في أحد الأيام بقي معلمه في البيت بسبب أوجاع كان يعاني منها ، وقد خرجت معلمتاه لحضور صلاة الغروب ، فطلب من مكسيم أن ينشده بعض الأشعار تأمل معلمه أن يصبح مكسيم بوشكيناً آخر،وأنه من الواجب أن ينال ثقافة، طلب منه أن يخبئ دفتره عن عيون النسوة لأنهن مولعات بالسخرية .

غدا معلمه كثير التفكير يرمق ما يحيط به بنظرات مشتتة، ويرتعش من رنين جرس الباب،ويثور أحياناً لأتفه الأسباب،ويخرج من البيت ولايعود إلاّ في ساعة متأخرة وهو سكران،ويبدو أن هناك أمراً يعكّر مجرى حياته، ويمزق شغاف قلبه .

كان صاحب الحانة يمضي إلى المدينة سعياً وراء المغنين،ويدعوهم إلى زيارته ويأخذ المغني الجديد مقعداً قرب المشرب أمام برميل الفودكا، وكان هناك شخص يدعى كليتشوف أفضل المغنين،ويبدو عليه كأنه كاهن صالح وقورلا يعظ الناس وعظاً بل يصلي بكل جوارحه من أجل البشر جميعهم .

رغب مكسيم بإقامة صداقة مع المغني، وأراد إبداء إعجابه به لأن لديه القدرة على اجتذاب الناس لكنه لم يستطع بسبب كبريائه يقول في ذلك " كنت أحسد هذا الرجل أحسده من جماع قلبي على نبوغه ، ومقدرته في السيطرة على الآخرين،والطريقة الرائعة التي يستخدم

فيها تلك القدرة ، ووددت لو أقيم بيني وبين هذا السراج أواصر صداقة ، وأتحدث معه عن كل شيء ،ولكنني لم أجد الجرأة على الاقتراب منه فما أغرب أسلوبه في التطلع حواليه.."[١]

اختفى كليتشوف بعد فترة عن الأنظار،وتزوج زواجاً سعيداً ،ورحل إلى الريف حيث افتتح محلاً لصنع السروج ،وقبيل رحيله امتدح مكسيم غناءه أمام معلمه، فذهب إلى الحانة ليسمعه استخفّ به أول الأمر،وأخذ يصب لنفسه قدحاً من الجعة ، ثم توقف على حين غرة وأعاد الزجاجة إلى مكانها بيدٍ مرتعشة، وبدأ يصغي بانتباه ،وبعد أن انتهى كليتشوف من غنائه أخبر مكسيم بأنه مغنٍ بارع .

غنّى السراج مرة أخرى، وقد تأثّر معلمه بغنائه، فأخذ يبكي دون أن يشعر بشيء من التحرج وفي الأغنية الثالثة لم يتمكن من البقاء ، وأراد الذهاب إلى البيت إلا أنه غير رأيه حيث ركب زلاجة، وجلس صامتاً إلى أن وصلا إلى الفندق ،وأخذ يتحدث عما في داخله لمكسيم حيث تذمر من وضعه مع زوجه وأولاده فالزوجة لا تدرك ما يقوله لها ولا يعنيها سوى بيتها وأولادها ومشاكلها، والناس من حوله أنذال ،وأعلمه بأن ثقته بالعمال ليست في مكانها ولا يهتمون بكلماته ،فبيوتر وأوسيب وغيرهما ينقلون له ما يقوله مكسيم فُصعِق لما سمع .

برأيي تجربة مكسيم هي درس يمكن الاستفادة منه فهو كان يتحدث أمام أشخاص يظن أنهم سيكتمون ما يقوله لهم لذلك يجب ألاّ نضع ثقتنا بأي كان، والاحتفاظ ببعض الأمور لأنفسنا، والتزام الصمت في كثير من المواقف لأن الصمت أحياناً أثمن من الكلام .

شعر معلمه أن كلمات الأغنية الثالثة تنطبق عليه فهو يرى أن لا حبيب له ولا صديق أطلع مكسيم على سره الذي كان يقض مضجعه، وهو علاقته بروح لطيفة امرأة أرملة حكِم زوجها بالنفي إلى سيبيريا بسبب تزويره نقوداً ، تعرف عليها ولم تكن تملك نقوداً لحسابها الخاص .

[١] "غوركي، مكسيم"، بين الناس"، ص٥١٩.

رآها فاتنة ، فتية باهرة الحسن ، وهكذا شرع يقابلها مرة أومرتين ، ثم سألها مرة : زوجها في السجن وهي تخونه، وتنوي اللحاق به إلى سيبيريا ، فأجابته : بأنه طيب بالنسبة إليها وهي تهيم في حبه ،ومن أجله تفعل ذلك،لأنه يحتاج إلى المال وقالت : لو كانت وحيدة لعاشت حياة شريفة وقد ألفت المعلم طيباً وُأغرمت به، وطلبت منه ألا يحدثها في الموضوع ثانية.

أعطاها ماكان معه من نقود حوالي ثمانين روبلاً ، وأخبرها بأنه لن يستطيع رؤيتها بعد ذلك يقول : " خلوت بها ست مرات ... وليس في مقدورك أن تتصور ما كان عليه ذلك اللقاء ! وذهبت إلى شقتها ست مرات أخرى على ما أظن ،ولكنني لم أجرؤ على الدخول لم يكن ذلك في مقدوري ، وقد رحلت الآن ..." [١]

مضى على عمل مكسيم مع معلمه ثلاثة فصول من فصول الصيف مراقباً في المدينة كان يرى العمال في كل خريف يهدمون الدكاكين الحجرية ، ثم يعيدون بناءها في كل ربيع حرص معلمه على اشتغاله ما يستحق عليه الخمسة روبلات التي يدفعها له شهرياً ، العمال والمتعهدون يسرقون بعض الأشياء إذا شُغِل عنهم،ولا ينزعجون إذا كشفهم، ويقولون له ببساطة : إنه يتعِب نفسه في سبيل خمسة روبلات وكأنها عشرون، ويسخرون منه .

بين لمعلمه أنه في سبيل توفير روبل عندما يقوم مكسيم بعملية رفع التراب عن مساحة الأرض على عمق قدمين حتى يضع أرضاً خشبية في أحد الدكاكين، وهذا الأمر يشغله عن العمال يقومون بسرقته ويخسر كثيراً ، فأجابه بأنه لا يحاول خداعه ، فأيقن مكسيم أن معلمه يشك به ، ويتهمه بالتعاون مع اللصوص ، وردة فعل معلمه جعلته يحتقره ، فالجميع يسرقون ، ومعلمه نفسه لم يكن يتردد في سرقة أموال الآخرين .

بدتِ الحياة في عينيه مفككة، وباهتة فقد كانوا يصلحون الدكاكين التي لا تلبث أن تغرقها فيضانات الربيع فتتفكك أرضياتها الخشبية، وحين تنحسر المياه تتعفن العوارض الخشبية،وكانت الفيضانات السنوية تُلحِق بالناس أضراراً جسيمة، ويعلم الجميع أن تلك

---

[١] المصدر السابق ، ص٥٣٢-٥٣٣.

الفيضانات لامفر منها كان تحطم الجليد في كل ربيع يتلف عدداً من مراكب النقل ، أما الصيف فلا يمر دون أن تندلع النيران في الغابات القائمة وراء الفولغا .

لم يهتم مكسيم بالفودكا، أومغازلة الفتيات فقد حلّ محل هاتين الوسيلتين الشغف بالكتب ، فكلما ازداد قراءة رأى أنه لا يمكن أن يعيش حياة لافائدة منها كما يعيش أكثر الناس، كان قد بلغ الخامسة عشرة ، وتمر به أوقات يشعر أنه أصبح عجوزاً ، وكل ذلك عائد إلى الأيام التي عاشها والكتب التي قرأها ،والأمور التي تراود فكره. .

كان مخزون أفكاره أشبه بمخزن للأخشاب تكدست فيه أشياء كثيرة لم تكن لديه القدرة والقابلية على ترتيبها ،وثقلت تلك الأفكار فراح يقلّبها في رأسه مثلما يفعل الماء بمركب متداعٍ كره الشكوى ، والمرض ، والأذية ، وكانت رؤية المشاجرات ،والضرب ، والدماء تثير فيه الاشمئزاز ،وتحمله رغبة عارمة في ضرب الظالم المعتدي.

حلم بالسفر إلى بلاد فارس وهو يحمل الكتب وحدها معه ، وبالاعتكاف في دير أو الإقامة في كوخ في غابة أو كوخ لأحد حراس السكك الحديدية ، وكلما قلّ عدد الناس حوله كان ذلك أفضل بالنسبة إليه .

وهذا الحلم ليس كأي حلم بل يجب أن يكون حقيقة لكل شخص يحب المطالعة بهذا الشكل النهم فهو بحاجة إلى هدوء تام ليساعده على التركيز وفهم ما يقرأ ، ثم الوصول إلى المغزى الذي تحمله تلك القصص والحكايات إضافة إلى نظم الشعر الذي يحتاج إلى خيال واسع يصل صاحبه من خلاله إلى خفايا أمور كثيرة يتولد من خلالها الإبداع .

- **سفره إلى قازان :**

انطلق مكسيم إلى قازان بعد ثلاث سنوات في فصل الخريف وفي داخله أملٌ بإيجاد وسيلة ينهل منها العلم في ذاك المكان ، وقد وضع فكرة الدراسة الجامعية في رأسه طالب ثانوي يدعى بيفرينوف أوضح له أن الجامعات بحاجة قصوى إلى شبان من أمثاله .

أعلمه بأنه سيقيم في بيته في قازان،ويتابع خلال فصلي الخريف والشتاء دروسه ليستوعب البرنامج الثانوي،ثم يتقدم لبعض الامتحانات ،وفي غضون خمس سنوات يغدو رجلاً مثقفاً ، وكان يفرينوف في ذلك الوقت في التاسعة عشرة ،أنهى يفرينوف امتحاناته وسافر، ولحق به مكسيم بعد أسبوعين وقبل ذلك ودع جدته التي طلبت منه عدم التنازع مع الناس .

وصل مكسيم إلى عائلة يفرينوف المؤلفة من الأم وولديها كانت تعيش تلك العائلة على مرتب تقاعدي شحيح ،وقد أدرك منذ أيامه الأولى الكآبة المفجعة من خلال ملامح الأرملة المرهقة حين تعود من السوق ، فتلقي ما تشتريه على المنضدة ،وتحاول حلّ مشكلتها في كيفية خلق طعام يكفي ثلاثة أشخاص أصحاء من قطع صغيرة من لحم كريه ، ولا تحسب حساب نفسها .

بعد ثلاثة أيام من قدومه أخذ يساعدها في تنظيف بعض الخضروات فسألته عن سبب قدومه إلى البلدة فأجابها:للدراسة في الجامعة، فُصدِمت لذلك وسقطت سكينها،فجرحت إصبعها وبعد أن عالجت جرحها، قام مكسيم بتقشير البطاطا فقالت بأنه يقشر البطاطا بصورة رائعة ، فأخبرها بقصة عمله على سطح قارب نهري ، أعلمته بأن هذا لايكفي لدخول الجامعة فعرض عليها عرضاً مفصلاً الخطوات التي تفتح أمامه بوابات العلم .

كانت كل كسرة خبز يبتلعها في ذلك البيت تثقل على ضميره بقسوة ، فأخذ يبحث عن عمل، فيغادر البيت في الصباح ،ويتغيّب حتى يتأكد أن الغداء انتهى، ويقضي أحياناً الساعات في قبو بين القطط والكلاب يتنشق روائح العفونة يصغي إلى المطر المتهاطل وأنين الرياح ولم يلبث أن فهم بأن الجامعة ليست غير وهم خداع .

عندما قرأت ماآلت إليه أوضاعه من ترد وفقر وجوع شعرت بغصة سيطرت على روحي فحياته مرة تتناسب مع لقبه غوركي الذي يحمل معنى المرارة، والذي كان يخّفف من المرارة الحلاوة التي يشعر بها عندما ينغمس في القراءة، ويحلم بالدراسة في الجامعة وفقدانه لهذا الحلم جعلني أشعر بأنه ظلم، ولكن جامعة الحياة التي تثقّف فيها عوضته عن ذلك الظلم .

تحدث مكسيم عن الطريقة التي كان يتخلص فيها من الجوع يقول: "ولكي لا أتعذب كثيراً من الجوع، فقد كنت أذهب إلى موانئ الفولغا حيث أربح من خمسة عشر إلى عشرين كوبكاً بسهولة ، وهناك بين ناقلي البضائع والمتشردين والنشّالين شعرت بنفسي كأنني قطعة حديدية مغّمسة بالجمر."[1]

انجذب مكسيم بصورة خاصة إلى غوري بليتنيوف كان شاباً داكن البشرة ، تغطي وجهه نقط سود صغيرة،تكمن فيه بذور عبقريات مختلفة ، كأكثر ذوي المواهب الروسيين ، يعيش على ما وهبت له الطبيعة ، يعشق الموسيقى ويهب لها أذناً مرهفة ، يعزف عزفاً شيقاً على الأكورديون ، كان كل ما تعرضه عليه الحياة جديداً بالنسبة إليه ، ويثير في نفسه شعوراً بالفرح .

ويمكن هنا أن أشير إلى أن الدكتور بديع حقي ذكر أن الواقعية جاءت لتتم الرومانسية، وتنقّيها يقول:"أما الواقعية في الرواية الروسية ، فلم تكن ثورة على الرومانسية بل تتمة وتنقية لها من المبالغة في إظهارالحسرة والشكوى،فقد وصف"نيقولاي غوغول" شخصية"أكاكي أكاكييفتش"الموظف الساذج المسكين الذي شرى بكل ما ادخره من مال معطفاً جديداً لم يلبث أن سرق منه ليلة ارتدائه له ،ووصف شخصيته بدقة وواقعية ."[2]

ثم يذكر كيف انحدرت من تلك الرواية القصيرة الواقعية الروسية يقول:"كانت هذه الرواية القصيرة ..ممهّدة للرواية الواقعية الروسية التي وضع غوغول أسسها وتحدرت منها واقعية تولستوي الإنسانية، وواقعية دستويفسكي السيكولوجية،والواقعية الماركسية التي التزمها -بدءاً من غوركي– الأدب السوفييتي برمته، فيما بعد يقول دستويفسكي عن رواية "المعطف": "كلنّا تخرجنا من المعطف"لينعم جلّ الروائيين الروس المبدعين فيما بعد بدفء هذا المعطف"[3]

كما أن الآداب تتفاعل مع بعضها من خلال التأثر والتأثير ، وكذلك الأمر المذاهب تكمل بعضها بعضاً.

---

[1] غوركي، مكسيم ،" مكسيم غوركي" ، ص٤٣.
[2] حقي، د. بديع ، "مذاهب وأعلام في الأدب العالمي" ،مكتبة الأسد، دمشق ،الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ ، ص١٥٤.
[3] المرجع السابق، ص١٥٤

عندما عرف بليتنيوف ما في حياة مكسيم من تعب وخطر عرض عليه أن يسكن معه، وأن يدرس حتى يصبح معلماً ، وهكذا ألقى نفسه في ذلك البيت المزدحم بالسكّان الذي كان مألوفاً لأجيال عدة متعاقبة من طلاب قازان ،كان بليتنيوف يسكن ردهة تحت درج العلية أقام فراشه تحت الدرج وإلى جانب النافذة في نهاية تلك المساحة مائدة وكرسي ، ولم يكن لديه شيء آخر.

كان هناك ثلاث غرف تنفتح على الردهة ، يشغل اثنتين منها عاهرتان ، أما الثالثة فيشغلها مدرس رياضيات طويل القامة ، نحيل العود يبعث الرعب في قلب الناظر إليه ، كانت العاهرتان تخافانه، وتحسبانه مجنوناً ولكنهما تشفقان عليه فتتركان له الخبز والشاي والسكر عند بابه .

كان بليتينوف يعمل في مكتب للطباعة مصححاً ليلياً لإحدى الصحف،ويتقاضى أحد عشر كوبيكا في الليلة الواحدة ، وإذا رجع بدون مال فيعيشان النهار بطوله على أربعة أرطال من الخبز ، كانت الدراسة تتطلب من مكسيم جهداً شاقاً فقد لقي في استيعاب النحو بصيغه المتحجرة صعوبة، وسرعان ما اكتشف بعد حين لحسن حظه أنه بدأ دراسته في وقت مبكر جداً، ولواجتاز الامتحانات التي تخوله أن يغدو معلماً ريفياً فلن يتاح له إشغال ذلك المنصب بسبب صغر سنه .

كان غوري الوحيد الذي يتحلّى بحكمة المرح من بين سكّان ذلك البيت ، يلعب دور الجنّي الطيب في الأساطير الخرافية ،وكانت روحه الفتية تضيء الحياة من خلال نكاته المختلفة ،وأغنياته الرائعة، وسخريته اللاذعة عن الطبائع والعادات البشرية ، ولم يكن قد جاوز العشرين من عمره ، وسكّان البيت يعدونه واحداً ممن يلجؤون إليهم حين يصعب عليهم أمر طلباً للمشورة ، الناس الطيبون يحبونه ، وغير الطيبين يهابونه .

تعرف مكسيم على أندريه ديرنيكوف، وهو صاحب بقالية صغيرة في نهاية شارع فقير ، ديرنيكوف ضامر الذراع ، وجهه لطيف ، كان يملك أروع مكتبة في قازان تحوي كتباً نادرة ،وأدباً محرماً وهي مجموعة يتداولها الطلاب في عدد من المؤسسات الثقافية المختلفة والأشخاص النازعون إلى الثورة في أفكارهم .

كان هناك باب يصل بين الدكان، وغرفة كبيرة، الغرفة بدورها تؤدي إلى مطبخ ضيق وراء المطبخ مستودع صغير يضم المكتبة ، بعض الكتب كانت مكتوبة بخط اليد على دفاتر سميكة من بينها رواية " الرسائل التاريخية" للأفروف ،ورواية "وما العمل" لتشيرنيشيفسكي،(١٨٢٨-١٨٨٩) و"الملك مجاعة".

كانت تدبر شؤون منزل ديرينكوف امرأة فارعة القوام، وتساعدها في ذلك ابنتها ، أما السادة الحقيقيون في منزل ديرينكوف فهم طلاب الجامعة،وطلاب الأكاديمية اللاهوتية والكلية البيطرية،وهم مجموعة من الشباب الذين عمرت أفكارهم بالقلق على مصير الشعب الروسي ، والقلق المستمر على مستقبل روسيا.

إذا أرهقتهم المقالات المنشورة في الصحف اليومية ، ونتائج الكتب التي يقرؤونها حديثاً وأحداث البلدة والجامعة ، فهم يسرعون في المساء إلى دكان ديرينكوف من جميع أنحاء قازان ، للانهماك في جدال عنيف ،أوالتهامس في هدوء في زوايا الغرف ، وكانوا يحملون معهم كتباً ضخمة ، ويتصايحون في وجوه بعضهم بعضاً ، وكل منهم يحاول أن يثبت الحقائق التي يتصور أنها أكثر صحة .

ويرى محمد الشوباشي أن الأديب المبدع هو من يتأثر بمجتمعه ويؤثر به فيقول في ذلك:

"وموهبة الفنان الإبداعية لا تقتصر على التأثر بمجتمعه والتكيف به، ولكنها تعود فتؤثر في المجتمع ،وتكيفه والذي ينكر ذلك ينكر الدور الرئيس الذي يلعبه تطور الأدب والفن بعامة."[1]

فلم يكن مكسيم أديباً فقط بل شارك في المنظمات الاشتراكية، وحنا مينه شارك في المظاهرة التي قامت في إسكندرونة، كما سيرد في سيرته، وكذلك الأمر بالنسبة لأحمد أمين الذي شارك في المظاهرات، وطه حسين الذي تابع الأحداث وهو خارج بلاده.

لم يكن مكسيم يستوعب من تلك المناقشات إلا أشياء قليلة فالحقائق تضيع منه في غزارة الكلمات ، ولطالما شعر بأن أحاديث الطلاب كانت تعطي تفسيراً لأفكاره الخرساء ،وقد

[1] الشوباشي، محمد مفيد،" رحلة الأدب العربي إلى أوربا "، مطابع دار المعارف بمصر، القاهرة ، ١٩٦٨،ص٣٦.

كان ينظر إلى أولئك الناس باحترام فائق أما هم فكانوا ينظرون إليه مثلما ينظر النجار إلى قطعة من خشب قد يشعر أنه قادر على أن يجعل منها عملاً غير عادي .

رأى يوماً في إحدى المكتبات مجلداً بعنوان" أمثال وحكم" فتملّكته رغبة قوية في قراءته، وسأل طالباً من طلاب الأكاديمية اللاهوتية أن يعيره نسخة منه ، فكان جواب مطران المستقبل الساخر له بأن عليه أن يقرأ ما يعطى له ولا يحشر نفسه بما لا يعنيه فأثاره ذلك، واشترى الكتاب بما جمعه من مال على أرصفة الميناء ،وأكمل الثمن بما استدان من ديرينكوف .

ردة فعل طالب الأكاديمية اللاهوتية على طلب مكسيم كانت سيئة، فالمفروض أن يكون مشجعاً للأشخاص المحبين للعلم لا محبطاً لهم ، أما تصميم مكسيم على اقتناء الكتاب من ماله القليل الذي لم يكن كافياً والاستدانة أيضاً من ديرينكوف حتى يكمل ثمنه أمر ليس بغريب عن مكسيم الذي يحب المطالعة ،فمن هذه الظروف الصعبة يولد العظماء وهم أشخاص غير عاديين يتحملون،ويصبرون من أجل الوصول إلى هدفهم الذي يسعون إلى تحقيقه وهدف مكسيم كان دائماً النهل من المعارف أينما وجدت .

- **تطور أفكار الواقعية الاشتراكية لدى مكسيم:**

كان مكسيم يصغي لتلك المجموعة من الطلاب إصغاء تاماً عندما يتحدثون عن الشعب ، وقد كان الشعب يمثل بالنسبة إليهم الحكمة واللطافة والجمال الروحي، لم يكن مكسيم في بداية الأمر يرى أن الشعب على هذا الشكل ، فلم يرهم غير نجارين ، وحمالين وبنّائين ، وكان يعرف ياكوف ، وأوسيب في أرض المعرض ، وغريغوري أما هنا فهم يتحدثون عن الشعب كلّه ، ويخضعون لإرادته.

وبذلك يرى مكسيم أن تطور المجتمع مرهون بتطور أفكار أبنائه، ووجد محمد مفيد الشوباشي أن الفن يساير تطور المجتمع حيث يقول:" إن الفن يتطور مسايراً لتطور المجتمع، فيرتقي معه إذا ارتقى ، والعكس بالعكس، ويحدث ذلك على نحو آلي، على وتيرة لا تختلف ..."[1]

---

[1] المرجع السابق،ص٣٧.

لم يعثر مكسيم على ذلك الحب مع من عاش معهم سابقاً في أثناء أعماله المتعددة، ولكن مع هؤلاء المتحدثين الحب يرن في كل كلمة ، ويشع من كل نظرة،كان حديثهم يهبط على قلبه فيشعره بالراحة والأمان ، وعزاء مكسيم يكمن في إصغائه إلى الأدب الذي يصف حياة الريف القاتمة ، وتضحيات الفلاحين الشهداء ، وشرع يشعر أنه عن طريق حب البشرية العنيف يستطيع المرء أن يمتلك القدرة للكشف عن معنى الحياة الحقيقي وأدى ذلك به أن يهمل نفسه ، وينصرف إلى الاهتمام بالآخرين .

ذكر الدكتور ممدوح أبو الوي أن مكسيم عبر في مؤلفاته عن معاناة الشعب يقول: "أسس مكسيم غوركي الأدب الذي يهدف إلى تصوير الحياة في حركتها الثورية ، وأخذت الملايين تقرأ مؤلفاته التي تتغنى بالثورة الاشتراكية القادمة وعبر عن معاناة الشعب في روسيا ، وعن آمال الكادحين"...[١]

أخبره ديرينكوف بأن الأرباح التي يجنيها من دكانه تُنفق كلها على إعانة المؤمنين بعقيدة سعادة الشعب التي هي فوق كل شيء آخر، وبعد رحيل زائريه غالباً ما كان يستبقي مكسيم للمبيت عنده يرتبان المكان، ثم يستلقيان على الأرض فوق حصائر من اللباد،ويتهامسان فترة من الليل، ويرى ديرينكوف أنه سيأتي زمن يكون فيه مئات من الناس الطيبين بل ألوف يملؤون المناصب القيادية في روسيا بكاملها ،وعندها سيغيرون الحياة تغييراً جذرياً .

أقبل الخريف ،وأصبحتِ الحياة أكثر صعوبة دون عمل ثابت ،وبدأت موارده تقل وصار يعتمد على الآخرين في الحصول على قوت يومه ،وقرر قضاء الشتاء في مخبز فاسيلي سيميونوف،وقد وصف هذه الفترة من حياته في قصص " المعلم" و" كونوفالوف "(١٨٩٦) و" ستة وعشرون رجلاً وفتاة "(١٩٠١) فكانت فترة يائسة، ولكنها ثقفته.

حين ذهب إلى المخبز في القبو، انتصب جدار من النسيان بينه وبين أولئك الناس لم يحضر أحد منهم لرؤيته في المخبز ، كان يشتغل أربع عشرة ساعة يومياً بحيث يعجز عن زيارة بيت ديرينكوف في أيام العمل ، وفي أيام الأعياد كان ينام، أويقضي الوقت مع رفاقه في المخبز .

---

١ - أبو الوي ،أ.د.ممدوح مجلة "المعرفة"– العدد ٤٠٣ نيسان "إبريل" ١٩٩٧م، ص٢٨٤

عده بعض الرفاق مهرجاً يبعث على التسلية، وفي حين أحبه آخرون حب الأطفال العنيف لرجل يقص عليهم قصصاً ممتعة كان يجد نفسه أحياناً واهن القوى ، أخرق المعرفة عاجزاً عن الإجابة عن أكثر الأسئلة بساطة ، وأحس أنه وقع في حفرة موحِلة يتخبط فيها الناس مثل ديدان عمياء بحيث يفتقدون الحقيقية ، ويعثرون على النسيان الذي يبحثون عنه في الشراب، أو بين أحضان البغايا الباردة ،وقد ورد ذكر للمبغى لدى مكسيم وأيضاً ذكر ذلك حنّا مينه في سيرته الذاتية.

وما يبعث على الغرابة أنه كان يسمع بعد المسرات التي يذوقونها، ويفتخرون في أحاديثهم بكلمات داعرة عن فحولتهم، ففي بيوت السلوان حيث يستطيع المرء أن يشتري امرأة ليلة كاملة بروبل واحد، كان يرى بعض رفاقه يشعرون بالارتباك كأنهم ارتكبوا ذنباً ، وكان آخرون يتميزون بوقاحة، ويختالون اختيالاً.

كان مكسيم يظهر اهتماماً زائداً بالعلاقات بين الجنسين ، فيراقب ذلك مراقبة خاصة، ولم يكن قد خبر مداعبات النساء ، وقد وضعه تقشفه المتواصل في مركز حرج، وكانت النساء تسخرن منه ورفاقه كذلك ، وبعد فترة كفّ رفاقه عن دعوته إلى بيت السلوان لأن الناس لا يرتاحون إلى وجوده ، ويعده رفاقه راهباً، أووالد أحد أصدقائهم يرافقهم وسخرتِ الفتيات أول الأمر من تحفظه ثم أخذن يسألنه إذا ما كان يحسب نفسه أفضل منهن إلاّ أن مدبرة المنزل طلبت من الفتيات ألاّ يزعجنه، لأن له حبيبة برأيها تضبطه عنهن .

كانت تلك المرحلة من حياة مكسيم أشد بؤساً، ومع ذلك تحمل كل ذلك،وشاهد الملذات في بيوت السلوان عندما كان يذهب مع رفاقه لكنه لم ينغمس بها، ولم ينجرف معها، وهنا دليل على أن لإرادة الإنسان دوراً كبيراً للوقوف في وجه المغريات إذا أراد ذلك .

- **العمل في المخبز مع ديرينكوف:**

كان الدخل الذي يحققه دكّان ديرنيكوف غير كافٍ ، في حين أن عدد الأشخاص والمشاريع التي تحتاج إلى العون المادي تزداد باستمرار ، وبدا هذا الإنسان لمكسيم كمن يعد نفسه محكوماً مدى الحياة بالأشغال الشاقة في سبيل البشرية ،وكلما سأله مكسيم عن سبب

قيامه بذلك يجيب دائماً في نبرة متفككة مشوشة متحدثاً فيها عن حياة الشعب وآلامه وعن ضرورة التعلم، وأهمية المعرفة.

قرر ديرينكوف افتتاح مخبز،وظن أن المشروع سيؤمن له ربحاً لا يقل عن خمسة وثلاثين بالمئة لكل روبل ، وكان على مكسيم أن يعمل صبياً للخباز وواحداً من الحلقة، وهكذا انتقل من قبو كبير قذر إلى قبو آخر أصغر حجماً، وأكثر نظافة ، والحفاظ على النظافة كان إحدى مهماته الجديدة.

كان مكسيم يوصِل الخبز إلى دكان ديرينكوف والأكاديمية اللاهوتية، وهو مسرع من أجل الطلاب ويقول في ذلك :" ما إن تخرج الأرغفة الكبيرة البيضاء التي تباع بالوزن من الفرن حتى أضع عشرة أودزينة منها على لوح خشبي طويل وأسرع بها إلى دكان ديرينكوف القديمة ، وحين أنجز هذا العمل أملأ سلة مما يسع ثلاثين كيلو غراماً بالأرغفة والكعك المحلي،وأركض بها إلى الأكاديمية اللاهوتية لأصل في الوقت الذي يتناول فيه الطلاب طعام الفطور .."[1]

أدرك مكسيم أن رفع الظلم عن الشعب المضطهد يقوم على كاهل المثقفين فأخذ يحضهم على القيام بدورهم يقول: "لقد كان هذا الإصرار من جانب جوركي على حث المثقفين إلى اتخاذ موقف واضح في المعركة الدائرة بين الشعب، ومضطهديه دليلاً قوياً على إيمان جوركي بالدور الخطير الذي يلعبه المثقفون في الحياة الاجتماعية بعامة،وفي فترات التحول بخاصة."[2]

فهو بذلك مرتبط بأحداث مجتمعه، وهذا ما ذكره بعض الكتّاب حول ارتباط الأديب بمجتمعه من خلال أدبه فقد ذكر عبد المعين الملّوحي علاقة الأدب بالمجتمع من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية يقول: " والأدب عماد النهضات السياسية والاجتماعية

[1] غوركي ،مكسيم، "جامعاتي" ،المجلد الثاني ، ترجمة المحامي سهيل أيوب ، دار " رادوغا" موسكو،١٩٨٨،ص٦٣٣
[2] غوركي ،مكسيم،" البرجوازيون"،ترجمة وتقديم: أبو بكر يوسف حسين ، مراجعة :ماهر عسل، الهيئة المصرية العالمة للتأليف والنشر، المطبعة الثقافية ،١٩٧١،ص٢٩.

والاقتصادية والفكرية يسجلها ويسايرها ويغذيها ويأخذ بيدها إلى سبيل النجاح ،لذلك يكثر الشعراء والكتّاب والخطباء في عصور الثورات والانتقال والإشراق الفكري..."[1]

وكما عهدت مكسيم من خلال قراءتي له يتحدث بصراحة عما يمر به، وبالناس الذين يحيطون به فيخبرنا هنا كيف يطلب منه الخباز الخروج من المخبز لنصف ساعة من الزمن من أجل ملذّاته.

استطاع مكسيم في تلك الفترة إنهاء عدد من الكتب وقد شُغِف بقراءة الشعر،وأخذ ينظم بعض القصائد بنفسه،ولكنه لم يكن راضياً عن نفسه مثلما يحدث مع المراهقين.

كان التعب يفيد مكسيم ، فهو يخلصه من قلقه الفكري ، ويعقّل رغباته الجنسية الملحة ولكنه يقف حائلاً بينه وبين القراءة ويجعلها أحياناً مستحيلة بالنسبة إليه .

تسلم مكسيم رسالة مكتوب فيها بأن جدته ماتت ، ووصلت الرسالة بعد سبعة أسابيع من دفنها،فقد سقطت عن سلم الكنيسة،وهي تستعطي فكسرت ساقها ، وبعد ثمانية أيام أصابها التهاب عام ، وقد علم فيما بعد أن أفراد العائلة، عاشوا مما كانت تجمع من صدقات ، وعندما مرضت لم يستدعوا لها الطبيب .

لم يذرف مكسيم الدموع، ولكنه بدا كمن انهمرت فوقه كتلة جليدية وجلس على كومة من الحطب في الساحة ، وشعر بلهفة شديدة في أن يحدث أي شخص عن جدته ، ويذكر له مقدار ما كانت عليه من حكمة ورحمة ، ورأفة بالناس فكأنها أمهم ، ويرى مكسيم أن رغبته اضمحلت شيئاً فشيئاً إلى أن انطفأت دون تحقيق.

أما أنا فأرى أن رغبة مكسيم قد تحققت وتحققت بطريقة أرقى، وأسمى من أن يحدث بها أي شخص فقد حقّقها من خلال ماأورده في سيرته من كلمات وأفعال عن الجدة الطيبة، الشخص يصغي،ويتذكر لفترة معينة ثم ينسى أما الكتاب فهو الذي يحفظ الأشخاص ويخلّدهم عبر الزمن .

---

[1] الملوحي ،عبد المعين ،"الأدب في خدمة المجتمع "، ص١٢

يتحدث عن معاناته في العمل التي لا تسمح له بالقراءة إلا في أوقات راحته القليلة جداً يقول: " كنت أنهمك في العمل منذ الساعة السادسة مساء حتى الظهر، وأقضي بعد الظهر في النوم ، ولا أجد وقتاً للقراءة إلا بعد فترات العمل ، حين تنتهي إحدى وجبات العجين ولا تكون الثانية نضجت بعد ..." [1]

وهنا شاهد آخر على مقدرة مكسيم على تحمل الصعاب وخلق الوقت المناسب للقراءة داخل انشغاله بالعمل ، حيث نلمس الرغبة الحقيقية في تثقيف نفسه دائماً في أي مكان وتحت أي ظرف كان.

كان مكسيم ينهي عمله وهو توزيع الخبز، ثم يغفو قليلاً فإذا حلّ المساء ، عمل في الفرن على تحضير الحلوى للدكان عند انتصاف الليل، وكان في تلك الفترة يبيع الخبز في جوار مسرح البلدة ، والناس يشترون الفطائر بعد انتهاء التمثيل،وإذا انتهى من بيعها يعهد إليه بعجن العجين لصنع خبز الصباح، وقد كان يعجن كمية كبيرة،وتحتاج إلى مجموعة من العمال للقيام بها.

سيطرت عليه في تلك الفترة دوافع لم يتمكن من مقاومتها في زرع بذور ماكان يعده الخلود ، والحق ، والحكمة فقد كان اجتماعياً بطبعه ، وراوية لا يملّ وتحفز خياله تجربته الشخصية ، والكتب التي قرأها ، ولم يكن به حاجة إلاّ إلى واقعة عادية حتى يستطيع تطويرها إلى رواية مؤثرة فهو بذلك مرتبط بأحداث مجتمعه، وهذا ما ذكره بعض الكتّاب حول ارتباط الأديب بمجتمعه من خلال أدبه فقط.

فعلاً استطاع مكسيم وغيره من الكّتاب الروس كتابة روايات واقعية كان لها أثر واضح في غيرها من الآداب العالمية، وقد ذكر الدكتور وائل بركات تأثير الواقعية الاشتراكية التي اتّخذها الروس منهجاً لهم على الآداب الأخرى يقول:

---

[1] غوركي، مكسيم،"جامعات"ص٦٣٥.

"أخذ إعلان الواقعية الاشتراكية منهجاً رسمياً للأدب السوفييتي يؤثر بالتدريج على الأدباء التقدميين في الغرب وخاصة في فرنسا.."[1]

وهنا دليل على أن التبادل لا يقصر على بلد دون آخر،فالشعوب كلها تتبادل الخبرات والثقافات .

كان الناس يستنزفون كل مافي الصندوق من مال دون أن يلقوا بالاً للاعتبارات العلمية ، وقد بلغ الأمر أحياناً درجة بحيث لم يبقَ في الصندوق مال لتسديد ثمن الدقيق وكان ديرينكوف يوضح في ابتسامة جافة بأنه سوف يفلس تماماً .

خُيل لمكسيم أنه متيم بماريا شقيقة ديرينكوف، فسنّه وشخصيته،وحياته المعقدة تتطلب منه أن يصاحب النساء ، لأنه بحاجة إلى حنان،أوعلى الأقل إلى عناية امرأة تعطف عليه بحاجة إلى شخص يحدثه بصراحة عن نفسه ، ويساعده في تنظيم تشويش أفكاره ، وفوضى عواطفه المختلطة التي تملأ ذهنه .

وبالحديث عن مصير بليتنيوف فقد أُلقِي القبض عليه ،ونُقِل إلى سجن كريستي في سان بطرسبورغ ،وقد كان بليتنيوف يعرف بأنه سيقبض عليه يوماً فقد حذّر مكسيم بألاّ يزوره وطلب إليه أن يبلّغ التحذير إلى روبتسوف الذي تربطه به صداقة أيضاً ، وقد قبضوا عليه لأنهم وجدوا لديه قصعة يصنع فيها الحبر لطباعة منشورات ضد القيصر .

كان كل ما يراه حوله في الحياة العملية غريباً في جميع دقائقه،وكانت الحياة تقدم نفسها له بصفتها سلسلة متوالية لا حدود لها من العنف والعدوانية، وهو لم يكن يرغب إلاّ في الكتب أما الأشياء الأخرى فهي تافهة لا قيمة لها .

كان يرى الناس منهم البواب والعامل والموظف والتاجر، يعيشون حياتهم بصورة تختلف عن حياته، وحياة الناس الذين يحبهم، فالناس الذين يحبهم كانوا غرباء وحيدين غير مرغوب بهم .

---

[1] بركات، د. وائل، "الواقعية الاشتراكية "(المغامرة والصدى) منشورات وزارة الثقافة ،دمشق ،١٩٩٧،ص١٦٠

حادثة محاولة انتحاره ثم انتقاله إلى روماس ذوي الأفكار الثورية:

عزم مكسيم في شهر كانون الأول على الانتحار،واشترى لأجل ذلك مسدساً ومعه أربع رصاصات ، أطلق رصاصته على صدره ، لكن الرصاص خرق رئته وبعد شهر كامل عاد إلى العمل في المخبز من جديد بعد أن شعر بالحماقة، والخجل من تصرفه .

بعد فترة قصيرة كان خارجاً من المخبز في نهاية آذار،فوجد شخصاً جالساً وراء الدكان ، سأل مكسيم أن ينتقل إلى العمل عنده ليكون مساعداً له في التجارة ،وأخبره بأنه يملك مكتبة جيدة، وباستطاعته أن يساعده في دروسه ،فوافق مكسيم على عرضه ،وقبل أن يذهب وأعلمه : بأن اسمه روماس .

وصل مكسيم إلى منزل قروي حديث البناء ، كانت غرفة الجلوس نظيفة وأنيقة ، كانت غرفته في العلية ومن نافذة العلية يستطيع رؤية جزء من القرية ، دعِي إلى الغداء ، في الطابق الأرضي أخذ روماس يتحدث عن ضرورة تنظيم زارعي الفواكه الفلاحين الصغار، وتحريرهم من بين أشداق السماسرة الكبار.

وقد نمى روماس لدى مكسيم بذور الواقعية الاشتراكية التي تهتم بخلق مستقبل أفضل للإنسان وقد تحدث عن هذا الأمر الدكتور وائل بركات حيث يقول: " اهتمت الرواية الواقعية الاشتراكية بالنظر إلى أبعد من الواقع الحالي، وإلى رسم صورة الآتي لتحقق بذلك مهمتها في تطور الإنسان وحياته..."[1]

كان في الغرفة أيضاً شاب يدعى إيزوت الذي تحدث عن أصحاب البطون الكبيرة الذين لم يتركوا لهم ولن يتركوا فرصة للراحة على الإطلاق، وبعد أن أنهى إيزوت طعامه طلب التمهل لأن العجلة تُورث الخسارة ،وعندما انصرف تحدث روماس عنه بأنه رجل شريف وذكي ،ولكنه قليل الثقافة فهو لا يكاد يجيد القراءة ،ولكنه يبذل جهده كي يتعلّم، وطلب من مكسيم مساعدته في هذا المجال .

[1] المرجع السابق،١٧٩.

تحدث روماس عن مكسيم وما فيه من صفات، وما يحتاجه فقال في ذلك : " أنت كفوء حقاً وعنيد،وأهدافك جديرة بالإطراء من دون ريب ، وما أنت في حاجة إليه هو الدراسة لكن ليس الدراسة التي تجعل من الكتب حاجزاً بينك وبين الشعب الذي يحيط بك، كان هنالك رجل عجوز مرة ، متعصب ، أعلن ، وهو على صواب فيما أعلن قائلاً :" الإنسان مصدر كل تعليم وعلم " وما يعلّمك إياه الناس جاف مؤلم ،ولكن العلم الذي يأتيك على ذلك الشكل هو الذي تبقى جذوره راسخة.."[١]

رأى روماس أنه على الفلاحين أن يعرفوا بأنهم ليسوا أناساً شريرين في صميمهم ولكن الحياة التي يعيشونها سيئة ،ولا بد من طريقة يمكن أن تجعلها أكثر سهولة وعطاء ،لأن الكائنات المتوحشة تهتم بحاجاتها أكثر مما يهتم الفلاحون بحاجاتهم ،وهي تدافع عن نفسها أكثر مما يدافعون عن أنفسهم ، فالفلاحون هم مصدر كل شيء لأن النبلاء ،والكهنة ،والعلماء ،والقياصرة ، جميعهم في الماضي كانوا فلاّحين ،وأرادوا أن يعيشوا حياة كريمة بعيدة عن الذل والإهانة .

تحدث روماس وقتاً طويلاً في تلك العشية حتى انتصف الليل ، وقد فهم مكسيم من كلامه أنه يريد أن يكون إلى جانبه ، فشعر بالارتياح بعد ذلك الحديث ، حيث خلّصه من شعوره بالذنب بعد محاولته الانتحار ، وفتح أمامه باب الحياة ،وأعاد إليه توازنه.

طلب روماس من مكسيم أن يرشد الفلاح نحو طريق الحرية طريق الخلاص حيث قال : " اجعل الفلاح يفهم أنه ينبغي أن يتعلّم ، شيئاً بعد شيء ، أن يمسك بزمام سلطة القيصر بين يديه ، اشرح له أن الشعب ينبغي أن يملك الحق في اختيار الموظفين من بين صفوفه ...في اختيار الشرطة والحاكم وحتى القيصر ..."[٢]

كان كل يوم جديد يحمل إليه شيئاً جديداً ،وانغمس في قراءة الكتب التي تبحث في العلوم الطبيعية، لأن العلماء وضعوا فيها أفضل ما في العقل البشري .

---

[١] غوركي، مكسيم، "جامعاتي"، ص٧٠٣
[٢] المصدر ذاته،ص٧١٣

قرأ أن الحياة في القرية أكثر عافية وأكثر صدقاً منها في المدينة ،ولكنه رآها كئيبة لا سرور فيها فهو يرى الفلاحين منهمكين في دوامة من الجهد ،والمرض يهدد أجساد الكثيرين منهم ، وعجزت قواهم نتيجة العمل الشاق ، أما سكّان المدينة لم يكونوا يشكون من الحياة مثلما يشكو الفلاحون المتشائمون ،ولم تكن حياة الفلاح حياة بسيطة ، فهي تتطلب انتباهاً للأرض ، ودرجة عالية من المهارة في علاقات الناس فيما بينهم.

وقد ذكر في مؤلف آخر له حال الفلاح الذي يحيا في خوف يقول: "وكان أهل القرية – كما لاحظت –منغمسين في حياة تعسة كأي نوع من المخلوقات الأخرى كانوا جميعاً خائفين من شيء ما..."[1]

لمستُ في سيرة مكسيم روحاً فلسفية،وقد انتشرت على مدار سيرته في أكثر من مكان وكأنها نجوم في سماء صافية ليلاً أكسبت الألفاظ عذوبة إضافة إلى إغنائها للمضمون الذي تحمله فاجتمع الشكل والمضمون ليشكلا لوحة فنية متكاملة نجده يقول: "في قلب الحياة ذاتها هناك ، في قلب القلب كيما تختلط بجذور شجرة أخرى تضارعها قوة ،وكل غصن من أغصانها ثري ببراعم فكرية حية تنبجس منه كلمات قوية داوية ،كنت أعب رحيق الكتب المنعش.. "[2]

في شهر آب رجع روماس من رحلته إلى قازان،وقد حمل معه في القارب بضاعة وسلالاً فارغة،وفجأة اشتم رائحة دخان ، كانت السقيفة تحترق في الطرف الآخر الذي يقابل بستان الخضار ،وفي السقيفة جمع مخزون البترول والقطران والزيوت .

طلب روماس من مكسيم إخراج البراميل من السقيفة لمحاولة إنقاذ مايمكن إنقاذه فدحرج برميل قطران ، ثم أمسك ببرميل من البترول، وما إن أخذ يدحرجه حتى لمح أنه من دون غطاء فأدركته النار بعد أن انسكب البترول منه على الأرض فخرج من الباب وهو يدحرج البرميل ،وحين رجع إلى السقيفة مرة أخرى ودحرج برميلاً آخر حتى الباب أخذت

[1] غوركي، مكسيم،" مع الفلاحين" ،ترجمة :أحمد عطية ، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد بمصر، ١٩٥٧،ص١٥٦.
[2] غوركي، مكسيم ، "جامعاتي" ، ص٧٥٠

تسقط عليه من السقف شرارات تلذعه ، واشتد الحريق فقبض بكلتا يديه على كل الأشياء الطرية التي عثر عليها، فراشه وسادته، ووثب من النافذة، فكسر ساقه اليسرى .

كان مكسيم مضطجعاً بعد الحريق، يحاول استرداد رباطة جأشه ، حين شاهد حوالي عشرة من الفلاحين الأثرياء يهبطون إلى الوادي ، في اتجاه حمامهم ، كان العمدة يمشي في المقدمة وخلفه اثنان من رجال الشرطة يقودان روماس من ذراعيه ، وقد أخبر روماس مكسيم بأنهم يظنون أنه خبأ البضاعة في الحمام ، وأشعل النار في الدكان عمداً، فكسروا قفل الحمام، ولم يجدوا فيه شيئاً .

راح روماس يتحدث معهم بأنه احترق كل شيء ولا فائدة يجنيها من أن تلتهم النار بضاعته، فأجابوا : تعويض التأمين، وهم يحسبون أنه يغامر بنفسه وبضاعته من أجل هذا التعويض، فكره مكسيم الفلاحين لما فعلوه، لكن روماس طلب منه ألاّ يكرههم لأنهم حمقى والخبث شكل من أشكال الحماقة .

قرر روماس الرحيل، فأخبره مكسيم بأنه لم يطق العيش بين أولئك الناس ، وتحدث معه مكسيم عن الانعكاسات المريرة حولهم ، لكن روماس عنّفه على تلك النتيجة ، وحاول إقناعه بأنه مخطئ ، وطلب منه ألاّ يتعجل في إصدار حكمه، وينظر إلى الأمور بروية وحكمة لأن كل شيء سيتحسن مع الوقت وعليه رؤية الأمور بعينيه، ولمسها بيديه فالتمهل في إصدار الحكم أمر ضروري، وبعد ذلك ودعه.

التقى مكسيم بروماس بعد خمسة عشر عاماً، وقد أمضى عشر سنوات في المنفى في مقاطعة ياكوتسك بسبب نشاطاته في المنظمة الثورية .

راح مكسيم بعد رحيل روماس يهيم في القرية مثل جرو صغير أضاع معلمه ، وكان يرافق بارينوف من قرية إلى قرية يؤجران نفسيهما للفلاحين الأثرياء، يقومان بأعمال مختلفة يدرسان الحنطة ويقلعان البطاطا ، وينظفان البساتين ، وقد سكن في حمام بارينوف .

التزم مكسيم بقضايا أمته، وقد احتك بالمنظمات الاشتراكية مما أثّر في أدبه وفكره ولمست هذا التأثر في نهاية سيرته الذاتية، وقد تحدث الدكتور حسام الخطيب عن هذا

الاحتكاك يقول:"وفي أثناء تجواله التقى غوركي بالحركات الثورية التي كانت تتململ في روسيا في أواخر القرن وكان لهذا اللقاء تأثيره في أدبه وفكره،إلاّ أن الحادث الأهم الذي غير مجرى حياته كان احتكاكه بالمنظمات الاشتراكية المحلية في بلده عام ١٩٠٢ إذ سرعان ماحلّ العامل المناضل المصمم الواعي في قصصه محل المتشرّد المعذّب اللامسؤول.."[١]

وهذا ما جرى في رواية "الأم"(١٩٠٦) التي تروي قصة العامل الثوري بافل فلا سوف الذي كان يعيش مع أمه فألقي القبض عليه ونفي إلى سيبيريا بتهمة الدعوة إلى الإضراب ، فحلّت محله أمه التي قامت بتهريب المنشورات الاشتراكية إلى داخل المعمل،والأم ترمز إلى الوطن بشكل كامل في تطور شخصيتها من إنسانة تخاف زوجها وابنها،وبالتدريج أصبحت ثورية وشهيدة مبادئها، إذ أقدم أحد عناصر الشرطة على خنقها ،وهي توزع المناشير الممنوعة الثورية السرية، وبهذا تنتهي رواية "الأم" التي حصل غوركي بعدها على الشهرة ، على الرغم من أنه أبدع الكثير من الأعمال بعدها إذ توفي بعد صدور رواية "الأم " بثلاثين عاماً أي عام ١٩٣٦.

اقترح بارينوف على مكسيم الرحيل إلى البحر،فوافق مكسيم وعندما بلغا سيمبيرسك أخبره البحارة في نبرة سيئة أن يتركا المركب ،وقد أعلموهم بأنهم لا يريدون أمثالهم معهم وكانا يملكان سبعة وثلاثين كوبيكاً مناصفة .

يذكر كيف سافرا وماحلّ بهما يقول : " ذهبنا من سمارا على ظهر مركب للمسافرين مختبئين تهرباً من دفع الأجر ، وفي سمارا استؤجرنا للعمل على مركب للنقل حملنا خلال سبعة أيام دون أن يقع حادث يذكر إلى شواطئ بحر قزوين ، وهنالك عثرنا على عمل مع مجموعة صغيرة من الصيادين في مسمكة كالميكية قذرة في كابانكول باي.. "[٢]

[١] الخطيب، د.حسام ،"جوانب من الأدب والنقد في الغرب "،مطبعة الإنشاء ،دمشق، ١٩٨٢-١٩٨٣،ص٢٣٨.
[٢] غوركي، مكسيم ،" جامعاتي "،ص٧٨٩.

خاتمة:

كتب مكسيم غوركي سيرته الذاتية بعد معاناة طويلة مع الفقر والتمزق الأسري، فلقد توفي والده ، وهو في الرابعة من عمره ،وتوفيت والدته وهو في العاشرة من عمره ، وحاول الانتحار وهو في التاسعة عشرة من عمره ولكن الرصاصة أصابت الرئة وأخطأت القلب ، فبقي على قيد الحياة .

كتب سيرته الذاتية بعد أن كسب خبرة كبيرة في الكتابة ، وفي معاشرة الناس وبعد أن عاد من إقامته في إيطاليا التي استغرقت سبع سنوات مابين ١٩٠٦-١٩١٣. فلقد أصدر العديد من المؤلفات قبل سيرته الذاتية ، فأصدر قصة"ماكارتشودرا" (١٨٩٢)ورواية "فوما غورديف"(١٨٩٩)وأصدر رواية "الأم" (١٩٠٦)التي حصل بفضلها على شهرة عالمية ، وكتب وهو في إيطاليا "أساطير عن إيطاليا" (١٩١١-١٩١٣).

تقع سيرته الذاتية في منتصف مسيرته الإبداعية ،فلقد أصدر الجزء الأول منها"طفولتي" قبل الحرب العالمية الأولى، وأصدر الجزء الثاني وهو بعنوان "بين الناس" في أثناء الحرب العالمية الأولى، أما الجزء الثالث وهو بعنوان " جامعاتي" فنشره وهو في إيطاليا عام (١٩٢٣) أي بعد قيام ثورة(١٩١٧) ونشر بعده رواية "آل أرتيمونوف"_(١٩٢٥) صور فيها حياة روسيا خلال فترة مابين (١٨٦٥-١٩١٧) وكتب رواية "حياة كليم سامغين "خلال أحد عشر عاماً مابين(١٩٢٥-١٩٣٦)وهي تصور حياة روسيا في نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٧.

كتبت عن غوركي الموسوعة العربية: " يعد مكسيم غوركي مؤسس الأدب السوفييتي، ورائداً للواقعية الاشتراكية ، وكان لأعماله تأثير كبير في كثير من الأدباء الذين عاصروه ، ليس في روسيا وحدها ، بل خارج حدودها"[١]

[١] -الموسوعة العربية ،رئاسة الجمهورية ، هيئة الموسوعة العربية المجلد الرابع عشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص-٧٨-٧٧.

يمكن أن أقول إن شخصية مكسيم غوركي تشكل مجموعة تجارب في تجربة إنسان واحد استفاد منها هو وأفاد غيره،ومايزال يفيد منها الأجيال من بعده فهو ذاته كخلية نحل والناس الذين كانوا حوله وامتلكوا معارف وثقافات وخبرات وعايشهم ،إضافة إلى ما اعتمد عليه من الكتب التي قرأها هم جامعة الحياة التي تخرج فيها ،وهم بمثابة الرحيق الذي صنع منه العسل وذلك العسل عبارة عن كتاباته التي أبدعها، وخلدت ذكراه من بعده.

مقدمة الفصل الثاني :

يقول الدكتور صلاح فضل وهو أستاذ في جامعة عين شمس بالقاهرة في كتابه "أساليب السرد في الرواية العربية " يحلو لعشّاق النقد التقييمي في الأدب العربي أن يعدوا حنامينه أبرز اسم بعد نجيب محفوظ على خارطة الرواية العربية المعاصرة...ويكفي لدى أصحاب هذا الرأي أنّه صاحب أكبر وأجرأ سيرة ذاتية ، كُتِبت باللغة العربية حتى الآن ، متمثلة في ثلاثية الملحمية الذاتية الكبرى:"بقايا صور" و"المستنقع" و"القطاف" [1].

تشبه السيرة الذاتية لحنامينه النهر، إنها تنساب أو تجري كما يجري النهر في مساره الطبيعي،فقد جسد في هذه السيرة حياته وحياة أسرته ومجتمعه، وجسد أفكاره ومبادئه وعقيدته، قدس المرأة في شخصية والدته الطاهرة وأخواته، وفي شخصية المناضلة زنوبة ، وقدس العمل والنضال من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة بين أفراد المجتمع الواحد وبين الرجل والمرأة .

عانى من استهتار والده كما عانى غوركي من قسوة جده، وإذا كان غوركي عظيماً بأدبه وشخصيته وفكره الذي أصبح صديقاً لمؤسس الدولة الاشتراكية الأولى، وأقصد بذلك لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) فإن حنامينه بلا أدنى شك هو من أهم الروائيين العرب، ولعله أهم روائي في سوريا ، فهو من الذين ساهموا في تأسيس اتحاد الكتّاب العرب عام ١٩٦٩ في دمشق ويشير في الجزء الثاني من سيرته الذاتية وهو " المستنقع" (١٩٧٧) إلى تأثره بمكسيم غوركي يقول حنامينه :" وعندما وقع في يدي كتاب مكسيم غوركي بعد ذلك بأعوام طوال ،قرأت ماعانى المناضل الثوري في العهد القيصري .."[٢]

استطاع حنامينه أن يكتب روايات جذبت جماهير القراء ، ولاسيما أنّه عالج موضوع البحر، الذي عالجه قبله الروائي الأمريكي أرنست همنغواي (١٨٩٩-١٩٦١) في روايته الشهيرة " الشيخ والبحر" (١٩٥٢) الذي حصل على جائز نوبل عام (١٩٥٤)، ويمكن القول إن مينه من أهم الروائيين الذين درسوا موضوع البحر في رواياتهم .

[١] فضل ، صلاح ، "أساليب السرد في الرواية العربية " دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى،٢٠٠٣،ص٤٣.
[٢] مينه ، حنا ، "المستنقع "، ص٢٦٦.

تاريخ ولادة حنا مينه

في العشرينات من القرن العشرين في جزء من الريف السوري حيث تدور رواية "بقايا صور" لحنّامينه التي بدأت من مرض الأب الذي كانوا يخرجون به على محمل، والأم تذرف الدموع عليه، وهنا يصف حنامينه الدار التي كانوا يسكنونها حيث يقول :" كانت الدار واسعة ، وباحتها متربة تطل عليها فتحات غرف معتمة ، رطبة ،ولأبوابها درجات حجرية ، تجلس عليها النساء ، أو يبكي الأطفال ، وقد يتكئ الرجال بسبب من الأسباب، وكان في الباحة خليط من النفايات ،وفي أطرافها مواقد ، وأحطاب ،وتنكات زهور، وفيها ياسمينة" [١]

ولد حنامينه في تلك الدار لم يعرف تاريخ مولده ، فرحت أمه بولادته لأنه وحيد على ثلاث بنات وسيبقى وحيداً ، لأن أخوته الذين ولدوا بعده ماتوا بالملاريا والتفوئيد والجدري،عندما دخل المدرسة الابتدائية استغرب معلمه لأن تاريخ ولادته المسجل في الأحوال المدنية هو ١٩١١م وأخبره بأن هذا غير ممكن وفيه خطأ لأنه بذلك سيكون أكبر من أستاذه أرسله المعلم إلى البيت ، وطلب منه أن يدعو والده لمقابلته ،وقد ذهب والده إلى المعلم وفي المساء سأل والديه عما يريده المعلم فلم يجبه .

كان الأب لا يقرأ ولا يكتب وكذلك أفراد العائلة ، والمختار كان شبه أمي ، وقد قام المختار بتسجيل العائلة ،لأول مرة في دائرة الأحوال المدنية في مدينة إسكندرونة بعد ولادته بعشر سنوات، والده لم يعرف كيف وقع الخطأ ،فقد ذهب إلى المختار برفقة قهوجي عجوز ،وطلب منه تسجيل عائلته ،وقد يكون سأله عن تاريخ ولادة كل منهم .

يبدو أن المختار وضع التواريخ من عنده،وحمل سجلّه إلى الأحوال المدنية وأخرج لهم دفتر عائلة ، وعاد الأب به إلى البيت فوضعته الوالدة تحت الثياب في

صندوق عرسها وهو خزانتهم الوحيدة ، ونُسي هناك حتى كبر ودخل إلى المدرسة فاكتشف المعلم الخطأ ، وكان هناك خطأ آخر وهو محل ولادته فقد ولد في اللاذقية وسجل في السويدية

[١] مينه، حنا،" بقايا صور"منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ،١٩٧٥ص٥٣

وبقي هذا الخطأ في هويته ، أما عمره فقد جرى تصحيحه فصار ١٩٢٤م بشهادة الذين حضروا ولادته في مدينة اللاذقية ، وهكذا صار يعرف تاريخ ولادته ومحلّها ، وحين كبر وعاد مع أهله إلى اللاذقية ، بعد هجرته من اللواء عام ١٩٣٩م سأل والدته عن الدار التي ولد فيها فأجابته : بأنها هدِمت ، فلم يبق له من رؤية تلك الدار إلا مشاهد ضبابية لكومة البرتقال ووالده المريض المحمول على حمالة لمعالجته، وأمه التي تذرف الدموع عليه .

- **ذكريات الأم :**

استفاد من قصص والده عن الحياة العامة ، وكذلك استفاد من ذكريات والدته عن حياتهم الخاصة ففي الليالي الشتوية المظلمة كانت تقص عليهم في غياب والدهم حكايات تسلي بها نفسها وتسليهم ، فقد كانوا يعيشون في حقل مهجور في قرية السويدية ، ولا يحيط بهم سوى بيوت متناثرة في حقول من شجر التوت .

حنا مينه أديب حمل أفكار الواقعية الاشتراكية وسيظهر ذلك في سيرته الذاتية من خلال عرضه لمراحل المدرسة الواقعية وصرح بأنه ينتمي إلى الواقعية الاشتراكية يقول:"إن الواقعية ذات مراحل، كتاريخ للتيار الإبداعي، في الأدب ، فمن الواقعية الطبيعية عند زولا إلى الواقعية النقدية عند تشيكوف إلى الواقعية الاشتراكية عند غوركي لقد كانت الواقعية النقدية ذات بعدين، هما الماضي والحاضر، فجاء غوركي وأضاف إليها بعداً ثالثاً هو المستقبل إن هذه الواقعية التي أفتخر بالانتماء إليها تتميز بالأمل التاريخي والطموح إلى المستقبل ورصد الأشياء في حركة نموها وفهم مسارها...."[١]

كانت أمه يتيمة الأبوين تربت عند أقربائها في بلدة السويدية ،وأختها الكبرى ضاعت في السفربرلك وقيل أنها تزوجت ، وعاشت في بلاد اليونان ، وأخوها الأوسط والوحيد رزق ا اقتيد أيام العثمانيين إلى العسكرية في تركيا ، وقد استدعى أختيه إلى مرسين حيث عملتا خادمتين ،والأخ مات بالذبحة الصدرية ،وبقيت بعد أخيها وأختها وحيدة .

---

[١] مينه، حنّا،"حوارات وأحاديث "في الحياة والكتابة الروائية"،دار الفكر الجديد، بيروت،لبنان ،الطبعة الأولى، ١٩٩٢،ص٧١.

في أيام الصيف كان الخال يأخذهم إلى العمل في أراضي القطن وكان يتقدمهم في العمل فإذا رأى امرأة كبيرة أو فتاة مقصرة سارع إلى مساعدتها لتكون مع غيرها من العمال ، ويأخذ معه خبزاً يوزعه على اليتامى والمرضى ، وإن سأله أحد عن مصدره يجيب بأن ا لا يتخلّى عن الكائنات ، فقد كان طيباً مرهوباً .

في أحد الأيام بينما كان في المدينة قُبض عليه وسيق إلى الخدمة ، وبعد فترة هرب عبر الجبال وبين الثلوج ،وقد وصل في آخر رمقٍ فانطرح في الفراش كان يسعل والحمى تشويه حاول أصحابه أن يخففوا عنه ، ولكن دون جدوى والدة حنا لم تكن تعرف الموت ولم يخطر لها أنه سيموت فقد كان صعباً عليها أن يتركها وحيدة أرادت أن تصنع له شيئاً ساخناً لكن طلبوا منها أن تترك ذلك إلى الصباح ، وفي الفجر سمعت خرخرة في صدره أمال رأسه باتجاهها ،ومد يده نحوها فأعطته يدها ، وقال بصوت ضعيف: "مريم " قلت : " أنا مريم يارزق ، يا أخي ، كلمني " وجاهد ليفتح عينيه وقال :" يا حبيبتي يا صغيرتي، يايتيمة .."[١] وبعد ذلك مات.

علم حنامينه أن والده هو صديق لخاله ،وقد تزوج أمه اليتيمة التي قاسمته غربته وشقاءه في سفربرلك والحرب العالمية الأولى، نلاحظ أنه من خلال كتابة الأدباء نلمح الأحداث التاريخية التي عاصروها فقد جرت على حنّا العذاب والويلات وعلى أسرته أيضاً ، وكذلك الحرب العالمية الأولى تحكمت بدراسة الدكتور طه حسين أكثر من مرة وسنرى ذلك من خلال الحديث عن سيرة الدكتور طه حسين التي أخّرت سفره إلى فرنسا .

ولدت شقيقتاه في قرى الأناضول، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عادت الأسرة إلى سورية إلى مدينة اللاذقية ، وفي تلك المدينة ولِد كاتبنا وجاء بعده خمسة أولاد صبيان وثلاث بنات ولكن الموت أحبهم جميعاً .

كتّاب السيرة رووا تجربتهم الشخصية بضمير المتكلم، وقد تحدث الكاتب جان ستاروبنسكي عن ذلك، لكن سيرة طه حسين خالفت ذلك وكان يرويها بصيغة الغائب يقول:"والحق أن السيرة الذاتية ليست لوناً أدبياً قائماً على قواعد وأصول لكنها تفترض تحقيق

---

[١] مينه ،حنا،" بقايا صور" ،ص٦٥

بعض الشروط التي تبدو، في جوهرها ، شروطاً أيديولوجية (أو ثقافية) مثل خطورة التجربة الشخصية، وقابلية انتفاع الجمهور بعرضها عرضاً صادقاً ، وهذا الافتراض هو الذي يبيح للمؤلف أن يستخدم ضمير المتكلم ،وأن يتخذ سيرته موضوعاً لقوله...[1]

كان لهم جار اسمه كرياكو في اللاذقية من أصل يوناني ،كان ماهراً في الميكانيك يقول حنا عن كرياكو:" كان كما أخبرتني أمي، بارعاً في الميكانيك ، وكانت سيارة الفورد تلك في المهملات ، صاحبها الفرنسي تخلّى عنها يائساً من وجود قوة تعيد لها الحياة ،فابتاعها كرياكو وأعاد لها الحياة ، كان في وسعه أن يعيد الحياة إلى أيما آلة، وقد تحدث عن ذلك فقال:" غير أن والدي ، وهو يركض وراء الرغيف " الخيال "أغرى كرياكو بالركض معه، كان ذلك بعد مولدي بثلاثة أعوام ، وكان الوالد قد ترك العمل في المرفأ، إثر كسر في زنده الأيمن نتج عن سقوط صندوق ثقيل عليه من رافعة في إحدى البواخر..."[2]

ومع ذلك كان تعيساً في بيته ، وكان يزعم أن زوجه هي السبب في سوء أوضاعه والزوجة بدورها ترى أن محطته الكهربائية هي السبب في هذه الحالة السيئة التي هم عليها وقد وجد الجيران أن الزوجة تستغلّ ضعف زوجها بالعربية فتكثر من شتمه ، فيقذفها بما في يده ،ويترك تجاربه الكهربائية ويخرج من البيت ، فيسكر في الخمارة ، ويعود بعد منتصف الليل،فيبدأأن بالعراك وينتهي العراك غالباً بتخريب الزوجة أدوات التجارب على المحطة الكهربائية الموجودة على فوهة البئر .

وحين أصلح كرياكو سيارة الفورد أخذ الرجال والنساء يدورون حولها متعجبين ،وقد اصطحب كرياكو زوجه في نزهة إلى البحر فتوقفت ذلك اليوم عن شتائمها ،وسألها الجيران عن إحساسها فأجابتهم بأنها كانت كمن يركب أرجوحة ويندفع إلى الأمام ،والأشجار وحدها كانت تركض من خلفهم ،وقد أصبح كرياكو ساحراً في نظرها ،النساء لم تجربها أما الرجال فقد جربوها ،وركب أبوه بها ،وكانت سبب خراب بيتهم، وهجرتهم من اللاذقية .

---

[1] ستاروبنسكي، جان ،النقد والأدب ،ترجمة :د.بدر الدين القاسم ، مراجعة: أنطوان المقدسي،"منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي"،دمشق ،١٩٧٦.

[2] مينه،حنا،"بقايا صور"،ص٦٨.

تحدثت مرة عن جارة لها في مرسين دعت على ابنها بأن يصبح الرغيف خيالاً وهو يركض وراءه وظل هكذا فقيراً ، لكن جدته لم تدع على والده ومع ذلك لم يوفق ، وفي يوم فتح حنا صندوق الخبز واختبأ وراء الفرش وهو يرجو في كل لحظة أن تتحول إلى خيول على ظهورها فرسان ليركض وراءها.

وهنا نلمح خياله الخصب منذ طفولته المبكرة ، وهذا الأمر متوقع منه فلو لم يكن يملك ذلك الخيال الخصب لما أصبح أديباً مشهوراً يحمل في كتاباته ملامح من حياته فيها الواقع ،وفيها الخيال الذي يسخّره لخدمة الواقع .

بدلاً من أن تتحرك الأرغفة هجمت القطة عليها ، ونهشت بعضها ،وهو كان قد نام في ذلك الوقت ،وعندما عادت الأم أنّبت الشقيقات على إهمالهن ،وأيقظته وخافت الأم أن يكون نومه مرضاً ووضعت شفتيها اللتين كانتا بمثابة ميزان حرارة في البيت على جبينه ، ولما تأكدت من أنه بخير قبلته،ونسيت مالحق بالأرغفة .

- **سفر والده مع كرياكو :**

أغرى سليم وهو والد حنا مينه كرياكو بالذهاب معه وذلك بعد ولادته بثلاث سنوات ،بعد تركه للعمل في المرفأ وقد تحدّث عن ذلك فقال:" غير أن والدي ، وهو يركض وراء الرغيف " الخيال "أغرى كرياكو بالركض معه، كان ذلك بعد مولدي بثلاثة أعوام ، وكان الوالد قد ترك العمل في المرفأ، إثر كسر في زنده الأيمن نتج عن سقوط صندوق ثقيل عليه من رافعة في إحدى البواخر..."[1]

كان يخترع مشاريع جديدة لرحلات جديدة ، ويجد من يشاركه في تنفيذها ، فكرياكو بعد معركة من معاركه مع زوجه، ويأسه من إكمال المحطة الكهربائية شارك والده في مشروع وهو الذهاب من اللاذقية إلى كسب في تجارة خطيرة ، باع كرياكو محرك المحطة ، ووالده لملم ما تبقى من حلي والدته ، وتوجها في سيارة الفورد ، والغرض من ذلك منافسة المهربين الذين يحملون التبغ على البغال إلى السويدية وقررا حمله بالسيارة .

---

[1] المصدر السابق،ص٧٣.

واجههم مسلحون عند أحد المنعطفات فألقى والده نفسه على الأرض ، واختبأ وراء السيارة وقد انتهت المعركة بقتل رئيس الجماعة الأولى واستسلام الآخرين وتجريدهم من سلاحهم ، فقد كان الموت يترصد بالمسافرين في ذلك الوقت لأن قطع الطريق كان مهنةً وقد أبقوا على حياة كرياكو ووالده لأنه لا يوجد بينهم من يقود سيارة الفورد .

تعطّلت السيارة وهددوا كرياكو بالموت وتوسل إليهم بأنه سيصلحها ،ووالده مكبل وراء السيارة، وكان وقتها البرد شديداً والثلج ينخل ،وأخيراً فكّوا وثاقه في القرية ، وكان شيخ القرية إنساناً طيباً، فأطعمهما وأوصلهما بنفسه مع السيارة إلى السويدية ،وأعطاهما كمية من البرتقال .

هذا البرتقال الذي رآه حنا في باحة الدار ذلك اليوم عندما عاد كرياكو بوالده مريضاً بذبحة صدرية ، فبكت أمه ، وخافت عليه من الموت وعلى نفسها من الترمل وعلى أولادها من اليتم ، وخافت على حنا أكثر من أخواته لأنها حبلت به وهي ترغب أن يكون صبياً،وأشعلت يوم مولده أمام الأيقونة شمعة، ووقفت خاشعة تقدم صلاة الشكر للرب .

رأى مراد كاسوحة أن سيرة حنا مينه الذاتية أهم إبداعاته الروائية التي كتب فيها عن طفولته وصباه، وساهمت في تحديد مسار توجهاته الفكرية يقول: "يبقى العمل الأهم في إبداع حنّامينه الروائي هو ثلاثية السيرة الذاتية:"بقايا صور"، "المستنقع" ، "القطاف"حيث نلمس فيها الصدق والأمانة في التقاط الذكريات الحية المؤثرة في مسيرة حياة الكاتب في طفولته وصباه، وفيما بعد في توجهاته الفكرية..."[1]

وإشعال الشمعة أمام الأيقونة يذكرني بجدة مكسيم ذات القلب الحنون التي كان همها مساعدة مكسيم ذلك الطفل اليتيم فقد كانت تهتم بإشعال الشمع أمام الأيقونة والصلاة للرب والدعاء لمكسيم ، وكذلك الأمر والدة حنا تقف وتدعو لابنها ،وتشكر الرب ، وكانت جدة مكسيم تحتضنه وتروي له الحكايات الأسطورية ولغيره من الجيران فبثت فيه الرغبة في الرواية، ومن ثم الكتابة وكذلك الأمر والدة حنا كان لها دور كبير في صقل موهبة ابنها فقد

---

[1] كاسوحة ،مراد، "الرؤية الإيديولوجية والموروث الديني في أدب حنا مينا"، دار الذاكرة حمص ، سورية، الطبعة الأولى ١٩٩١، ،ص٣٠١-٣٠٢

جعلت من رواياتها عن نفسها وأسرتها وجيرانها التي كانت تحكيها لابنها مادة غنية للكتابة وأسهمت في تحريك أعماق حنا، والإحساس بمن حوله من الناس والطبيعة ليكون كل ذلك مادة دسمة لأديب يمتلك مدارك عقلية متفتحة منذ الطفولة من خلال أسئلته التي لا يكون لها إجابة أحياناً ،وأفكاره الخيالية ومثال ذلك الرغيف الخيال الذي يركض فالأديب ابن بيئته يتأثر بها ومن خلال هذا التأثر يخلق مادته التي تؤثر بدورها في القراء .

اضطرت والدته إلى تركه في البيت مع أخواته الصغيرات لتذهب إلى أناس أغنياء في اللاذقية ، وتُرضِع ابنهم وهذا الأمر أحزنها لكنها باعت غذاء ابنها الصغير لأن والده كان غائباً في إحدى رحلاته ، ولم يكن لديهم ما يأكلونه ولم تستطع أن تعمل خادمة لأنه كان رضيعاً فاضطرت إلى بيع نصف غذائه إلى أخيه في الرضاعة واسمه جول .

كانت والدة ذلك الطفل سيدة طيبة طلبت أن ترى حنا لتتأكد من سلامة حليبها، جلست الأم على الدرج حتى سمحوا لها بالدخول ، واكتفت المرأة برؤية وجهه ، وتوسلت إليها الأم ألا ترفض طلبها ، فقبلت ولكن بشروط أن تغسل ثديها وأن يرضع ابنها أولاً حين يكون الحليب غزيراً في الصباح ،وتبعد وجهها عن الرضيع ، وتأكل الطعام الذي يقدم إليها عندهم، ولا تحمل معها إلى البيت فنفذت الأم الشروط جميعها إلا شرطاً واحداً ، وهو أن تأكل الطعام ولا تحمل منه إلى البيت ، فقد كانت اللقمة تقف في حلقها وهي تبتلعها،فأدركت المرأة هذا الأمر ، وأخذت تعطيها شيئاً لشقيقاته .

ألمس هنا جانباً إنسانياً فيه تضحية أمّ من أجل أولادها فهي تبيع حليب ابنها لا لتحرمه منه وإنما لتأكل، وتدر الحليب عليه ، وتطعم أخواته أيضاً معه ، ونجد أن الأم هناهي المسؤولة عن الأسرة، فالأب نجده غالباً بعيداً مسافراً شارداً في مشاريعه التي كانت نتائجها سلبية على الأسرة وعليه .

تحدث الناقد محمد كامل الخطيب عن عاطفة الجمال في الرواية، وجعلها شرطاً من شروط جودة الرواية لأنها تجعلها أكثر تأثيراً في القارئ، وحنامينه إضافة إلى كتّاب السيرة الذين تناولتهم بالدراسة توفّرت في سيرهم عاطفة الجمال بدرجات متفاوتة، ويعود الحكم في ذلك للقارئ، وما جعلهم يمتلكون تلك العاطفة حديثهم بموضوعية قدر المستطاع عن أنفسهم

يقول:"عاطفة الجمال والشرط السادس والأخير من شروط وضع الروايات التزام عاطفة الجمال فيها لأن تأثيرها وحلاوتها متوقفان على ذلك ، ويدخل في هذا أمران:الأول جمال موضوعها والثاني جمال سكبها...."[١]

- **ترك اللاذقية بعد مرض الوالد، والسفر إلى السويدية :**

بعد فشل رحلة والد حنا مينه مع كرياكو ، ودخوله المستشفى أوصى الأطباء بفترة نقاهة ، وكان للأم أقرباء وقطعة أرض صغيرة في السويدية ، فقرر الوالد أن يرحل إليها ، وهناك وعى حنا وجوده لأول مرة، حيث أخذت تتسلسل الأحداث والمشاهد إلى فكره.

وقد ذكر رحيلهم من اللاذقية إلى السويدية فقال:" لا أذكر الوسيلة التي انتقلنا بها من اللاذقية إلى السويدية ، ولا أذكر أيامنا الأولى في هذه البلدة الساحلية بل لم أر ساحلها ولا بحرها ولا سوقها الرئيسية التي كان والدي يسميها "اللوشية" كانت البلدة مسقط رأس الوالدين وآبائهما..."[٢]

كانوا يسكنون، ويعملون أجراء في حقل المختار ، كان الحقل فارغاً إلا من أشجار التوت ،ومهمتهم الوحيدة تربية دود القز ،ولم يوفّق الوالد أيضاً في هذه الصفقة مع المختار ولكنه كان مضطراً إلى المأوى ، وفتح لهم المختار صفحة في دفتر الديون ، حيث سجل على حساب موسم القز خمسين كيلو من خليط الذرة والشعير ، وملح وزيت وصابون وكاز وأوصى الوالد أن يكون مرابعاً أي أن يأخذ ربع الموسم فوافق والده على ذلك.

البيت مستطيل الشكل مكون من اللبن الطيني ، قُسِم نصفين بحائط أحدهما للدواب ، والآخر للسكن ، ظل القسم الثاني فارغاً لأنه لم يكن لديهم دواب ، وقد جمعوا في زاوية منه الحطب والجلّة وفي الزاوية الأخرى يوجد موقد من حجر وطين .

وقع حادث مخيف في الليل ، فقد هاجم قطّاع الطرق بيتاً في الحقل المجاور حيث أحدثوا ثقباً كبيراً في جدار البيت، ودخل واحد منهم خلاله فشعرت صاحبة البيت به وهي امرأة أرملة فنشب بينهما عراك، وحسب شركاؤه أنه اشتبك مع رجل في العتمة فأطلقوا النار،

---

[١] الخطيب، محمد كامل ،"نظرية الرواية" ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ،١٩٩٠،ص٥٢

[٢] مينه، حنا، "بقايا صور"،ص٨١.

وأصابوا زميلهم فصاح بهم: بأنهم قتلوه، وكانت العادة في مثل تلك الحالة أن يحمل اللصوص صاحبهم حتى لا يقع بين يدي السلطة ويعترف بأسمائهم ، لكن اللص المصاب رفض أن يأخذوه وربما ظن أنهم غدروا به، فصاح بهم بألاّ يقتربوا منه وإلا قتلهم، وأطلق النار عليهم فردوا عليه حتى قتلوه .

جاء الدرك في الصباح ،واجتمع الناس الذين قدموا من الحقول المجاورة رجالاً ونساء لمعرفة ما حدث ، ورؤية اللص القتيل ، وذهب والده أيضاً ،أما والدته فذهبت إلى بيت المختار للتنظيف والغسيل ،وظل الأولاد خائفين ولم يذهبوا إلى الحقل ،وبعد فترة سمعوا أصواتاً تقترب من بيتهم ، فكانوا أولاد الجيران الذين يسكنوا في الحقل المجاور ، فقد مرت والدة حنّا عليهم، وطلبت منهم أن يلعبوا مع أولادها، وقد شعر أولادها بالفرح لحضور الأولاد إليهم يقول الدكتور فؤاد المرعي عن الواقعية الاشتراكية،وهي المدرسة الأدبية التي ينتمي إليها أدب حنامينه الذي اهتم بتصوير طبيعة الواقع:"لا تظهر خصائص الواقعية الاشتراكية في التوجه الفكري ،وحسب بل في طبيعة تصوير الواقع أيضاً فبالاستناد إلى معرفة قوانين الواقع معرفة عميقة ،ومن خلال دراسته في تطوره الثوري تمتلك الواقعية الاشتراكية جميع الإمكانيات لتصوير هذا الواقع تصويراً واقعياً "[(١)]

أولاد الجيران هم أخٌ تجاوز العاشرة ، وهو بعمر أخت حنّا الكبرى ، وشقيقتان ، وكان الأخ ذا خبرة فقد عرف الحقول المجاورة ،ورأى المختار واصطاد العصافير بالنقيفة ،وسمع عن حادث الليلة الماضية ،ويعرف الطريق التي سيعود منها الدرك ومعهم القتيل الذي لُفّ بحصير.

وأشار الصبي عليهم بالذهاب إلى الطريق لرؤية الحرامي فوافقوا على ذلك، وجلسوا على حافة ساقية ينتظرون ، والصبي يحكي لهم حكاياته ،وهم من حوله يصغون إليه وكان يتوجه بالحديث إلى شقيقة حنا الكبرى ، وقد سألته :إذا رأى لصاً في حياته ؟ تمهل بالإجابة وللتخلص من الإحراج أجاب : بأن الحرامي يسرق الأولاد لذلك يجب ألاّ يروه .

---

[١] المرعي ،د.فؤاد" المدخل إلى الآداب الأوربية" ، منشورات جامعة حلب،مديرية الكتب والمطبوعات، الطبعة الثانية ،١٩٨٠-١٩٨١ ،ص٢٨٨.

نظر حنا إلى شقيقته فشعر بأنها خائفة مما قال فسأله : عن شكل الحرامي فتحدث عنه بقلب خائف ، وصفه بأن لونه أسود وله شارب كبير، وشفتان غليظتان ،وأذنان كبيرتان ،وكأنه استعار من حكايات الأهل عن العفريت معالم شخصية الحرامي ، ولقد نجحت ثرثرات الصبي في زيادة خوفهم ،وتخيلوا المرأة التي تغلبت عليه بهيئة هيكل بشري ، وسيطر الخوف عليهم طوال ذلك اليوم ،وعندما عادت الأم في المساء ، اقترحوا أن يضعوا أحجاراً وراء الباب،ولكن الأب رفض ذلك لأن اللصوص لا يأتون لتخويف الناس وإنما لسرقة الدواب، أو النقود وهم لا يملكون منها شيئاً والمرأة التي هاجموها كانت تملك بقرة .

إن للكاتب حنا مينه طريقة رائعة في جذب انتباه السامع ، والقدرة على التحكم بمشاعره ، فقد جعلني أبكي عندما تحدث عن حاله وهو رضيع ،وحالة أمه التي لم تستطع أن تتناول الطعام عندما طلبت منها المرأة أن تأكل في البيت، ولا تأخذ معها إلى بيتها حتى إنها أثّرت في تلك المرأة ،وبذلك سمحت لها أن تأخذ طعاماً معها لبناتها ،وهنا جعلني أضحك عندما تحدث عن ذلك الصبي الذي أخذ يصف الحرامي وهم يرتجفون من الخوف لذلك الوصف الخرافي وإقناع والدتهم بوضع الحجارة وراء الباب خوفاً من دخوله فهذه هي أفكار الطفولة البريئة التي تصدق ما تسمع لأنها تظن أن كل ما تسمعه يمكن أن يكون صحيحاً .

وفي يوم الأحد التالي ، لبست أمه ثوب الزيارات ، وذهبت مع الوالد إلى مركز البلدة لرفع شكوى إلى باصوص الأمير على أقرباء لها استولوا على أرض والدها ، كان باصوص من وجهاء البلدة وكلمته مسموعة وقد أصغى الخواجة باصوص إلى شكوى الوالدة ،وأرسل وراء الخصم وطلب منه إعادة الأرض إليها، أو دفع ثمنها ولكنه في الأحد التالي غير موقفه بحجة أنها ليست الوريثة الوحيدة ، وأن لها أخاً وأختاً فجاءت بشهود شهدوا أن الأخ مات والأخت ذهبت إلى بلاد اليونان ، وانقطعت أخبارها ،ولكن ذلك لم ينفع لأن الخصوم وعدوا الأمير بتوسيع إمارته على حساب أمه اليتيمة .

الخال إبراهيم، واسترجاع أرض الأم :

عانتِ الأم من الظلم ولم يرد إليها حقها من قبل ذلك الأمير بسبب المغريات المادية التي جعلته يغير رأيه ، ويبدو أن تلك العائلة حكِم عليها بالشقاء والعذاب طوال مسيرة حياتها وحتى ما هو حقها سلِب منها وهذا أمر محزن، وقد لمست الظلم أيضاً عند مكسيم غوركي ولكن بطريقة أخرى وهي عندما حرم أول حياته من المطالعة، ونال جراء ذلك عقاباً جعله بحاجة إلى طبيب صحيح أن أسباب الظلم مختلفة ولكن طعمه واحد وهو طعم مر .

أشار الدكتور حسام الخطيب إلى تقبل الأدب العربي في سورية المؤثرات الخارجية يقول:"فقد انفتحت أبواب الأدب العربي في سورية لمختلف أنواع المؤثرات ، نتيجة لحركة التمدن ونمو التعليم ،وازدهار الصحافة ،والتطور السياسي، وبروز الطبقة الوسطى وعوامل اجتماعية أخرى كثيرة بدأت المدارس والتجمعات الأدبية تظهر على الساحة ولا سيما ما كان متصلاً بالواقعية الاشتراكية والوجودية....."[١]

وقد لمست هذا التأثّر لدى حنامينه عندما تحدث في رواية "القطاف" عن مكسيم غوركي، واستعارته للكتب من الأسياد،وذلك عندما سأل المطعون إن كان يمتلك كتباً ليستعيرها- منه، أو من الأسياد ولكنه وجد أنهم لا يملكون الكتب ولذلك تطرق للحديث عن مكسيم غوركي والأسياد في روسيا في ذلك الوقت.

بكت الأم ولكن البكاء لم ينفعها، ثم قررا الذهاب إلى بيت الخال إبراهيم وهو خال جدته لأمه وقد قطع الطريق زمن المجاعة ،وهو يرفض هذا الزعم فهو قطعها على قطّاعها ، حكمته هي أن الإنسان يموت مرة واحدة ومع الأيام عرف قطاع الطرق من يكون فتحاشوه.

أصبح الناس يأتون إليه لينجدهم منهم، فيسألهم عن الموقع الذي سلبوا فيه لأن لكل جماعة موضعاً ومن خلاله يعرف من أية جماعة، فيحلّ رباط دابته ولا يذهب فارغ اليدين وهذه أصول المعاملة فالأرض علّمته من يزرع يحصد ، كان يضع في الخرج عباءة ورطلاً

[١] الخطيب د.حسام، "أبحاث نقدية ومقارنة "، دار الفكر ، ١٩٧٣،ص١٥٥

من اللحم ، وبعض التبغ، وعندما يصل يطلب منهم إعادة الأشياء ويضحكون لأنه وحيد ، فيجيبونهِ ولم لا فهو ليس غريباً بل واحداً منهم.

حين وصل الوالدان إلى بيت الخال إبراهيم كان في الحقل يقطّع بعض الأشجار فأخبرته زوجه بأن لديه ضيوفاً من الأقرباء، عرفه الوالد بنفسه ،وقالت الأم : بأنها مريم فتذكّرها وسألها عن أخيها رزق ا ، فأخبرته بأنه مات وأختها ذهبت إلى بلاد اليونان لم يبقَ لها أحد ،وعندما دخلوا البيت قصت حكايتها واستمع الخال لها، وبعد الانتهاء من قصتها أراد إكرامهما فطلب من ابنه ذبح الديك الكبير، وقال بغضب :" يأكلوننا ونحن أحياء ؟ كان يجب أن تأتي إلي يا مريم ... باصوص الأمير على رأسي ،ولكنه يخاوز أحياناً هو لا يعرف من أنت لماذا نسيتني ؟ الحق علي ، نسيني الناس ، أنا فلاح وعجوز ....وليس عندي مشلح حرير مثله ..."[1]

قرر أن يحلّ المشكلة فأخذهم إلى بيت المغتِصب ،وعندما وصل ناداه من الخارج فرحب به، ودعاه إلى الدخول فاعتذر ،وطلب منه النظر إلى الأم أخبره بأنها نسيت أن تعرفه بأنها ابنة أخته ، ولديها حق عنده ، وأن مال اليتيم لا يؤكل ، وسار مع الوالدين إلى بيت باصوص حيث انعقد المجلس ،وبدأت المساومة على البيع بالتراضي ،فقبضت الأم سبع مجيديات من باصوص نيابة عن المغتصب مقابل تخليها عن الأرض، وقرر الوالد شراء حمار ليعمل بائعاً متجولاً يبادل على الأبر والخيطان بالقمح والذرة ،وبذلك يوفي دين المختار ويخلص من أسره، ويرحل مع أسرته .

- **رحيل الوالد للعمل في فترة المطر المتواصل:**

اشترى الأب حماراً، ووضع عليه سحارتين خشبيتين فيهما إبر وخيطان وكبريت وغير ذلك من البضاعة التي يبيعها الباعة المتجولون ،وبعد أسبوع أو أسبوعين من غيابه عاد وفي السحارتين بيض وقمح وذرة وشعير ،وحمل في جيبه قليلاً من المال، وفي تلك الفترة شعرت الأسرة بالطمأنينة لوجوده بينهم .

[1] مينه ،حنّا، "بقايا صور" ،ص٩٣.

كان الأولاد يلاحظون خوف الوالدة ،وحزنها وهذا الأمر جعلهم يتأكدون بأن الأمور لا تسير على ما يرام ، ومع الشتاء أخذت تجارة والده تتدهور ،والأم تشتكي من استهتار الأب الذي لم يعد يعرف مكسبه من رأسماله .

وفي فصل الشتاء طال غيابه ،وكان ذلك الشتاء صعباً عليهم ،وقد كان أول شتاء لهم في ذلك الحقل المحفوف بالمخاطر ، حيث كان المطر ينهمر بغزارة، وقد وصف حنامينه ذلك الجو فقال :" مطر، مطر، مطر، جو رمادي ، والسماء على مدى البصر، فضاء عبوس، كأن لا شمس بعد ولا قمر مطر، ولا شيء غير المطر سيول من ماء..."[1]

هذه النظرة التي هي نظرة طفل إنما هي دليل على أنه موهوب منذ صغره عندما كان يتابع أدق التفاصيل قطرة المطر وما تفعله حتى تختفي ، ونادراً ما نلاحظ من البشر التدقيق في هذه الأمور بل على العكس يحاول الناس غالباً الاختباء من المطر حتى إن بعضهم يظنونه أمراً يجب الحذر منه حتى لا يمرضون إن تبللوا من قطراته.

كان غياب الوالد يزيد قلق الأسرة ، ويبررون غيابه بسبب المطر ،وكانت تشعر بالضيق أحياناً من أسئلة أولادها، وترغب عن الكلام، ولتوفر الكاز كانت تضعف إنارة الفانوس، ويستنير البيت على ضوء النار في الموقد الطيني حيث يمتلئ بالدخان ،و كثيراً من الأحيان كانوا ينامون حول الموقد وهي تقص عليهم حكاياتها ، والليل يكون في أوله فتقضيه وحيدة ساهرة وتبذل جهداً في حمل أولادها على السهر، وتقوم بإغرائهم بأنها ستحكي لهم حكاية الشاطر حسن.

ذكر حنامينه وضع بيتهم وحالة أمه القلقة فقال:" لم يكن بيتنا بيتاً ، كان أشبه بخيمة في قفر، ومن كل الأطراف تعصف بها الرياح، ومن كل الأنحاء تندفع إليها قطعان الذئاب ، ويحوم اللصوص حولها، والأم وأطفالها تحت رحمة هذا الكابوس كان الصراخ لا يفيد، لا أحد يسمع ، فالصوت يخنقه الرعب والريح ، فإذا نمنا لا يبقى من الأم إلا عينان خائفتان تدوران أبداً على الجدران ، وأذنان منصتتان، وأعصاب تعبة متوفزة ، وليل طويل ومطر.."[2]

---

[1] مينه ،حنا، "بقايا صور" ،ص٩٧.
[2] المصدر ذاته ،ص١٠١.

تغلق الأم الباب في الليل، وتضع وراءه جذع شجرة من التوت ،وبعد تناول مالديهم من طعام تجلس الوالدة على حصير أمام الموقد والأولاد حولها وتبدأ بسرد حكاياتها ، ويعدها الأولاد ألاّ يناموا ولكن صوت المطر ، ووهج النار، وعالم الحكايات الساحر يشعرهم بالنعاس وفي منتصف الحكاية تجد الأم أن أولادها قد ناموا ،فتنّبههم بأنها لن تحكي لهم حكاية بعد الليلة ولكن التنبيه لا يجدي نفعاً لأن النوم يغلبهم .

إن غريزة الأمومة التي تحملها هذه الأم الطيبة جعلتها تتعب، والتعب ليس لجسدها فقط بل لروحها أيضاً فتمنع نفسها من النوم لتكون حارساً ليلياً لأولادها، ولا تُشعِر أولادها بالخطر المحيط بهم لأن الأولاد يشعرون بالنعاس، ويتمكنون من النوم بسهولة لما توفره لهم الأم من الأمان ولكن هذا الأمان مأخوذ من أعصابها فهي تخاف، وتسهر فتقر عيون أولادها ، ولو أن الأولاد شعروا بالخوف لما وجد النوم سبيلاً لأعينهم فهذه الأم جديرة بالاحترام والتقدير مثلها مثل الأمهات اللواتي يضحين من أجل راحة أولادهن .

لمست في سيرة الكاتب حنّامينه صراعات عدة منها صراع الأم من أجل البقاء وحماية أولادها في الكوخ الموجود في حقل التوت في السويدية بعد أن سافر الوالد وتركهم ،وصراع حنّا الذي كان بطل سيرته ضد الظلم المتمثل بالإقطاع ورجاله الوكيل والشوباصي في ريف اللاذقية ،ومشاركته في المظاهرة مع عمال المرفأ في إسكندرونة ، وقد جعل الصراع ركيزة أساسية في رواياته الأخرى ، بسبب الحياة الاجتماعية القاسية التي يحياها أبطاله، وقد تطرق الدكتور علي نجيب إبراهيم إلى ذكر ثنائيات الصراع يقول: "الصراع في روايات حنامينا موسوم بطابع مواجهة مزدوجة عبر الطبيعة لتصل إلى المجتمع ، فمواجهة الإنسان للطبيعة وهي شرط وجوده وزواله،إنما هي إسقاط للعلاقة (ذات –موضوع)على علاقة الصراع الاجتماعي (ذات-ذات- أو ذات- ذات أخرى).."[1]

---

[1] إبراهيم، د. علي نجيب، "جماليات الرواية "دراسة في الرواية الواقعية السورية المعاصرة "،دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٤،ص٣٢٥

- **ظلم المختار وتحكمه بالعائلة :**

توقف المطر وما حمله معه من كوابيس أخافت العائلة، وظهر قوس قزح في السماء نتيجة توقفه ، فذهبتِ الأم في الصباح إلى المختار لتطلب منه أن يقرضها بعض الأغراض وقفت أمام دكانه كمتسولة فقام المختار بشتمها ،وأخبرها بأنه سيحبسها حتى يأتي زوجها ، أرادت الأم أن تشرح للمختار وضعها لكنه لم يصغ إليها، وسحب عصاه فركض رجل وأمسك بالعصا ، لكن المختار ضربها على بطنها بقدمه، فسقطت في الوحل تستجير، وتطلب منه الرحمة، وقد ضربها بالعصا ضربة طائشة أصابت كتفها فأحاط الرجال به وأبعدوه عنها .

بقيت الأم على الأرض والوحل تحتها والرذاذ فوقها، ودموعها تجري ورأسها منحنٍ تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها ،وبعد فترة نهضت الأم وكانت تبكي وتبتهل ، وأخذت تسير ويتملّكها القهر والعجز، ثم جلست بين الحقول على تخم لا يمر به أحد، وبدأت تستعيد شعورها بالحياة والزمن وتأكدت بأنها ما تزال إنسانة قادرة على مواجهة الناس ، وتحمل الأذى في سبيل أولادها الذين ينتظرونها في ذلك البيت الضائع بين الحقول .

نجد أن حنّا برع في الوصف والتجسيد حيث نرى أنه يحول الغيوم إلى نساج بارع يقوم بحياكة المزق الزرقاء ليتشكل منها المطر من جديد حيث يقول : " عند الضحى أكملت الغيوم طبقتها الرمادية التي نسجتها بإحكام فوق المزق الزرقاء التي تبددت صباحاً عاد المطر يهطل وفقاعات الماء تتشكل وتنطفئ والأغصان الجرداء تنقط قطرات متتابعة ...."(١)

توجهت الأم إلى جيرانها في الأكواخ الموجودة في الحقول تطلب منهم العون، وقد ساعدتها إحدى قريبات زوجها فأعارتها بعض الأشياء التي كانت تحتاجها ،وبعثت معها ابنها الذي كان أول شخص يدخل بيتهم منذ غادر والدهم ، فشعروا بشيء من الراحة والأنس بوجوده بينهم .

لقد لمحت فقراً شديداً من خلال ما قرأته في هذه السيرة فالوضع الاقتصادي متردّ ويبدو أن هذا الوضع كان يطال الأغلبية في مسكنهم ولباسهم وأكلهم والذي زاد الطين بلة

---

[١] مينه ،حنّا، "بقايا صور"، ص١٠٣

وجود الأشقياء الذين يقتحمون البيوت ليلاً، فيسرقون بعض محتوياتها، أوالحيوانات التي يجنيها السكان وأشياء خاصة بهم، وقطّاع الطرق الذين يقفون للناس بالمرصاد، ويسلبونهم ما يحملون من أشياء خاصة بهم، وظاهرة الأشقياء هي أيضاً دليل على الفقر الشديد لأن أغلبهم يسرقون ليأكلوا بطريقة غير مشروعة.

استمر فصل الشتاء بمطره ولياليه الباردة وريحه الشرقية، وفي أحد أيام الشتاء شاهدوا من طرف الحقل حمارة عرجاء تسير باتجاه البيت وخلفها الأب ، فركض الأولاد نحوه ،وقد رغب حنّا أن يرفعه ،ويضعه على ظهر الدابة ولكنه لم يفعل كان في الخرج بيض وجوز ودجاجتان وديك، وبعض الحبوب ،وقد فرح الأولاد لوجود تلك الأشياء، أما الوالدة فقد عرفت أن زوجها لم يوفق ،لأن الدابة سقطت على صخرة فانكسرت رجلها وأدركت بأن الدابة بحكم المفقودة .

كان الأب غير مهتم بالطعام،أو الكساء، ويواجه الموت دون خوف ولا يحسب للعواقب حساباً، لا يتمالك نفسه أمام زجاجة عرق ،فقد كان ضعيفاً محكوماً بشهوته أمام امرأة وهو عندما يمر بتجربة يشعر بالذنب ويندم على فعلته ، ولكن بعد ليلة من الندم يعود، كأنه لم يفعل شيئاً، ويكرر فعلته من جديد ،يرحل وكلّه رغبة بأن يعود بمشاعر الزوج والأب ، ولكن ذلك لا ينجح وينسى كل ذلك فيسكر .

- **استهتار الوالد بمصير عائلته،والقضاء على الحرير الطبيعي:**

اشترى الأب عدة الإسكافي، وحملها على ظهره عبر الأشجار والعائلة ستنتظر عودته دون أن يهتموا بما سيحمل إليهم لأن رجوعه سيزيل الكآبة والخوف عنهم،توالت الأيام ولم يعد الأب ، وقد ظنّت الأم بأنه هجرهم ،ورحل إلى مكان بعيد، وبذلك أصبحوا سجناء مقيدين بدين المختار،والكوخ الطيني السجن، والموسم الذين سيربون دودته لن يأتي قبل أشهر ،وإن كان الموسم جيداً فلن يؤدي دين المختار كاملاً، وسيضطرون للاستدانة بالفائدة وسيتراكم الدين عليهم مع فصل الشتاء ،ومرة أخرى سينتظرون الموسم وهو غير مضمون وربما ينتج وربما لا ، لأن دودته تحتاج إلى كثير من المهارة والحظ .

الظلم لم يكن يقع فقط على المرابعين، وإنما طال زوج المختار المرأة الطيبة، وكانت الأم تساعدها في أعمال البيت وتخفف عنها ، وزوج المختار لا تستطيع أن تعطي الأم شيئاً فالأم تمر في المساء إلى دكان المختار ليتأكد بأنها لم تسرق شيئاً من بيته .

المختار هو رمز للجشع والطمع ،فهو إنسان لا يمتلك الرحمة في قلبه يظلم الأم ويشتمها ويعذبها ،والمرابعون يواجهون الأمر ذاته حتى إن بعضهم يهرب من جور المختار ،ولا يكتفي بظلم المرابعين بل يضطهد زوجه، ولا يقدرها وهمه الأكبر جمع المال ،والسيطرة على المرابعين والتحكم بهم وبأرواحهم فهو يهدد الأم بأنه سيشنقها على شجرة التوت .

ويمكن أن أقول إن كتّابنا واجهوا على العموم ألواناً من العذاب والشقاء ومعاناة من الفقر والظلم والاضطهاد ،ولكن لكل كاتب لوناً من العذاب خاص به عذاب حنّامينه من والده واستهتاره، وعدم متابعته لأحوال العائلة، وعذابه أيضاً ينبع من عذاب والدته التي تعاني، ولا تهرب من أجل أولادها فهو مقدر لتضحيتها فقد كتب سيرته بقلم مغموس في عذابات أمه فيواجهنا الألم في زوايا سيرته الذاتية الذي ضاعف آلامه معاملة المختار لوالدته بتلك الطريقة الوحشية، وهي التي تستحق التقدير لما كانت تقوم به من دور الأب والأم معاً.

أما أول مراحل عذابات مكسيم غوركي ،فكان فقده لوالده ،وتوجهه إلى منزل جده والد أمه فقد كان يعاقبه بطريقة قاسية حتى إنه يجعله أحياناً طريح الفراش، وبعد أن أرسله جده للعمل عند أقرباء جدته عانى من العمل المجهد، وقد حرم من القراءة أمامهم ولكنه أخذ يقرأ خلسة ، وعندما كُشِف أمره عوقب بقسوة مما جعله بحاجة إلى الطبيب .

وكانت معاناة طه حسين من نوع آخر، وهي ما حلّ به بسبب آفة العمى التي تعرض لها منذ صغره والتي جعلته يشعر بالعزلة والوحدة والخوف أحياناً من تلك العزلة ،وكذلك الوضع الاقتصادي المتردي الشيء الذي عانى منه كتّابنا جميعهم

وبالحديث عن أحمد أمين فقد كان يعاني من والده الذي رسم له مسار حياته، وأجهده بالدرس في صغره حتى إنه أحس بأن الطفولة هربت منه ، ولم يشعر بها وعندما كان يحاول التهرب من الدرس يتظاهر بالمرض، وإذا كشف والده ذلك يعاقبه عقاباً شديداً ، فجعل حياته

جدية بعيدة عن مرح الطفولة ،وكذلك مشكلة البصر كانت تحرمه من امتيازات يستحقها ومنها نيل درجة الدكتوراه، فالقاسم المشترك بين أدبائنا المعاناة التي كانت رحماً لإبداعهم .

الأم إنسانة من لحم ودم وأعصاب ومشاعر لها درجة من التحمل، بل إن تحملها زاد عن الطاقة البشرية ، وذلك بسبب أولادها الذين كانوا يمدونها بالقوة لأنهم ضعفاء وهم بحاجتها ،إلاّ أنها في لحظة شعرت باليأس من قدرتها على وفاء الدين من الموسم ، ومن عودة الوالد الذي تصورت أنه تركهم رهائن وهرب ،أوربما تعرض للتشليح أو القتل ،وأخذت تراقب الدرب الذي سيعود منه الأب .

الأولاد لم يروا المختار ، ولو سمعوا صوته يوماً لهربوا منه لما سمعوا عنه من قصص الظلم، واستعباد المرابعين ،أما الخال رزق ا فكان بخلاف المختار يتميز بالرحمة والعطف على الفقراء ومساعدتهم، وقد سألت أخت حنّا الكبرى أخاها بأنه عندما يكبر هل سيصير مثل خاله ؟

ردت الأم في البداية بأنه مستحيل أن يصبح كخاله، ثم غيرت رأيها حتى لا تجرح صغيرها بأنه يشبهه ولكنه صغير ونحيل ،ولا يوجد لديهم طعام يكفي لتغذيته فنهضت أخته الثانية ، وأعطته حصتها من الخبز وهو نصف رغيف .

إن ما يجعل الإنسان يصبر على الشدائد المحبة المتبادلة، وفي هذه العائلة المحبة موجودة فهذه الطفلة ضحت بحصتها لأجل أخيها لأنها تحبه من ناحية، ولأنها تود أن يصبح قوياً من ناحية أخرى ليخلصهم من ظلم المختار، فالجميع يشعرون بالظلم، ويرجون التخلص منه ،وقد تمثلت صورة الخير والشر في مخيلة الأولاد من خلال أحاديث الأم عنهما فالمختار هو رمز الشر ، والخال هو رمز الخير فيقول:" كان علينا أن نعيش ما تبقى من أيام الشتاء ، وأن ترسم مخيلاتنا الصغيرة صورة للشر والخوف بشخص المختار ، وصورة للخير والأمان بشخص الخال...."[1]

---

[1] المصدر السابق،ص١١٨-١١٩.

برع حنا مينه في تصويره للآلام التي مرت بالعائلة جراء ظلم المختار لهم حيث قال:"إذ تتصور أننا في ذلك البيت الطيني المهجور ، كتلة من اللحم الطري ،أفراخ عصافير على حافة العش في شجرة حور تزقزق في طلب أمها التي ذهبت لتأتيها ببعض الحب، كانت تعلم أننا لا نزقزق بل نبكي ..."[1]

وكان ذلك عندما حبسها المختار في الزريبة، وترك أولادها وحيدين فخافت عليهم أن يهيموا في الحقول، أو يسقطوا في حفرة، أو يأكلهم وحش، ولكن زوج المختار كانت طيبة طلبت من زوجها إطلاق سراح الأم فوافق المختار،على أن تحضر ابنتها للعمل خادمة حتى يضمن عدم هربها، فانصاعت الأم لذلك مكرهة.

عاد الوالد والندم ظاهر عليه كعادته ،ولكنه لم يكترث لغياب ابنته ، وعملها خادمة في بيت المختار ،وأخذ يعمل في الأرض، ويعتني بالحقل، وقد عشق امرأة أرملة كانت محطّ إعجاب الرجال ،وهذا الأمر أزعج الأم، ولكنها كانت تتساهل معه حتى لا يرحل والموسم في أوجه .

خلال مراحل تربية دود الحرير كان الوالد يصدِر التعليمات على أسرته فيتقيدون بها وقد شاهدوا الدود وهو يتعلق بالشيح، وينسج فيها شرانقه ، وكان في ذلك الوقت عاقلاً حكيماً، وقد تبارى مربو دود الحرير، ففاز والد حنّا بجائزة أفضل إنتاج ، وهي الشهرة فقط ، شعرت الأسرة بسعادة كبيرة ،ولكن السعادة لم تدم طويلاً لأنه لم يصل إلا عدد قليل من تجار الحرير إلى البلدة .

وقع المرابعون بعد فترة بمشكلة الشرانق التي أخذت تتحول إلى فراشات ،وهذا الأمر يتلف الحرير،فاضطر والده إلى حمل الموسم، والإسراع به إلى المختار حيث المخانق لينقذ الموسم،وكان ذلك العام آخر موسم من مواسم إنتاج الحرير في البلدة ،لأن الحرير الاصطناعي قضى عليه ونجده يقول في ذلك:" الموسم ذلك العام كان آخر مواسم الحرير في

[1] -المصدر السابق ص١٣٠.

البلادة آخرها لأن الحرير الاصطناعي سيقضي على الحرير الطبيعي، فإذا بقي من يربي دودة الحرير لسنوات تأتي فليس ذلك إلا تحدياً أو مجازفة.."[1]

- **السفر إلى قرية الأكبر في ريف أرسوز:**

حزمتِ الأسرة الأمتعة القليلة، وقررتِ الذهاب إلى إسكندرونة وفي إسكندرونة حيث سكنوا في ملحق ببيت الملاّك الذي تخدم ابنتهم عنده كان الخواجه خريستو الذي ورث الأملاك عن أقربائه يظن أن الوالد سيحرس أملاكه ،ويمنع الفلاحين من سرقته ولكن تبين له أن الوالد لا يمكنه ذلك، فغير معاملته وأخذ ينهره، ويشتمه طوال الوقت وبدأت الأم والأخت الكبرى تخدمان في بيت الخواجه.

كانت السيدة تقرأ في صحيفة أو كتاب ،وهذا الأمر لفت انتباه حنا، وأخذ يجمع الصحف والمجلات التي كانت تلقيها السيدة بعد الانتهاء من قراءتها ،ويقص منها الصور ليريها لأخته التي كانت تفرح بها ، ويتحسر لأنه لم يكن يستطيع قراءة مافي الأوراق ،ولفت انتباهه أمر آخر، وهو السفن التي كان يجلس على الرمل فوق التلة لمراقبتها ،حذّرته الوالدة من الذهاب إلى التلة خوفاً عليه من الأفاعي ، لكنه لم يستطع مقاومة منظر البحر، والسفن وأخذ يذهب خلسة.

خدع رجل الوالد المستعد للانخداع في سبيل الرحيل ، وقد أغراه بأشياء منها بيت وأرض،ولكن عندما وصلوا لم يجدوا شيئاً مما وعد الوالد به قررت الأسرة وضع متاعها تحت شجرة تين على جانب الطريق عانت الأسرة من الوضع القاسي فالأمور كانت تزداد صعوبة حتى إن الأم المسكينة مرضت من النوم في العراء تحت الشجرة، وظلّوا ثلاثة أشهر تحت شجرة التين .

وقد تحدث عن ذلك فقال:" نقلنا متاعنا القليل إلى تحت شجرة تين هرمة على جانب الطريق، عملنا بصمت وقهر وتضامن ، رتّبنا أغراضنا ، وأخرجتِ الأم شرشفاً علّقه الوالد

---

[1] المصدر السابق،ص١٧١.

على الشجرة ستارة تحجبنا عن عيون المارة كان مذلاً أن ننام في العراء، وعلى قارعة الطريق ..."[1]

جاءت فلاحة في أحد الأيام وطلبت من الوالدة أن تبعث بولديها إلى مكان يسمى المزار يوزع فيه اللحم المسلوق والهريسة كانت الأم سابقاً ترفض لأنه شحاذة ،ولكن هذه المرة وافقت بسبب رغبتها في أن يأكل ابناها اللحم بعد انقطاع عنه فترة طويلة ،ذهب الولدان مع الفلاحة، وقد شعرا بإحراج شديد لما شاهداه من تهافت الصبية والمعدمين والمعوقين ورغبا ألاّ يكررا ذلك مرة أخرى، ولكن أوضاع العائلة السيئة اضطرتهما لذاك .

تماثلت الأم للشفاء بعد أشهر من مرضها ،وانتقلت العائلة إلى كوخ طيني في طرف القرية وقد سعدت الأسرة بذلك فقد أصبح لديهم بيت يسترهم ، وتسكن بجوارهم امرأتان إحداهما عجوز كان لها سبعة أولاد، و لكنهم ماتوا جميعاً ،طلبت الصدقات من الأسرة فأخذت الأم تحسب حسابها بكسرة خبز .

والمرأة الثانية زنوبة وهي امرأة في منتصف عمرها، وفي إحدى الليالي سمعت الأسرة شتائم بذيئة منها وهرجاً وأصوات رجال فخرج الوالد لرؤية ما يحدث ولحقت به الوالدة ،وقد كانت زنوبة تضحك مستلقية على الأرض وهي سكرى ،والذين ضاجعوها هربوا ،وبقي من جاء لنجدتها، وقد طلبوا منها ستر جسدها، وراح رجل يضربها بعصا وهي تشتمه ،وحملوها إلى بيتها غائبة عن الوعي .

قدمت زنوبة في عصر اليوم التالي إلى الأسرة وهي خجلة لتتعرف بهم ، ثم عادت مرة أخرى بعد أيام وقد اختفى الندم والخجل الذي طبع وجهها في الزيارة الأولى ،وقد رحب الوالد بزيارتها، فقد أخذ يقضي لياليه الملونة بالخمرة والجنس معها ،أُغرمت زنوبة بالوالد وربما أغواها بجماله ،فتمنعت على الرجال كلّهم ،وأحبته وأصلحت سلوكها لأجله .

أعلن ذات يوم أنه سيترك مهنة الإسكافي ،ويعود إلى صنع المشبك، ولذلك سافر إلى المدينة ليستلف المال من أجر ابنتيه ،ولكن غيبته لم تطل فقد عاد تعيساً لأن ابنته البكر كانت

---

[1] المصدر السابق ،ص٢٣٥.

مريضة ،فذهب في الصباح مع الوالدة إليها ، وتركت الوالدة ابنها وابنتها وحدهما فبكيا دون جدوى،وبعد فترة قصيرة جاءت زنوبة إليهما ، وبقيت معهما وقد قدر حنا فعلتها لما لمس فيها من جانب إنساني .

عادتِ الأم في المساء وهي تحمل معها الخيبة فابنتها لم تُشفَ، ومنذ تلك الليلة تغيرت نظرة حنّا تجاه زنوبة وبدأ يحبها ،وبقيت زنوبة إلى جانب الأسرة الأعوام الثلاثة التي قضوها في قرية الأكبر ذكر حنان زنوبة وحبها للعائلة فقال:" لقد كانت زنوبة إلى جانبنا خلال تلك الأعوام الثلاثة إن القلب الذي ينطوي على فيض من الحب الإنساني ، يبحث أبداً عن مصرف لطاقة هذا الحب المحروم من الممارسة ، وقد وجدت زنوبة مجرى لطاقة حبها في ساقية سالت باتجاهنا .."[١]

كان الوالد يرحل في الشتاء غالباً ليجاب المال من عمل ابنتيه ،أما في الصيف فقد كانت الأسرة تجمع السنابل التي تلتقطها من الأراضي وقت الحصاد من أجل تأمين لقمة العيش ، وكان حنا يبقى عند زنوبة التي كانت تعتني به وكأنه ابن لها.

طلب حنّا من أمه بإلحاح أن تصطحبه لالتقاط السنابل فقبلت بذلك فكان في بادئ الأمر متفائلاً، ولكنه بعد ذلك شعر بتعب، ودوار فأجلسه الوكيل في خيمة حتى يرتاح وأعطاه شملاً كبيراً، وطلب من والديه ألا يصطحباه في ذلك الحر الشديد .

انقضى الصيف وحلّ الخريف، وبدأت الأم تفكر في الإدام بعد أن جمعت السنابل في الصيف ،واستخلصت منها القمح ، فخرجت لتعفير الزيتون، وكذلك الأمر جمعت الحطب للأيام الباردة ،وسلقت القمح لصنع البرغل وطحنت ما تبقى لأجل الخبز ،وزرعت مع الوالد مساحة من أرض البستان فجلاً وبصلاً وسلقاً.

في منتصف أيار ولدت الأم بنتاً ،وقد شعر الوالدان بالحزن لأنهما رغبا بولد يكون أخاً لحنّا ،وزنوبة كعادتها لم تترك الأم فقامت مقام الأخت منها ،والذي أثّر بالأم أنها اكتشفت بعد شهر من ولادة الطفلة بأنها عمياء .

---

[١] المصدر السابق،٢٩٦.

حدث الأعظم الذي شبهه الوالد بأيام سفربرلك فقد هاجم الجراد الحقول ،وأمر المختار الناس بمكافحته، وحاول الوالد إعفاء زوجه من تلك المهمة لأنها نفساء ، لكن المختار رفض وهدده بالسجن إن لم يذهب مع عائلته لمكافحة الجراد فامتثل لأوامره ،وعندما انتصف النهار طلب الوالد من الدركي إرسال الأم لإرضاع ابنتها الضريرة فرفض،وضرب الوالد لاعتراضه.

في اليوم التالي جاء سرجان مع عساكره وقد كان إشبيناً لابنته الصغيرة ،فتعرف بالوالد، واستغرب عمل الوالدة والطفلين وهي أم لطفلة صغيرة عمياء فغضب من المختار وعاقبه مع وجهاء القرية وأمرهم أن يخرجوا نساءهم للمكافحة ،اعتذر المختار من الوالد وأصبح يلاطفه ،لكن السرجان نصحه بمغادرة القرية لأن المختار سينتقم منه، وسيواجه المجاعة بسبب الجراد .

لفتت زنوبة نظر السرجان ، وأخبرها بأنه سينام معها، ولكن زنوبة رفضت ذلك وبعد أسبوع دخل عليها من النافذة بعد أن كسرها لأنها رفضت فتح الباب فمانعته ولم يتمكن منها وهربت إلاّ أنه أدركها ، وحاول اغتصابها فمزق ثيابها، وطرحها أرضاً ولكنها لم تستسلم وأخذت تصرخ فسمعها الفلاحون فسحب مسدسه وهددهم، ثم توارى في الظلمة وساعدها الوالد فأخذها إلى بيتها وأغلق الباب عليها وبدا سعيداً لأن زنوبة أثبتت إخلاصها ، قيل أن السرجان رحل من القرية خوفاً من اغتياله لكن الوالد لم يصدق لأن السرجان كان عنيداً وجريئاً.

بدأ أهل القرية يشعرون بالجوع فقد قضى الجراد على كل شيء فاضطروا إلى سرقة المستودع الذي كان يحرسه الوالد وهذا الأمر أقلق الوالدين ، واقترحت الأم الرحيل لكن الوالد عد رحيلهم خطراً عليهم لأنه سيثبت تهمة السرقة عليه.

ويذكر حنّا في روايته الأحداث السياسية، وتأثيرها عليهم فقد كان لها دور في رحيلهم من قرية الأكبر، ومقتل زنوبة وقد شاركت في تلك المجزرة السلطة المرتبطة بالملاكين ،والمستعمرين الفرنسيين ، أشار إلى ذلك نبيل سليمان حين قال:"لقد تدخلت السلطة المرتبطة بالملاكين من جهة وبالمستعمرين الفرنسيين من جهة ثانية ،في حوادث (الأكبر) وكانت تلك

الشرارة المجهولة من تاريخ شرارات الصراع الطبقي في عشرينات الريف السوري، حين واجه الفقراء الجائعون الملاّك والقوة المسلحة، وفي هذه الشرارة احترقت (زنوبة)..."[1]

وهنا يورد حنّا أحداث المجزرة حين عاد السيد صاحب المخزن إلى القرية وفتح المخزن،فصرخ عندما نظر فيه، وقد سرق فأحضر الدرك ، وجمع الفلاحين والوالد معهم وبدأ بمحاسبتهم بالضربِ ،ولم تسلم زنوبة منه فقد بعث في طلبها واتهمها بأنها سارقة ، ولكنها أخذت تشتمه وتشتم الحكومة، فعاقبها بالضرب الشديد ،وعندما أراد أن يعاقب رجلاً عجوزاً توسله أن يرحم سنه فسخر منه فصاح أحد الفلاحين بأنه هو من سرق لإطعام أولاده فقال له السيد إنه يطعمهم مالاً ليس من حقه، فرد عليه الفلاح بأنهم أكلوا حقوق الفلاحين ،ونتيجة لذلك اشتبك الدرك والفلاحون .

بعد فترة شاهدوا ناراً تخرج من المستودع، فقد استطاعت زنوبة التخلص من الدرك وإحراق المستودع فأسرع الفلاحون إلى الداخل للحصول على القمح، وأخذ الدرك يطلقون النار على الفلاحين مباشرة فتحولت المعركة إلى مجزرة ، ولم يعد أحد يكترث، وقامت زنوبة التي كانت فوق السقف بتحريض الرجال على حرق السيد، ولكن حدث أمر رهيب فقد أطلق دركي رصاصة على زنوبة فسقطت في الباحة الأمامية للمخزن، وأدى ذلك إلى موتها.

وقد تحدث عن حادثة مقتل زنوبة فقال:" بعد ذلك حدث شيء كان ذروة تلك الفتنة العاصفة ونهايتها ، أطلق دركي من وراء إحدى الأشجار رصاصة باتجاه السطح، ومع صرخة خرجت كالزئير ودوت فوق جميع الصرخات تهاوى جسم زنوبة كخرقة أطارتها هبة ريح شديدة وسقط في الباحة الأمامية للمخزن ، وانكتم صوت تلك البائسة إلى الأبد .."[2]

في منتصف الليل وصلت مفرزة من الدرك حيث احتلّت القرية، وساقت الناس إلى مركز المدينة وبقيت القرية محاصرة لأيام، وعاد الوالد من المدينة لأنه لم تثبت عليه السرقة فأحضر عربة، ورحل إلى المدينة بعد أن أمضى في قرية الأكبر ثلاث سنوات ذاقت فيها العائلة طعم المر.

[1] سليمان ،نبيل،" الرواية السورية "،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق،١٩٨٢، ص٦٦٥
[2] مينه،حنا،"بقايا صور"،ص٣٥٧.

يمكن أن أقول: إن زنوبة مثال للمرأة الجريئة القوية الثائرة التي وقفت في وجه السيد وقالت له:لا، وحرضت الناس على الثورة وغيرت مسار الحدث، وجعلت مصير السيد ومستودعه في يدها فهي التي كانت تقوم بفعل ما تراه مناسباً لأهل القرية، وهي التي شعرت بما يقومون به من سرقة للمخزن بسبب جوعهم وبررت لهم ذلك، لأن حق الجائع أن يأكل وهي المرأة التي لم تسلّم جسدها للسرجان عندما أرادت ذلك ، وهي التي جعلت نفسها أماً لحنّا فهي كتلة من المشاعر المختلفة التي تتناسب مع المواقف التي تواجهها .

وأجد الثورة من نوع آخر لدى طه حسين، وهي موقفه من بعض الشيوخ الذين كانوا يتهربون من الرد على أسئلته التي يعجزون عن الإجابة عنها، وكذلك الأمر آمن طه حسين بالثورة وذلك إبان الحرب العالمية الأولى على الرغم من أنه قضى وقته في فرنسا إلاّ أنه لم يصرف نفسه عن أحداث الحرب ، وأوضاع بلده وحقه في أن يحيا حراً كريماً ،وحديثه عن غيره من المفكرين الذين آمنوا بالثورة أيضاً، فقد كانوا يحسبون كل خطوة يخطونها، ولا يتحرجون من نقد القادة وكان ذلك الأمر يعرضهم للانقسام على أنفسهم .

من رجال الثورة سعد زغلول، وعدلي باشا ولقد مال طه حسين إلى عدلي باشا.أما أحمد أمين فقد كان موقفه موالياً لسعد زغلول، ولم يرض أحمد أمين مرة عن تجريح سعد زغلول لعدلي،وسأل سعداً الأدلة فلم تقنعه ،فغضب سعد زغلول منه واتهمه بأنه سيء المنطق في ذلك اليوم، وقد شارك أحمد أمين في المظاهرات .

وفي الحديث عن الثورة لدى مكسيم غوركي فهي تشبه الثورة التي أشعلتها زنوبة ثورة الفلاحين على القهر، والجوع فقد حاول مكسيم غوركي إرشاد الفلاحين إلى طريق الخلاص، والحرية وكان ذلك عن طريق توعية الفلاحين حتى يتمكنوا من الإمساك بزمام السلطة ، وانتزاعها من يد القيصر، لأن للشعب الحق في اختيار الموظفين، والشرطة وحتى القيصر يجب أن يكون من صفوفهم ،ويمكن أن أقول إن الكتّاب جميعهم سعوا إلى حرية الشعب لكن لكل منهم طريقة خاصة به.

- **العودة إلى قرية قره أغاش في إسكندرونة:**

رحلت الأسرة إلى الضاحية الجنوبية من المدينة إلى الملاّك نفسه الذي عملوا في حقله عندما نزحوا عن السويدية إلى قرية قره أغاش قرب إسكندرونة ، وقد سكنوا في غرفة طينية عند مدخل إسكندرونة من جهة أنطاكية ، وقد وافقت الوالدة أن تخدم في بيت السيد .

شعرتِ الأم بالأمان لقربها من المدينة لأنها ترغب في ذهاب ابنها إلى المدرسة، وقد ذكر حوراً دار بينه وبين والدته حول المدرسة فقال:" ومرة قالت لي :" غداً في المدرسة يعلمونك كل شيء" فقلتُ:" لن أذهب إلى المدرسة سأبقى معك" قالت:" لا ياصغيري المدرسة حلوة ، يعلمونك فيها الصلاة والقراءة والكتابة، وسيكون لك فيها رفاق من أمثالك تلعب معهم ، وتحفظ الأغاني ، وعندما تكبر تستطيع قراءة الكتب وكتابة المكاتيب إلى أعمامك.."[1]

وقد أقنع الوالد الملاّك بالعمل لديه في تربية الخيول والأبقار والزراعة وكان الخواجه قاسي القلب يعذّب الفلاحين ،وكان للفلاحين أولاد يلعب حنّا معهم تحت أشجار السرو في المقبرة القريبة منهم ، وهي للجنود الفرنسيين الذين قاتلوا في كيليكيا أواخر الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك .

كانوا يجلسون وقت الغروب أمام باب الحوش تحت شجرة توت يشاهدون الفلاحين العائدين من المدينة مشياً على الأقدام ،أوراكبين على الحمير وقد عملت ورشة لترميم الطريق أمام بيت السيد ، حيث كان يحفر العمال البقع الإسفلتية المخرّبة ،ويرصفونها بالحجارة ، ثم تأتي المدحلة فتمهد الأحجار .

كانت الوالدة تطلب من حنّاحمل الماء من بيتهم إلى العمال ،وتدعو لهم بالعافية لأنهم يتعبون كثيراً وتقول عنهم : بأنهم يأكلون خبزهم بعرق جبينهم فظل حنا يراقبهم ليرى كيف يأكلون الخبز، وعاد إلى أمه وأخبرها بأنه راقبهم ولم ير ذلك فأعلمته بأن هذا مثَل ويعني أنهم يأكلون خبزهم بتعبهم.

---

[1] مينه،حنا،"المستنقع"،ص١٠.

هنا أجد براءة الطفل لدى حنّا مينه الذي أخذ الكلمة بحرفيتها ،ومن جهة أخرى تعجبه مما قالت والدته بأن يؤكل الخبز من عرق الجبين فشعر بأن هناك أمراً يجب فهمه، والتحقق منه لأن الصورة غير مقبولة بحرفيتها، وفعلاً وصل إلى فهم ما يريد من خلال مراقبة الفلاحين ثم العودة إلى الأم وطلب التفسير منها، وقد دلّت تلك الجملة على تعب العمال.

وفي إحدى الليالي وقع حادث مؤلم فقد كان خال السيد خريستو، وهو رجل غني يملك قسماً من الأراضي التي يبني عليها السيد خريستو مزرعته قد قدم من حلب إلى إسكندرونة في سيارته بصحبة زوجه، فنفرت فرس السيد أمام السيارة المسرعة فاصطدمت بها، وسقطت عن الجسر فقُتِل الخال وزوجه ، وكُسِرت ساق الفرس .

وقد تحدث عن تأثيرات الحادث بالسيدوأسرته والفلاحين فقال:" هذا الحادث هز السيد وأسرته وفلاحية والحوش وجميع من فيه ، كان وقعه مرعباً في أسرتنا ، وقد قصت الوالدة علينا النبأ بنبرة حزينة باكية ، ووصفت نقلاً عن الرجال كيف تحطّمت جمجمة القنصل..."[١]

ذهب الوالد في ذلك اليوم إلى المدينة لجلب غرض للسيد، ولذلك تجنب نقمة السيد عليه ورجال الدرك الذين جمعوا الفلاحين ،وضربوهم بالكرابيج حتى يعترفوا بالذي أطلق الفرس ،وشعر حنّا بكره للدرك أشد من كرهه لهم يوم ضربوا وأطلقوا النار على الفلاحين وقتلوا زنوبة، فقد كانت روح حنّا ثائرة على الظلم الذي يمثله الدرك في ذلك الوقت لأنهم لا يرحمون الفلاحين المساكين ، ويعاقبونهم دون وجه حق.

عند عودة السيد من حلب بعد تشييع خاله وزوجه جاء الدرك مرة أخرى، وأعادوا التحقيق فأدلى الوالد بشهادة تفيد أن الفرس كانت مربوطة بوتد حديدي اقتلعته عندما جفلت من صوت السيارة المسرعة ، والدليل على ذلك الوتد الحديدي كان عالقاً بمقود الفرس عند الحادث فغضب السيد من شهادته، وتجادل معه وقد خافت الوالدة من عاقبة الأمور، ولكن بعد أيام تصالح الوالد، والسيد لأن السيد لا يثق بالفلاحين ،ويريد منه أن يبقى في الحوش ففي موسم الشتاء تذهب عائلته إلى إسكندرونة ، ولا يأتي إلى المزرعة إلا أياماً قليلة في الأسبوع.

[١] المصدر السابق،ص١٧-١٨.

أحضر الوالد مجبراً للفرس فطلب أن تصنع تخشيبة، وهي عبارة عن أربع قوائم خشبية ،تُوضع الفرس داخلها ،لكن هذه التخشيبة لم تنفع، وساءت حالة الفرس ،وبعد أيام تورمت رجلها وتسلخ الجلد تحت البطن ، والفرس تتألم، ويظهر الألم في عينيها، وحركاتها والأم كانت تشعر بالحزن عليها حين تحمل إليها العلف والماء، وقد قطعت بعض أغصان نبات بري، وكلّفت ابنها أن يبعد الذباب عن الفرس فهي امرأة رؤوف بكل من حولها من كائن حي يحتاج المساعدة، وتقدم المساعدة بقدر ماديها من طاقة .

أُحضِر طبيب بيطري لرؤية الفرس فأعلمهم أن الأوان فات ، وأوصى بإطلاق النار عليها، وفي اليوم التالي أطلق الخواجه النار على الفرس فقتلها، وقد حزنت الأم عليها ، وبكت لما حلّ بها، ومنعت ابنها من الذهاب مع الآخرين الذين شهدوا الحادث .

- **دراسته في مدرسة أرثوذكسية، وانتقالهم إلى حي الصاز:**

أخبرتِ الوالدة ابنها بأنه سيذهب إلى المدرسة ، فقد قررت الذهاب إلى المدينة لتسجيله في المدرسة الأرثوذكسية ،ووعدته بشراء صندل له، وخياطة محفظة من قماش ورجت أن يصبح أديباً مجتهداً يشعِرها بالفرح وبالحديث عن كتابنا ثلاثة منهم درسوا في أماكن معينة فطه حسين درس في الكتّاب والأزهر،وأحمد أمين درس في الكتاب والأزهر ومدرسة القضاء ،وحنّا مينه درس في المدرسة الأرثوذكسية ،إلاّ مكسيم الذي لم يتعلّم في المدارس وكانت مدرسته وجامعته هي الحياة.

التحق بالمدرسة في الثامنة من عمره وكان ذلك اليوم مميزاً حيث قال : " ولقد كان أول يوم ذهبت فيه إلى المدرسة يوماً مميزاً في حياتي وذاكرتي ، كنت خائفاً إلى درجة الرعب ، كنت قروياً صغيراً يدخل المدينة لأول مرة ، وكنت طفلاً نحيلاً كشمعة تنوس حتى لتكاد تنطفئ مع كل هبة ريح ،وكان الاحتماء في حضن الأم يقي هذه الشمعة الانطفاء .."[1]

كان التعليم يبدأ ببصم الأحرف من الألف باء ...وبعدها يعلمونهم كتابتها كانت تقف الأم والأخت في منتصف الطريق تنتظران حنا لأن الطريق كانت طويلة بين المدرسة والبيت

[1] المصدر السابق،ص٣٦.

شعر باهتمام المعلمات به فقد منحته إحداهن بدل المرحى صورة أحد القديسين ،وعندما عرضها على أمه شعرت بفرحة كبيرة، والفرحة الثانية عندما أعطته المعلمة وظيفة كتابة بالحبر .

كان أفقر من كل الفقراء الذين في المدرسة، وبسبب ذلك عانى من أشكال الهوان فلم يسمح له بدخول الكنيسة يوم الأحد بسبب ثيابه البالية، ولا الخروج في الجنازات ،ولم يستطع دفع أربعة قروش للذهاب في رحلة إلى أنطاكية، وقد لاقى جراء ذلك عقوبة شديدة من المعلمة لأنها سألته عن سبب عدم دفعه أربعة قروش، ولم يرد وعاقبته ولم يجب ،وعندما اشتدت عليه العقوبة استأذن ابن خاله بالرد فأخبر المعلمة بأنه فقير، وأمه خادمة .

في ذلك اليوم رغب بالموت والرحيل إلى يسوع مع أمه وأخته الضريرة حتى يريحه من عذابه ، وبقي وقت الاستراحة في الصف فدخلت المعلمة ونادته فأقبل عليها، ومسحت شعره وقبلته ، ثم أعطته خمسة قروش ليشترك في الرحلة، ولكنه رفض، وعلمت بذلك مدى إحساسه المرهف، فصارت قريبة منه، وقبلاتها مسحت كل ما تبقى من آثار ضربها على جسمه، وصار يحمل لها باقة من الزهور يضعها على طاولتها .

قرر الوالد السفر بعد أن تخاصم مع السيد، وقد أمضى عاماً ونصف العام في حي الصاز في إسكندرونة أراد الوالد تغطية سطح الكوخ، وقد مرض بسبب الجهد الذي قام به في قطع العشب من المستنقعات ليغطي به السطح ، ويحميهم من مطر الشتاء ،عملت الوالدة خادمة فكانت تذهب في الصباح إلى ما بعد الظهر، ثم تعود إلى البيت ، وفي الغروب تعود إلى بيت مخدوميها لتقدم لهم العشاء .

كان يقع حي الصاز في منخفض في الطريق العام عند مدخل المدينة ،وكان يمتد من الطريق العام إلى البحر، وتكثر فيه النباتات المستنقعية ،وأرضه ذات رائحة نتنة تغمرها المياه في الشتاء وأغلب الصيف، وسكّانها مجموعة من الذين هاجروا من السويدية، أوطردتهم المدينة لفقرهم، وهم يعانون من الجوع والفقر ، ويعملون في تنظيفات المدينة وفي العتالة والميناء ومن بنى كوخاً عليه أن يحفر خندقاً حوله حتى تتجمع فيه مياه الأمطار، وفي الكوخ

أرضية خشبية مرتفعة على أعمدة، وتحت تلك الأرضية تعيش الجرذان والفئران والضفادع والأفاعي.

كان السكّان ينبشون قمامة المدينة المطروحة من شدة الفقر حيث يبحثون فيها عما يصلح للأكل أو الاستعمال ،وقد سيج الخواجه إسكندر أملاكه بسياج من الأسلاك، وبذلك حرم السكان من رزقهم في نفايات المدينة ،فقرر السكان الانتقام من الخواجه بالعصي والفؤوس والرفوش ،دارت معركة على التل ثم دخل السكّان المزرعة فكسروا واقتلعوا الخضار، وقطعوا الفواكه، لكن وصول الدرك أوقفهم فقد أطلقوا النار، وقتلوا رجلاً وجرحوا امرأة، وساقوا عشرات الناس إلى السجن،وهكذا بقيت الأسرة في اللواء عشر سنوات إلى أن دخلته تركيا عام ١٩٣٩ وتعلّم حنا في تلك السنين القراءة والكتابة، وفرحت أمه بذلك .

أجد أن الكاتب مرآة لعصره فقد تعرفنا على الأحداث السياسية من خلال كتاباته وتأثّره بها ومالها من دور في تغيير مكان سكنه فقد أمضى في ذلك المكان زمناً لايستهان به وهو عشرة أعوام لم يمضها في مكان قبله ففي أرسوز قرية الأكبر أمضى ثلاث سنوات فقط وقبلاً كان ينتقل بين فترة وفترة من مكان إلى أخرى .

أثّرت الأحداث السياسية على طه حسين كما أسلفتُ سابقاً فقد أخّرت الحرب العالمية سفره إلى فرنسا للدراسة خارجاً وعلاقته بعدلي باشا وسعد زغلول وحرمت الأحداث السياسية مكسيم من بعض أصحابه، وقد اعتقل أحدهم بليتنوف، وسبب ذلك أنهم وجدوا عنده قصعة يصنع فيها الحبر لطباعة المنشورات ضد القيصر، وكذلك الأمر أحمد أمين لم يكن بعيداً عن الأحداث السياسية من خلال ما ذكره عن الخلافات الداخلية وموقفه المؤيد لسعد زغلول ،ومشاركته في مؤتمر ذهب فيه إلى لندن حيث كان عضواً في وفد من ممثلي مصر في مؤتمر عن فلسطين سنة ١٩٤٦م

ومن خلال ذلك أجد أن هناك علاقات تقارب بين الأدباء من النواحي الاقتصادية، والسياسية ، والاجتماعية من فقر وجهل وتقارب في العادات والتقاليد وتأثير للأحداث السياسية عليهم وقد رأى الكاتب دانييل هنري باجو أن الأدب المقارن يبين علاقات التشابه والتقارب بين الآداب واشترط أن تعود إلى لغات مختلفة، ودراستي تعتمد على المقارنة بين أدبين

يحملان لغتين مختلفين حيث يقول:" الأدب المقارن هو الفن المنهجي الذي يبحث في علاقات التشابه والتقارب ، والتأثر وتقريب الأدب من مجالات التعبير والمعرفة الأخرى أو أيضاً الوقائع والنصوص الأدبية فيما بينها ، المتباعدة في الزمان والمكان ، أو المتقاربة شرط أن تعود إلى لغات أو ثقافات مختلفة تشكل جزءاً من تراث واحد من أجل وصفها بصورة أفضل ، وفهمهما ، وتذوقها .."[١]

مرض حنا يوماً، وغاب عن المدرسة، فطلب المدير منه أن يكتب عذراً لغيابه فبحثت الأم في القرية كلها، ولم تجد من يكتب لها إلا رجلاً واحداً يعمل في عتالة الفحم يستطيع الكتابة لها فقد كان يدعي معرفته الكتابة ،وعندما ذهب حنّا بالورقة إلى المدير لم يجد فيها إلا خرابيش غير مفهومة على الورقة الملوثة بالفحم، فقد كانت الأمية منتشرة في ذلك الوقت بشكل شبه تام .

كان حنّا مجتهداً في المدرسة، وعندما ترفّع إلى الصف الثالث الابتدائي عرض المدير إعفاءه من أجرة المدرسة على الجمعية الخيرية للطائفة، فوافقت لمعرفتها بفقره ولأن أمه وأخته خادمتان عند اثنتين من أعضاء الجمعية ،وقد كان اسم الوالد مسجلاً في قائمة الفقراء الذين يوزع عليهم الطحين والسمن والسكر في عيدي الميلاد والفصح ،ويتم التوزيع في بهو المدرسة .

كان حنا يتحرج من وقوف أمه في صف طويل مع النساء الفقيرات، ويبقى في صفه لا يخرج إلى الباحة يقول:" كنت أحبس نفسي في الصف خلال " الفرصة" كيلا أخرج فتراني أمي وتكلمني أو تعانقني أمام المعلمات والتلامذة ...."[٢]

حدثه يوماً أحد العمال: بأن الفقر ليس عاراً بل العار أن يخجل من كونه فقيراً فغير نظرته ، وجعله يرفع رأسه ويفتخر بنفسه وبأسرته ،وكانت المعلمة تعرف مدى حساسية حنّا من خلال الموقف الذي جرى في أثناء تسجيل الرحلة إلى أنطاكية ، ورفضه أخذ القروش الخمسة منها فكانت تعامله برحمة ولطف .

---

[١] -هنري باجو، دانييل ، ترجمة :د. غسان السيد،" الأدب العام المقارن "، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٧م،ص١٨.

[٢] مينه،حنا،"المستنقع".ص٩١.

قررت المعلمة يوماً السفر إلى أمريكا حيث تسكن خالتها ، وقبل أن تسافر انفردت به في الصف وأخبرته بذلك ،وطلبت منه أن يكون مجتهداً كما تعرفه وقالت له : إنه سيكون له شأن عظيم في المستقبل ، ثم قبلته فشعر بالسعادة لقبلتها، وشم رائحة أنثى غير أمه ، ورغب في معانقتها، ولكنه خجل ،فأدنت خدها من فمه، وطلبت منه أن يقبلها على وجنتيها فقبلها، وعند ذلك ارتعش واحمر وجهه وبعد سفرها بعام وصلته رسالة منها وكانت تلك الرسالة موجهة إلى زميلة لها تُعلّم في المدرسة وفيها ورقة صغيرة موجهة إليه .

تحركت مشاعره تجاه معلمته فرد عليها برسالة عاطفية كتبها في أسبوع كامل ورجاها في نهايتها أن تأخذه إليها ،وجاء جواب تلك الرسالة بأن خاطبته بلغة العقل تنهاه عن التفكير فيها على النحو الذي ورد في رسالته ،وتختم بأنه ما يزال صغيراً فتكدر من ذلك الرد وأحس بأول إخفاق عاطفي في حياته،وكانت تلك الرسالة آخر صلة له بالمعلمة ولكنه بقي يكن لها كل احترام وتقدير .

كانت هنا مشكلة تعاني منها النساء وهي مشكلة الحمل فلا يوجد موانع للحمل ،وطرق الإسقاط كانت مؤذية في أغلب الأحيان منها طريقة النكش في رحم المرأة من قبل الداية التي يمكن أن تؤدي في النهاية إلى أورام خبيثة ثم الموت وسبب ذلك كله الجهل والتخلف، حملت الأم التي كانت كسائر النساء تعاني من ذلك الأمر ، وحاولت الإسقاط بحمل أشياء ثقيلة ولكن دون جدوى، وكانت النساء يحاولن الإسقاط بسبب الفقر الشديد .

عندما أصبحت في الشهر السابع طلبت منها العائلة التي تخدم عندها أن تخدم ابنتها عنها حتى تلد لأن نشاطها قلّ بسبب حملها، فوافقت الأم على مضض لأنهم فقراء، وعمل الوالد لا يكفي ،وقد عرض حنّا أن يعمل مكان أخته لكن الأم رفضت لم يرغب حنا بعمل أخته خادمة، وأراد أن يذهب مكانها ولكن الأم رفضت يقول:" رجوت الأم ألاّ ترسل أختي إلى الخدمة في بيوت الناس، وقلت لها أنا أذهب مكانها ، فمسحت أمي على رأسي، وقالت ماذا يفعلون بك أنت ياصغيري ، أنت لا تعرف الكنس ولا الجلي ، ولن يقبلوا باستخدام صبي...."[1]

[1] المصدر السابق،ص١١٩-١٢٠.

قبلت الأخت العمل على أمل أن تعود بعد ثلاثة أشهر إلى البيت ،ولكن الأمر استمر مدة طويلة إلى أن تركت الأسرة اللواء، وقد كان حنّا يقدر عمل أمه وأخته فقد كانت تجلب الأخت الكبرى قبل أن تعمل الأخت الصغرى خادمة مكان والدتها يوم استراحتها له ولأخته أشياء طيبة تخبئها في منديل يمكن أن تكون زبيباً أو حبة جوز أو سكاكر .

أما الأخت الضريرة التي كانت تحزن الأسرة لأنها لم تبصر النور، وإذا مشت تتعثّر بما هو أمامها ماتت، وهي صغيرة بعد أن مرضت أياماً، ورأت الأم بأن ا قد رحمها ،واقتنع حنّا بأن موت الأخت كان راحة لها، بكت الأم وحنّا على الطفلة وبعد وفاتها بشهر ولدت الأم بنتاً، سليمة البصر، ففرحت العائلة بتلك الطفلة .

نابت أخته مكان أمها، ونالت رضى السيد وأهل بيته حسب ماروى خاله عبد ا الذي كان يعمل عند السيد، وكان الخال عطوفاً على ابنة عمه وهي أم حنّا ويناديها أختي وسبب عطفه عليها يعود إلى أن خاله رزق ا قد رباه عندما كان صغيراً ويتيماً.

كان عبد ا يحب الدهن وقد مات بسببه ،ويحب الشرب أما عمله فكان يدر عليه ثمن الخبز والإدام وبعض الثياب الرخيصة التي تخيطها زوجه وقد كان موسيقي الحي يضرب على الدربكة ،أحب حنّا السهر في بيت الخال لأنه يتصرف بحرية فيقفز عن التخوت إلى الأرضية، ويتضارب بالوسائد مع أبناء خاله ، يرمي الكرة المصنوعة من قصاصات الأقمشة التي تفصلها امرأته فيضحك الخال ولا ينزعج منهم .

كان في الحي زمار،والخال والزمار كانا يقومان ببروفات قبل عيد الغطاس ،وهو عيد تعميد السيد المسيح في نهر الأردن، وكان وقته في أوائل كانون الثاني ،وقبل شهر تبدأ المشاورات لإحيائه، وتُجمع النقود ويتكفّل الخال وامرأته بما يلزم من طعام وشراب ويحيي الحفلة الثنائي الموسيقي الخال على الدربكة والزمار وكانت الأغاني جماعية يشترك فيها الحاضرون جميعهم ،والفرحة تبلغ أشدها عند الخروج إلى عين الماء في سفح الجبل القريب ومن تلك العين يجري نهر كالساقية.

كان الخال يولي حنّا شرف حمل الأيقونة إكراماً لأمه ،ويجري الاحتفال عند بلوغ النهر ،وبعد الانتهاء من الدعاء يلقي بعض الناس أنفسهم في النهر ، ويكتفي آخرون بخلع أحذيتهم وجواربهم ، وبالنزول في الماء لتعميد سلال الفاكهة، ثم يعودون إلى بيوتهم فتوزع الأم الفاكهة على أبنائها وقد طلب حنّا من العذراء أن تغير حيهم لكنه لم يتغير.

تحدث عن ذلك مع شاب من الحي كان مسجوناً في حلب لكنه قال له كلاماً معناه أن الدعاء لا يكفي وحده، وعلى الإنسان أن يعمل بنفسه لتغيير الواقع حيث يقول:" لو كان الدعاء يغير أحوال الناس ،والأحياء لتغيرت منذ زمن بعيد ...أمك جاهلة ،أما أنت فابن مدرسة ،وعليك بدلاً من أن تطلب إلى العذراء أن تغّير الحي، أن تغيره بنفسك "...[1]

وسأله كيف يكون ذلك فأخبره أن يأتي إليه وسيجعله يقرأ في كتب تساعده على ذلك، وتلك الكتب غير موجودة في الأسواق .

جرى حادث فريد في حياة مينه من خلاله عرف المبغى الذي كان الأولاد يتحدثون عنه والنساء في الحي يذكرْن فتياته بأنهن فاجرات ساقطات معروفات من خلال لباسهن ومشيتهن ، والمساحيق التي يضعْنها على وجوههن .

حدث ذلك عندما شارك في احتفالات المرافع التي تسبق الصوم الكبير ، وقد اقترح عليه أحد رفاقه أن يذهب مع فريق طنوس الأبيض لأنه سيريهم أمراً عجيباً، فالفرقة اعتادت أن تبيت ليلة الأحد في المبغى العام ، وعندما علم حنّا أنهم في المبغى شعر بالخوف ، ولم يكن قادراً على العودة إلى البيت وحده فقرر البقاء بعيداً ، ورفض دعوة رفيقه بالدخول لم يعرف كيف انقضى الوقت في ذلك الجو الصاخب والرائحة الحادة والليل البارد وأخيراً غلبه النوم.

أفاق حنا فوجد نفسه في سرير غريب، وبقربه فتاة تبكي فأدرك أنه في المبغى، ويبدو أنها رأت فيه صورة شخص آخر عزيز عليها تحدثت مع حنّا عن وضعها بحزن فطلب منها أن تذهب معه، فأخبرته بأن الآخرين لن يقبلوا بها، إذا عرفوا أنها فتاة مبغى، وهنا تبرز

[1] -المصدر السابق،ص١٤٤

طيبة حنا وأمه لأنه أخبرها بأن والدته تقبل بوجودها دون أن يسألها فهو يعرف رأفتها وحنانها وتسامحها.

في ذلك الصيف جاء إليهم رجل من بلدتهم السويدية وقد قال عنه الوالد:بأنه فلتة زمانه يتقن الكتابة والحساب يدعى الكوزي وقد وصف حنا شكل الكوزي الجسدي بقوله" كان طويلاً محدباً ، مديد الذراعين ، كبير الكفين ، أصلع ذا جبهة مغولية ، وعينين صغيرتين شهباوين، وذقن نابتة وهيئة قذرة..."[1]

- **الثورة ضد البطالة:**

كان العمل في المرفأ يشكّل المورد الأساسي لكثير من الناس ، وعندما توقف العمل في المرفأ وسكة الحديد وشركة عرق السوس اشتدت أزمة البطالة في المدينة، ولاحت مجاعة مخيفة فقد بارت صادرات سورية من الحبوب ، والمحاصيل الزراعية .

نلمس من خلال كتّاب السيرة الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي مرت بها بلادهم فالحديث عن الأزمة الاقتصادية التي تمثلت في توقف تصدير المحاصيل أدى إلى البطالة ،وهذه البطالة أدت إلى الفقر وتردي الأوضاع الاجتماعية وذلك سيؤدي بدوره إلى وجود ثائرين على الأوضاع المتردية منهم فايز الشعلة،فالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كلٌ مترابط لا يمكننا الفصل بينها.

استفاد حنّا من تجربته الذاتية التي شكّل منها سيرته الذاتية في كتابة مؤلفاته، فقد صور في رواية" الثلج يأتي من النافذة" شخصية المناضل الثوري في حالة الكفاح السري، "مد حنامينه يده في روايته إلى حياته الخصبة الغنية فتوفر له بذلك عناصر النجاح ، عنصر التجربة والمعاناة."[2]

وكذلك الأمر بالنسبة لمكسيم الذي أخذ على عاتقه العمل على تنبيه العمال إلى حقوقهم فقد غذّى أفكاره روماس وغيره من الذين رأوا أن سعادة الشعب هي أسمى سعادة .

---

[1] المصدر السابق،ص٢١٤.

[2] سليمان ،نبيل ، ياسين، بوعلي،" الإيديولوجيا والأدب في سوريا "، الطبعة الأولى ،١٩٨٥ ، ص٣٨٠.

هاجم سكان حي الصاز حديقة محاطة بأسلاك شائكة فقصوها بمقارض حديدية واحتلّوها بالقوة ، فصارت الحديقة مكاناً تجمع مجموعة من العاطلين عن العمل يتردد عليهم شاب مناضل يدعى فايز الشعلة الذي كان يصغي أكثر مما يتكلم،وقد أعجب حنّا بشخصيته .

قيل في الحي أن فايز الشعلة كان يوزع منشورات ضد الفرنسيين ،ويعمل على طردهم ويريد توزيع أملاك الأغنياء على الفقراء ، قبض عليه الفرنسيون في مغارة في جبل معين وقد كان يعقد الاجتماعات مع رفاقه فساقوه إلى حلب، وحكموه بالسجن مدة سنتين ،وبعد ذلك عاد إلى إسكندرونة.

ازداد عدد العمال الذين كانوا يجتمعون في حديقة المنشية ،وكانت قصصهم مثيرة باعثة على النقمة على الاحتلال الفرنسي يتحدثون فيها عن عذاباتهم وطموحاتهم، وكان حنّا مسروراً بأقوالهم التي يستمع إليها ، لكن الناس في الحي كانوا يشكّون في قصصهم ،وقد رأى أن أصعب ما في النضال هو شك الذين تناضل من أجلهم .

بعد فترة طويلة عندما وقع كتاب مكسيم غوركي في يديه، وقرأ ما عاناه المناضل الثوري في العهد القيصري روماس من الفلاحين الذي حاول توعيتهم عرف الجواب عن ردة فعل الناس في الحي .

وقد وجد الدكتور ممدوح أبو الوي تشابهاً بين الشخصيات المناضلة لدى الكاتبين يقول:"تشبه شخصية فايز الشعلة في رواية "المستنقع " الشخصيات المناضلة التي أبدعها مكسيم غوركي، كان فايز الشعلة يناضل في سبيل استقلال الوطن من الانتداب الفرنسي أي كان يريد الحرية للشعب، ويدعو لإنشاء نقابات تطالب بحقوق العمال والفلاحين، وكان فايز الشعلة يحرض العمال على الإضراب..."[1]

اختفى فايز الشعلة نهائياً ، ولم تنجح مداهمات رجال الأمن الفرنسي لبيوت الحي في القبض عليه ، وقيل بأنه اختبأ في مغارات الجبل.

---

[1] أبو الوي د. ممدوح ،" الأسبوع الأدبي "، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد١٨٥٦- ٢٠١٠/٢/٦، السنة الثالثة والعشرون.

لقد كان حنّا يجهل في ذلك الوقت أن النضال مقترن بالوعي، وأن على الفقير أن يعي فقره، ويجهل أيضاً أن الرجولة لا تتوقف على قامات الرجال فشجاعة القلب هي الأصل والنخوة، ورفض الذل هما اللذان يجعلان من الشخص إنساناً مناضلاً يرفض الظلم ويقاومه .

وقد شارك حنّا في النضال منذ السنة الثانية عشرة من عمره فقد كتب على جذوع الأشجار اسماً لرجل ثوري حيث كان يرفعه الرجال على أكتافهم لكتابته، وهم بعدها يقومون بحفره بسكاكينهم ولو كان ما يفعله يبدو صغيراً، ولكنه كان تعبيراً عن تحدي المستعمر ورفضه .

ظهر فايز الشعلة بعد فترة ليقود مظاهرة تهتف ضد الفرنسيين والبطالة والجوع وكان على رأس هذه المظاهرة عمال المرفأ ،الذين تحدوا السلطة ، وقصوا الأسلاك الشائكة حول المدينة، وقد كان في المظاهرة إسبيرو الأعور الذي كان يدور حول الكّشافة ليضبط انتظام سيرهم ، والأمر المفرح أن المظاهرة عندما وصلت السوق بدأ أصحاب الدكاكين بإغلاقها .

كان ذلك أول إضراب في المدينة ترافق مع المظاهرة ،وقد اتجه المتظاهرون إلى السراي، وفي باحة السراي تكاثر رجال الشرطة ،وضربوا نطاقاً حول المتظاهرين ، وصعد فايز الشعلة على كتف أحد الرجال، وبدأ يلقي خطاباً،وإذا ذُكِر اسم الاستعمار كانت تتعالى هتافات يسقط وإذا ذُكِرت سورية تتعالى هتافات تعيش، وقد ظهر في شرفة السراي المستشار الفرنسي وبعض معاونيه، وقيل أن بينهم ترجماناً ينقل كلام الخطيب إلى اللغة الفرنسية .

قُبض في ذلك اليوم على فايز الشعلة عندما تفرقت المظاهرة مع مجموعة من المتظاهرين ، وانتشر الخبر في المدينة أن المعتقلين موجودون في سجن بالسراي وسيقادون إلى حلب ، فعاد الناس من الأحياء، واتجهوا نحو باحة السراي، وامتلأت الباحة بالناس ، وقد كان كثير من سكان الحي الذي يسكنه حنّا يشاركون في المظاهرة، وكانوا الأفقر بين سكّان الأحياء، والأكثر حماسة .

لم يكن لأغنياء المدينة أثر، والموجودون كانوا من العمال والفقراء بدأت الأصوات تعلوومطالبةً بإطلاق سراح المعتقلين وقد تقدموا أكثر من باب السراي ،لكن المستشار أمر رجال الشرطة، والحرس بمهاجمة الناس وهكذا تحولت المظاهرة عن نهجها السلمي، فوقعت معركة دامية وكانت مفاجئة للناس لأنهم كانوا عزلاً من السلاح، وقد وصلت قوة من السنغال وأخذت تطلق النار ،وراح المتظاهرون يتساقطون ، والدماء تسيل وكانت تلك أول معركة من نوعها يشهدها حنّا فكانت مأساة حقيقية .

وكما لدى مكسيم غوركي روايات منها "الأم"(١٩٠٦) ظهرت من خلالها الواقعية الاشتراكية كذلك الأمر لدى حنامينه فقد عد الكاتب عدنان بن ذريل رواية"المصابيح الزرق"حدثاً فاصلاً في تجربة الأدب الواقعي السوري حيث يقول:"لقد كانت المصابيح الزرق عندما صدرت في أواسط الخمسينات حدثاً أدبياً فاصلاً في تجربة الأدب الواقعي في سورية العربية....إذ إنها نبهت النفوس إلى مصادر الإلهام في البيئة الشعبية، والحياة الشعبية أيضاً..."(١)

فالرواية صورت واقع العمال الذين يتحكم بهم أبو رشيد ، و ماواجهوه من معاناة إلى أن قرروا تأليف نقابة لهم وظلّ الطروسي يناصرهم.

وفي اليوم التالي شيعت المدينة قتلاها وساد الحزن الأجواء نظر الناس إلى أماكن فايز الشعلة وأصحابه فوجودها خالية، وظلّ إسبيرو الأعور يؤكد بأنهم سيرجعون ،وأن فرنسا لن تبقى هانئة ، الثورة ستشتعل في مكان ما من سورية ولكن كلماته لم يكن لها تأثير كالسابق كان وحيداً أمياً يحمل هم أهالي الحي.

ظهر شيء من نشاط في حركة المرفأ أواخر الصيف، فعاد قسم من رجال الحي للعمل في المرفأ وسكة الحديد تحدث عن ذلك فقال: " أواخر الصيف ذلك العام طرأ شيء من نشاط على حركة المرفأ صادرات القمح السورية استأنفت شحناتها البحرية في فرنسا وعاد قسم من رجال الحي إلى العمل في المرفأ وسكة الحديد...وانحسر كابوس الموت" (٢)

---

[١] بن ذريل، عدنان،" الرواية العربية السورية "دراسة نفسية في الشخصية وتجربة الواقع، دمشق،١٩٧٣، ص١٦٢.
[٢] مينه، حنا، "المستنقع"ص٣٦٥.

ولدت الأم بنتاً وكانت تتألم لأنها تلد بناتٍ

وفي الخريف انتقل في بدء العام الدراسي من المدرسة الأرثوذكسية إلى المدرسة الرشدية ،وقد ترفع إلى الصف الرابع ،كان مدير المدرسة تركياً من اللواء متخصصاً في التاريخ ،أما معلّم اللغة الفرنسية فهو شاب أرمني أعرج يحب اللغة والرياضة ،ومعلم اللغة العربية الأستاذ أحمد من حلب درس في القاهرة مفعم بالروح العربية.

كان شكل حنا الجسدي لا يساعده على ضبط الطلاب فقد كُلّف عريفاً لنيله المرتبة الأولى ، ولكن طالبين ساعداه في ضبط الطلاب ، فاستطاع بذلك التغلب على تلك العقبة .

- **سفره مع الوالد إلى سهل العمق لجمع سنابل القمح:**

في موسم الحصاد رحل الوالد ومعه مجموعة من أبناء الحي إلى سهل العمق لجمع سنابل القمح، وبيع الحلوى مع أن الوالدة حاولت إقناعه بعدم الذهاب ولكنه رفض لأن رغبة الرحيل عاودته،وقد أغرى حنّا ركوب السيارة ،فطلب من الوالد اصطحابه معه، وخالف بذلك رغبة أمه.

بدأ العمل باقتلاع شجيرات العدس اليابسة ،وكان ذلك العمل لا يكلفهم عناء، وقد تحمس حنّا لذلك حذره الوالد من إجهاد نفسه، وأن يضع منشفة على رأسه لتحميه من الشمس ولكنه لم يلتفت للنصيحة، وعند الظهر شعر بألم كبير في كفّيه ،فأمره والده أن يستريح وفي اليوم التالي انقطع عن العمل لأن رئيس العشيرة الذي سهر الوالد عنده علم بأن حنا يقرأ ويكتب فطلب منه أن يقرأ له أي شيء يسليه فقرأ له كتاباً صغيراً للأغاني المعروفة في ذلك الوقت ،وقد أخبره والده في طريق العودة إلى الكوخ بأن الشيخ طلب أن يعطوه حصته دون أن يشتغل ومن حسن حظه أنه أحضره معه.

بعد الانتهاء من حصاد العدس ،والحمص بدأ أوان حصاد القمح فذهب الوالد لجمع السنابل،وقد أوصى الشيخ بحنا أن يجمع السنابل من حيث يشاء ،وفجأة قرر الوالد أن يعود

إلى قريته ، فسار وسط البراري والشمس كانت محرقة ،عطش حنّا ولم يكن لديهما ماء، وقاوم عطشه ولكنه بعد فترة انهار.

أخذ الوالد يبحث عن الماء ، ويشجعه بكلمات رقيقة أن يقاوم العطش ويصبر لأنه سيعثر على الماء وفعلاً عثر عليه في قاع حفرة فيها سلاحف فسقاه الماء الملوث بالوحل حتى ينقذه من الموت، وبفضل ذلك استعاد نشاطه، وسارا إلى أن وصل إلى الضيعة وبعد هذه الحادثة أحب حنا والده ، ومال إلى التسامح معه ،وقد فرحت الوالدة بعودتهما إلى البيت وهما يحملان بعض مؤونة الشتاء .

أخبرت الأم زوجها بأن أسيادهم سيذهبون إلى مصيف صووق أولوق ، وطلبوا أن تذهب معهم فقّرر الوالد أن يذهبوا جميعاً.

- **عمل حنا في المقهى لدى يورغو:**

عمل حنا حمالاً مع بعض الأولاد الفقراء الذين كانوا ينتظرون عند مدخل المصيف ليحملوا حقائب الركاب وكان حظه قليلاً بسبب حيائه، وضعف بدنه ولم يوفق في ذلك إلا ظهراً حين كانت تكثر السيارات القادمة من المدينة، وفي ساعات العطلة بين الضحى والظهر كان يعرض خدماته على صاحب المقهى ، وهو رجل يوناني يدعى يورغو فيغسل الصحون أو يحمل النار للأراكيل ، أو يذهب إلى البيت يحضر له ما يحتاجه منه .

وفق في ذلك المكان ، ووجد أنه بمقدار ما في الحياة من أشرار فيها أخيار ، وكان يورغو من بين الأخيار الذين ساعدوا أمه حين توقفت عن العمل لأنها أصيبت بالروماتيزم حيث يقول :"يورغو كان من هؤلاء الأخيار ، عاملني كأخ صغير كابن ، كقريب ، وطلب إلى أن آتيه بوصفات الدواء لأمي كي يشتريها لي ، كان يسمح لي أن أذهب إلى البيت عدة مرات في اليوم لأتفقدها ، يشركني معه في طعام الظهر الذي أحمله له من البيت ، ويعطيني أجري في المساء ...."[١]

[١] مينه، حنّا، "المستنقع" ،ص٤٠١.

تعارك رئيس الندل مع أحد السائقين فسجن، فكلّف يورغو حنا بتلك المهمة وأخبر العاملين أنه أصبح رئيسهم ،وهو نائب عنه ،وقد شعر بفرح شديد ، وكان يشتري الأغراض والهدايا لأخته ، ويعطي الوالدة بعض النقود التي يحصل عليها من الحلاوين فتدعو له أمه بالتوفيق، وكان يوزع بعض ما يناله من الحلاوين على العاملين الذين ضايقوه في بداية الأمر، فصبر عليهم وبذلك كسب حبهم .

طلب يورغو في المساء من حنّا البقاء في المقهى لمراقبة الطريق لأن في الداخل زبائن من نوع آخر، وهم المقامرون وإذا رأى الدرك يحذر يورغو فيخفي الفيش والورق ،وفي أحد الأيام جاء رئيس جديد لمخفر الدرك فتعرف بيورغو، وتفاهم معه وبذلك أعفى حنّا من المراقبة، وقد منع يورغو دخول الندل غرفة القمار وسمح بدخولها لحنامينه .

طلب شاب من حنّا أن يوصل رسالة إلى امرأة، وحذّره ألا تقع في يد أحد وخاصة زوجها ، ولكن حنّا بسبب الفضول فتح الرسالة لأنه لم يكن يعرف ماذا يقول الرجل للمرأة في الرسائل، وقد أججت الرسالة مجاري تفكيره الجنسي ، وعندما وصل بيتها فتحت له الخادمة، فطلب مقابلة السيدة التي كانت تستحم وبعد فترة خرجت إليه وعلى جسمها روب حريري وكان جوابها : إنها ستذهب فوراً .

حين قدمت إلى المقهى كانت تلبس ثوباً يكشف عن صدرها ، ويجعل من ينظر إليها ينسى نفسه ، وكان ورق القمار بين يديها فأكثر حنّا من الدخول إلى غرفة القمار حتى يراها. ويخطف نظرة من صدرها، وكانت تبدو كملكة ذات هيبة وجمال، ولا يستطيع أحد المساس بكبريائها.

وصف جمال المرأة وكبريائها لدى حنامينه يشبه وصف المرأة التي لقبها مكسيم غوركي بالملكة مارغو كانت ملكة من الداخل والخارج فهي جميلة ومثقفة فقد أظهر الاثنان مدى رقة وجمال وجاذبية ونعومة وكبرياء المرأة في هاتين المرأتين اللتين مرتا في حياتهما، لكن هذه المرأة مرت في حياته مروراً عابراً لم يكن لها تأثير فيه أما مكسيم غوركي فقد كان للملكة مارغو تأثير في حياته، ودعم حبه للقراءة من خلال الكتب التي كانت تقدمها له.

لكنه جرى حادث مع المرأة التي وردت لدى حنا الذي تنافى وجلال الصورة التي رسمها لها في خياله بعد أن خسرت خسارات متلاحقة في القمار، وأفلست تماماً فانسحبت إلى غرفة مجاورة وأخذت ترجو ذلك الرجل الذي حمل حنّا الرسالة إليها حتى يعطيها بعض المال ،وقد قامت بحركة تشبه الركوع على الرغم من ذلك رفض طلبها فلحق صورة مليكته شيء من عطب وانشرخت في نظره.

وفي نهاية أيلول فرغ المصيف ،وطلب يورغو من حنّا العمل معه في مقهى له في المدينة لكنه رفض بسبب المدرسة، وقد اقترحت الوالدة بعد العودة إلى الحي أن تبدل القش الموجود على سقف البيت بالقرميد الأحمر ، وذلك من المال الذي جمعه حنّا من عمله في المقهى .

صارت إسكندرونة مسرحاً لأحداث متواصلة ، وحاول عرب اللواء أن يمنعوا كارثة التتريك ،وقد سعت فرنسا إلى إعطاء اللواء لتركيا فقال حنا في ذلك:" كان الانتداب الفرنسي قد قرر ، بالتواطؤ مع دول أخرى أن يقتطع اللواء من جسم سورية . ويعطيه لتركيا، وكانت سورية وهي محكومة بهذا الانتداب ، تناضل بغير جدوى لإحباط المؤامرة ،وهكذا غدا اللواء مسرحاً لصراع سياسي ..."[1]

قامت المظاهرات الرافضة لذلك الوضع ، وذات يوم أُعلِن أن الجيش التركي سيدخل اللواء ودخل فعلاً ،وكان على السكان أن يختاروا الهجرة، أو البقاء وقد اختار أهل حنّا الهجرة إلى اللاذقية .

يبين سمر روحي الفيصل تفاعل حنامينه مع قضايا الشعب عندما سلِخ لواء إسكندرونة من سوريا ولكن بشكل مقتضب يقول: "حرصت "بقايا صور" "المستنقع" على التعبير عن الروح الشعبية للفترة السابقة على ضم لواء إسكندرونة إلى تركية عام ١٩٣٩،إلاّ أنهما ضيقتا منظارهما فلم تتمكنا من تحقيق الشمولية في التعبير عن هذه الروح..."[2]

---

[1] المصدر السابق،ص٤٣٣

[2] الفيصل ،سمر روحي،" الاتجاه الواقعيّ في الرواية العربية السورية" ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ،٢٠٠٠ ،ص٤٢٩

- **الهجرة إلى اللاذقية:**

قبل الهجرة إلى اللاذقية بثلاث سنوات حصل حنّا على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٦ وقد زاول أعمالاً أخرى بعد أن ترك المصيف ومن تلك الأعمال عمله في المرفأ ،وأجيراً في دكان لتأجير الدراجات ، ثم أجيراً في دكان حلاّق، وقد كتب رسالة إلى ابن عمه في اللاذقية يسأله فيها إذا كان يستطيع العمل في اللاذقية إن هاجر لكنه أهملها .

كُتِب على العائلة الهجرة من مكان إلى آخر من اللاذقية إلى السويدية ومنها إلى قرية الأكبر في ريف أرسوز،وقره أغاش وحي الصاز في إسكندرونة وفي كل مدينة أو قرية يمضون سنوات ،وخدمت الأم في بيوت الناس، وكذلك أختاه ،ورحل الوالد من مكان لآخر وكان يعود كل مرة خائباً، عانت الأسرة من الفقر والجوع والمرض ،وبعد أن صار لهم بيت في إسكندرونة بسقف من القرميد الأحمر سِلِخ اللواء فعرضوه للبيع ولكن لم يقبل أحد أن يشتريه فعمدت الأسرة إلى تكسير قرميده ليلاً، وتخريب حيطانه، وقد كان شعوراً قاسياً على الأسرة، وعد حنّا تخريب بيته كمن يخرب دورته الدموية.

كان الأسى يقطر من الأصابع دون أن يراه الآخرون ، وهذا الإحساس المرهف جعل من حنّا إنساناً مبدعاً، والذي زاد في رهافة حسه الآلام التي واجهها في حياته وهذه نقطة مهمة،اشترك فيها كتّابنا جميعاً فالألم والفقر والمعاناة لازمتهم منذ الصغر طه حسين وآفة العمى التي غمست حياته بسواد دائم فالليل والنهار عنده سواء ،أحمد أمين إرهاق والده له في الدراسة جعله يشيخ قبل الأوان، وأيضاً مشكلة ضعف البصر وعدم نيله الدكتوراه بسببها ،ومكسيم الذي فقد والده في بداية حياته ، وأمه التي تغيب وتظهر في حياته والفقر وعمله وما عانى فيه من مشاق ،لكن الظروف القاسية التي مر بها كتّابنا والتي كانت كليل مظلم انجلى عنه نهار مشرق من خلال ما أبدعوه من كتابات متميزة أنارت لهم ظلام معاناتهم من ألم وجوع وفقر ، وأفاد الناس من تجاربهم وما واجهوه من معاناة تخطّوها بصبرهم ورجاحة عقولهم .

وقد أورد الدكتور عبد الرزاق عيد الحوار الذي جرى مع حنامينه عند ماتحدث عن سيرته يقول حنا:"لقد دونت كثيراً من وقائع حياتي في روايتي "بقايا صور"و"المستنقع" والشيء

البارز، الذي كان سائداً في العشرينات، والثلاثينات من هذا القرن، أن أحداً لم يكن يقرأ أو يكتب في القرى والأحياء الفقيرة التي سكناها،وكان لي أعمام في اللاذقية..."[١]

عند وصولهم إلى اللاذقية اضطروا إلى المبيت في المقبرة وأخرج الجميع ما تبقى من زواداتهم لطعام العشاء ، وبعد ذلك تحدثوا عن الظروف السيئة والهجرة، أما حنّا فكان فاقداً لشهيته يخالجه شعور أن تنشق القبور، ويخرج منها الموتى بأكفانهم، وفي أيديهم جماجم.

كان الأب ينتظر أخاه الذي لم يره منذ أربعة عشر عاماً ، وكانت زوج أخيه متفاجئة من أعداد المهاجرين التي لم تستطع استقبالهم في بيتها لكثرتهم ، وقد اعتذرت من الأم فأجابتها الأم أن العدد كبير والمقبرة بالنهاية هي بيتهم الأخير ، وبعد انتهاء السهرة في منتصف الليل نام الجميع حيث وجدوا مكاناً يسندون فيه رؤوسهم إلا امرأة اسمها غندف وهي أرملة وتبدو مقيتة غير مبالية بشيء تتحشّر بالوالد وقررت النوم بعيداً بحجة أنها لا تستطيع النوم بسبب الشخير، والوالد الذي أراد أن يقوم بجولة على البحر قبل أن ينام.

شعر حنا في تلك الليلة بإرهاق عصبي و تمنّى أن يرقد في المقبرة مع الراقدين ولا ينهض أبداً، وقد شعر بالأرق بسبب أفكاره الكثيرة، وعندما غفا استيقظ على همس خائف صادر عن والده والمرأة غندف، فظن للوهلة الأولى أن سكّان القبور خرجوا يتسامرون، وينظرون في أحوال الناس كما تقول الحكايات، ولكن عندما رفع رأسه من فوق القبر شاهد والده مع غندف في وضع مريب، وقد أزعجه الموقف الذي كان الأول من نوعه في حياته، فكره الوالد وغندف ، وأفاقت الوالدة التي بكت في تلك الليلة الأولى للهجرة، ولكن لم يعرف أحد ما جرى لأن الوالدة كانت تتحمل الألم، وتسكت دون أن تُشعِر أحداً به .

وقبل أن ينتاب حنا الإرهاق العصبي نظر إلى السماء التي غذت روحه، وأدخلت السرور إلى قلبه فتفتق من ذلك وصف في غاية الروعة يقول حنا :" أذكر تلك الليلة جيداً كان القمر في تلك الساعة المتأخرة قد توسط تقريباً السماء الصيفية البلورية ،وصب من قرصه الفضي نوراً باهراً على الكائنات ، لم يكن فرحاً ولا حزيناً ، كان يتكلم مع الجميع بلغة ، ويكلمني بلغة ، أحسسته منيراً ، جميلاً ، بدراً على نحو أخّاذ ، كان ليلة أمس على مثل

[١] عيد، د. عبد الرزاق، في "سوسيولوجيا النص الروائي "،الأهالي للطباعة والنشر، لبنان، ١٩٩٥، الطبعة الثانية، ص٨١

سطوعه هذا ، ونحن في إسكندرونة، مدينتنا التي فارقناها خيّل إلي أن القمر هاجر معنا بدوره ، وأنه يحبني إلى حد أنه لحقني في تلك الدرب الجبلية المشجرة ، المتعرجة ، الطويلة ..."[1]

وقد برز الوصف لديه في أسمى حالاته، وهو طفل في الثانية عشرة من عمره حيث صور القمر وكأنه إنسان له مشاعر وأحاسيس، ويتميز بجمال أخّاذ ويتمتع بالوفاء عندما ترك إسكندرونة لحق به لأنه يحبه فظهر من خلال ذلك خيال الطفل الواسع الذي جعل منه كاتباً .

كان بحثهم في اللاذقية بعد هجرة لواء إسكندرونة عن منزل مقتصراً على الأحياء الفقيرة بسبب فقرهم يقول:" طفنا خلال أيام ثلاثة الأحياء الفقيرة كلّها ، أما الأحياء الغنية فلم نقربها...ماذا لدينا فيها؟ عم سنسأل هناك ؟ أية وجوه معراة من الرأفة ستطالعنا ونحن نعرض، لا فقرنا وحده، بل هجرتنا أيضاً ؟ " الفقير كما تقول أمي يحن على الفقير ، أما الغني فيشمت..."[2]

حصلوا على بيت في حي القلعة بعد بحثهم مدة ثلاثة أيام ،استأجروا غرفة في دار قديمة كانت الدار في زقاق يتفرع من شارع فرنسا عند دكان المختار، ويتجه نحو حي العوينة مقابل مقهى يزبك ولم تكن دارهم بعيدة عن الدار التي استقر في إحدى غرفها بيت خاله ، كانت الدار رطبة، معتمة، الساكن يحتاج إلى ضوء في النهار، وإلى مد رأسه من الباب لاستنشاق الهواء .

كان من الواضح أن ذلك البيت سيكون بيتهم إلى وقت طويل ، وعليهم أن يعتادوه ،وألاّ يزيدوا في حسرة الأم، فالليرة السورية التي كانوا يدفعونها أجرة يقتطعونها من لقمتهم ، ومن الصعوبة في اللاذقية أن تعود الأخوات إلى الخدمة في بيوت الناس، لأن الخادمة تدعى صانعة، وسمعتها تتأثّر بذلك ، لذلك لم يكن هناك حيلة للعيش سوى أن تعمل الأم والأخوات أيضاً في الريجي.

جاءهم بعد يومين كيس طحين من عمتهم التي تسكن المدينة وكانت حالها ميسورة أما عما حنّا فكان الأول يعمل في الكازينو، والثاني يعمل معمارياً، وهما يعانيان من الفقر،

---

[1] مينه، حنا،"القطاف"، ص٢٢-٢٣
[2] المصدر ذاته ،ص٤٣.

عمل حنّا في متجر ديلاكي آنذاً يقضي حوائج المكتب ،وبيت المعلم ،ويرد على الهواتف ، وكادت الأمور تتحسن لولا إعلان الحرب العالمية الثانية ودخول فرنسا فيها فدعي السيد ديلاكي، وهو كابتن متقاعد إلى الخدمة العسكرية، وبذلك أُغلِق المحل .

ونجد هنا أن الحرب العالمية الثانية أثّرت على حنّا مينه فقد كان يعمل، ويبدو أن عمله كان يدر عليه ربحاً لابأس به، وبسبب الحرب عاد إلى الضياع الذي كان عليه، وكذلك الأمر الحرب العالمية الأولى أجلت سفر طه حسين إلى فرنسا للدراسة.

جعلت الحرب وهي حدث سياسي وتاريخي حنّا يعيش في تمزق روحي، وشعر بأنه كبر أعواماً ، وأدرك ما هي صعوبة أن يكون رب البيت عاطلاً عن العمل ومورد الرزق مقطوعاً ، بعد تلك البطالة.

في تلك الأيام الصعبة عرف اللاذقية معرفة ستكون مفيدة له في المستقبل فقد كان يذهب صباحاً من البيت، ويسير في الشوارع من دون تحديد، فيصل إلى أحياء الشحاذين، والصليبة، والموارنة حتى يصل المستشفى الوطني ، ومن هناك يواصل السير إلى عمود القديسة ألكسندرة .

كان يشرف على الرأس الصخرى الذي يطل على البحر، فيجلس ويراقب حركات النوارس فوق الموج ، كان يتشبث بالبقاء هناك كيلا يرجع إلى البيت ،وينظر في عيني أمه الحزينتين ،وفي عيون أخواته الفارغة ، لكنه يعود وقت الظهر إلى البيت حتى لا تشعر أمه بالقلق عليه كل ذلك جعل نقمته تتفجر على الزمن الذي أراد له أن يكون نحيلاً إلى هذا الحد وعلى الأب الذي أنجبه بهذا الضعف ، وعلى أمه التي عالجته في صغره، وحالت بينه وبين الموت .

كان ساخطاً على نفسه ، فاقد الثقة بقدرته فإذا حلّ وقت الظهيرة خرج من البيت ليكتشف نصف المدينة الثاني ، مجتازاً حي العوينة إلى الشيخ ضاهر ومنه إلى حي الأميركان، فالبحر وهناك يمشي على الشاطئ حتى السجن، ويصعد إلى عين أم إبراهيم ، فيبلغ البراري ويتوغل فيها.

عرفنا حنّا هنا على جغرافية اللاذقية في ذلك الوقت من خلال ذكره للشوارع والأحياء وكل ما مر به فكتّاب السيرة لم يتحدثوا عن أنفسهم فقط بل عن كل ما يحيط بهم من أحداث تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية وهذا ما لمسته لدى كتابنا قد أوردت هذه التفاصيل سابقاً وسأوردها لاحقاً .

كان حنّا يتساءل عن سبب ذهابه إلى البراري والبحر والشوراع، وابتعاده عن الناس وقد رأى أن ذلك يعود إلى رغبته في التفكير بالناس، وبنفسه من خلالهم، وقد كان القاسم المشترك بينه وبين الناس الحياة الشاقة الخالية من الفرح .

وقد أشار الدكتور ماجد علاء الدين إلى وجود تشابه بين شخصية حنامينه، ومكسيم غوركي رأى أنهما صورة مصغرة عن شعبيهما في تلك الفترة التي عاشاها يقول: "وإذا دققنا في شخصيتي ألكسي بيشكوف (مكسيم غوركي)الشاب،وبين حنامينه أيام طفولته، كما صورها لنا في روايتي "بقايا صور"و"المستنقع" لا تضح لنا الكثير من التشابه في مصيري الكاتبين ...وكان كل من الكاتبين صورة مصغرة عن تطور شعبه خلال جيله..."[١]

أعاره ابن خاله كتاباً يتحدث عن اللاذقية ،وقد فرح لذلك كثيراً ، وكان يقرؤه على البحر وفي البرية، وقد عرف من خلاله تاريخ اللاذقية ومواقع جغرافية في المدينة، ولم يكن يدري أنه سيكتب يوماً وكانت تلك المعلومات أشياء للتسلية ،وقد نهته أمه عن كثرة القراءة على ضوء فانوس الكاز حتى لا يؤذي عينيه .

أجد هنا أن كتابنا بشكل عام كان لديهم نهم للقراءة منذ الطفولة فهاهو حنّا الذي كان يصطحب الكتاب إينما ذهب، ويعده أثمن الأشياء بالنسبة إليه وقد حذّرته أمه من كثرة القراءة من أجل عينيه، ومكسيم الذي لُقّب بحشرة الكتب، وكانت أجمل أوقاته عندما يقرأ، وأغلب قراءته كانت في الليل ،وكان أحمد أمين يقضي قسماً كبيراً من وقته في الدراسة وكذلك طه حسين الذي تميز بحسن إصغائه إلى من يقرأ له.

---

[١] علاء الدين،د.ماجد ،"الواقعية في الأدبين السوفييتيّ والعربيّ"، دمشق، الطبعة الأولى ،١٩٨٤ ، ص٢٣٤.

في اليوم التالي ذهبت العائلة إلى ريف اللاذقية لتعمل في جمع الزيتون، وكانت تلك المرة الأولى التي يذهب فيها إلى ريف اللاذقية ، كان عليهم أن يحرسوا الزيتون لأن أصحاب كروم الزيتون تخشى أن يسرقه الفلاحون .

تحكم الإقطاعي بالفلاحين، واستغّل جهدهم وتعبهم واضطهدهم ،وقد أورد الدكتور فؤاد المرعي ذلك، يقول:"كان الإقطاعي في الريف سيداً اقتصادياً وسيداً اجتماعياً يستمد قوته من حراب المحتّلين،وكان الفلاح يرى ويلمس عظمة السلطة الاجتماعية التي دعم بها الإقطاعي في كل مجالات الحياة فهو عين السلطة الفرنسية في الريف،ويد الاستعمار المنفّذة لمشاريعه..."[١]

وكانت العائلة تقيم في طرف من الكرم، تحرسه ليلاً نهاراً مقابل واحد بالعشرة مما تجنيه من الزيتون عندما ينضج ،والذي رشّحهم لهذا العمل أبو نعمة، ولقبه المطعون ، وقد كان يعمل محاسباً يقوم بوزن الزيتون المرسل إلى المعصرة، ويسجل عنده الأرقام ، ويقدمها كل مساء إلى الشوباصي .

خرجتِ العائلة إلى ريف اللاذقية ، وكان خوف الأم من المجهول يتضاعف، وقد عاودها خوفها المرضي ، فهي تحسب حساب الليل ، وما فيه من ظلام ورهبة، وتفكّر بالكوخ الذي ستقيم به،وأشجار الزيتون التي تتحول في العتمة إلى أشباح وسبب ذلك معاناتها من ليالي السويدية، وخشيتها أن تتكرر المعاناة لأن الوالد كان يرحل، ويتركها مع أولادها الصغار في حقول التوت تحت رحمة المختار .

- **العمل في ريف اللاذقية في قطاف الزيتون :**

عندما وصلت الأسرة إلى البورة توقف كل من كان فيها ،وردوا تحية الوالد وحيتهم الوالدة ، بلطف ، ثم ذهب الوالد إلى الوكيل يستفسر منه عن الترتيبات التي عليهم اتخاذها أُعطِي الوالد خيمة لينصبها في المكان الذي سيحرسونه، وقد أسرع رجلان لمساعدة الوالد حيث مهدا التربة تحت زيتونة ضخمة، وأزالا الأحجار من الأرض، واقتلعا الشوك، ثم بسط

[١] المرعي ،د. فؤاد ،" في تاريخ الأدب الحديث" "الرواية القصة –المسرحية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ، حلب ،١٩٨٣، ص١٤٤.

مجموعة من الرجال الخيمة، وربطوه في الزيتونة من أعلى ،ودقّوا الأوتاد ثم شدوها بالحبال تحت ذلك الخيمة تخلصوا من شعور البطالة، والبيت المعتم والانكسار .

أبو إسكندر الشوباصي رجل في الستين مع عمره عريض المنكبين رحب الصدر كان مشهوراً بصلابته، وقد حضر إلى البورة في أول يوم لقدوم العائلة، وحضوره أثار الخوف في نفوس الفلاحين والعائلة حيث يقول حنا: " نهضتِ الوالدة من فورها ، توقفنا نحن عن الطعام ، وضعنا أيدينا على قلوبنا لم نكن نقدر أن الشوباصي سيأتي من الليلة الأولى لوصولنا ، لم يدرْ في خلدنا أنه على هذه الخشونة، وأنه سيحاول إهانة الوالد أمام الوكيل والفلاحين وأمامنا.."[1]

طلب الشوباصي من الوالد أن يحذره لكن الوالد رد عليه بأنه جاء ليعمل ولاحق لأحد عليه إلا إذا قصر فيحاسب كانت عاطفة حنّا متناقضة تجاه والده فهو يحبه لجسارته العفوية ويكرهه لعدم توقفه عن الرحيل والسكر والعشق ، ولم يخضع الوالد للشوباصي، ولم يتملقه.

تدخلتِ الأم في الحديث فانتهرها الوالد ، وعد الكلام للرجال، وقال الوكيل بأنهم سيتحدثون، وهم يشربون القهوة فرد الشوباصي بأن الوالد لم يدعه إلى القهوة، وكان جواب الوالد بأنه لم يترك له مجالاً حتى يدعوه، وطلب من الوالدة أن تعد القهوة ، بعد أن أعدت الوالدة القهوة جلست مع حنّا في مكان ما يشبه الظل المتشكل من نور اللوكس ،وأخذ الوالد يتحدث ،وقد كان بارعاً في رواية الأحداث، والتجارب التي مر بها ، تحدث عن خدمته العسكرية في بر الأناضول، وعن هربه الدائم، وما واجه من صعاب في حياته.

أعجب الشوباصي بذلك ، وقد تغيرت تعابير وجهه شيئاً فشيئاً ،وأخذ يضحك باقتصاد ،وبقي هكذا إلى منتصف الليل فقرر الذهاب، وشكر الأم على القهوة وأخبرها بألا تتقيد بالصف، وتلحق الشجرة الحامل وتقطفها جيداً ، وأشار إلى الوكيل بألاّ يتشاطر عليهم بالوزن .

استيقظتِ العائلة في الفجر على رنين أجراس الجمال ، وخرجت للقطاف فانتقت بقعة صالحة ، كانت أرضها غير مفلوحة لا أثلام ولا أشواك فيها، فاقترح الوالد أن يبدؤوا بها

[1] - مينه، حنا، "القطاف" ، ص٨٤.

وافقتِ الوالدة، وكانوا مشتاقين للعمل ليقضوا على الشعور بالبطالة، ويستعيدوا عافيتهم النفسية التي لن تتحقق مادام الفكر مشغولاً ، تناول الوالد مرواطاً، وأخذ ينبر ولم يترك الوالدة تجمع الزيتون حتى انتهى من نبر الشجرة كاملة نبر الوالد ثلاث زيتونات، وعاد لحراسة البورة وبدؤوا بجمع الزيتون من الطرف حتى تُنظف الأرض جيداً لأن الشوباصي سيأتي للكشف وفي حال اكتشاف الهدر، أو عدم النظافة سيطردون من البورة والعمل كلّه .

طلبتِ الوالدة من حنّا أن ينبر زيتونة جديدة عندما أوشكت على الانتهاء من الزيتونات الثلاث التي نبرها الوالد ، واعتقد حنّا أن النبر رياضة ولكنه كان عملاً شاقاً فقد أنجز نبر الزيتونة وشعر جراء ذلك بتقلص في عضلتي الساعدين، كابر حنّا على نفسه، وأخذ ينبر شجرة ثانية مثقلة بالزيتون، وقرر بعدها أن يجمع الزيتون مع والدته ، وبذلك يلتقط أنفاسه.

كان يعود بذاكرته إلى الوراء ليستعرض مامر به من أحداث في السويدية وإسكندرونة وحي الصاز، وأحاديث البحارة، وتمردهم في المرفأ بسبب البطالة،والانتفاضة التي قاموا بها والنضال ضد فرنسا ، فالأفكار كانت تسكنه وهي صادرة عن رغبة في حلول العدالة الاجتماعية.

عرض محمد عبد الواسع شويحنة ردود بعض الكتّاب السوريين حول مدى تأثير الأدب الروسي في كتاباتهم ،وأذكر رد صميم الشريف، وعادل أبو شنب وأشير إلى أن حنامينه أحد أعضاء رابطة الكتّاب السوريين يقول حول رد صميم الشريف:"صميم الشريف: كل أديب وكل كاتب تأثر دون شك بالأدب الروسي، ولعل كتّاب القصة عموماً كانوا أكثر تأثيراً بشيخ كتاب القصة الروسي أنطون تشيخوف، غير أن تأثير غوركي في أدب الرابطة كان كبيراً، فقد وجدوا فيه معلماً اشتراكياً كبيراً.."[١]

[١] شويحنة ، محمد عبد الواسع ، "القصة القصيرة في أعمال رابطة الكتاب السوريين "، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ،الطبعة الأولى ،٢٠٠٥،ص٦٠

ويذكر أيضاً رد عادل أبو شنب حيث يقول:" عادل أبو شنب : قرأنا الأدب الروسي، واطلعنا على الفكر الماركسي ،أظن أن تأثيرهما في بعض كتّاب الرابطة كان واضحاً، كحنامينه ،والكياليين ،وحورانية وبغدادي..." [1]أي سعيد حورانية وشوقي بغدادي.

عندما كان ينبر إحدى الزيتونات، رأى جسماً غريباً أسود طويلاً، فألقى بالمرواط وراح يصرخ هارباً باتجاه الوالدة والأختين اللتين شاهدتا الحنش، فخافتا وهربتا مذعورتين ، لم يكن حنّا قد رأى حنشاً أسود بهذا الطول والحجم ، وبهذه العدوانية في العينين السوداويتين وكل ذلك أدخل الرعب في قلبه.

الأم وحدها رأت حنشاً من قبل وقد حاولت حماية أبنائها فتناولت حجراً بكلتا يديها تريد أن تقتله انسحب الحنش، وأدركتِ الأم بأنه لن يعاود التقدم باتجاههم، لأن النوع الأسود من الأفاعي ليس مؤذياً، أوعدوانياً إلا إذا هوجم، والأم رفعت الحجر ولم تضرب ،وأعطتِ الأمان لخصمها، وبذلك انتهت المعركة،خجل حنّا من والدته ، لكنها لم تلمه، وأخبرته أن ذلك النوع من الأفاعي غير سام وأنه يأكل القوارض وعليه ألاّ يخاف إذا رآه.

حسب حنّا أن العامل في إسكندرونة وحده المستغَل ، ولكنه عندما جاء ريف اللاذقية وجد أن الفلاح أشد بؤساً منه، فهو يدفع من صحته وتعبه وعرقه في سبيل ما تنتجه الأرض من خيرات هذا الإحساس بصعوبة الحياة جعله ينقم عليها لذلك أراد الانتحار ولكنه لم يفعل فقد قال :" لقد راودتني، تلك الأيام فكرة الانتحار، ومن عجب أن هذه الفكرة ظلّت تراودني، طول حياتي ، لكنني ، مع ذلك لم أنتحر لم أملك الشجاعة الكافية لذلك من جهة ، ولأن الأفكار التي أحمل حمتني من المغامرة من جهة أخرى.."[2]

أما مكسيم فقد عزم على الانتحار، واشترى لذلك مسدساً وكل ذلك راجع إلى مالقيه في حياته من ضغوط حيث قال :" ابتعت مسدساً من رئيس الطبالين، مذخّراً بأربع

---
[1] -المرجع السابق، ص٦٠
[2] مينه،حنّا "القطاف"،ص١٠٦

رصاصات من السوق، أطلقت رصاصته على صدري قصدت أن أصيب قلبي ، ولكني لم أنجح إلاّ في خرق رئتّي ..."[1]وذلك عندما بلغ التاسعةعشرة من عمره، أي عام ١٨٨٧.

كانت حصيلة اليوم من جمع الزيتون ثلاثة أكياس ونصف الكيس ، وقد تبددت أحلامهم آخر النهار في أن يجمعوا عشرة أكياس ، وطلبت الأم من أبنائها أن يتوقفوا عن العمل ،وأن يسجل حنا في دفتر صغير مقدار ماجنوه من زيتون بعد أن قاموا بوزنه على القبان .

ذهب الوالد إلى خمارة القرية، وأحضر زجاجة عرق ليشربها مع الوكيل فهذه هي عادة الوالد أينما حلّ يبحث عن المشروب والنساء .

كان الوكيل يأكل تعب الفلاحين من خلال تلاعبه بالوزن فالكيس الذي يزن خمسين كيلوغراماً ، وزنه عند الوكيل ثلاثون كيلوغراماً، كانت هناك فتاة تُدعى بدور جميلة العينين ، ناهدة الصدر، راح المطعون يتفحصها، وصاح بها أن تنحني على الكيس، وتجلسه على القبان وعندما انحنت غرز عينيه في صدرها وعندما وزن الكيس، همس لها بأنه أعطاها زيادة عن الوزن لأجل عينيها ، وسألها عن مكان عملها، وإن كانت تعمل وحدها أم كان أهلها معها.

أصغى الوالد للحديث الذي دار بين بدور والمطعون ،وأراد أن يكون الموعد له لا للمطعون، كان المطعون وهو ذاته الوكيل يميل إلى أذى الفلاحين أشد من ميل الشوباصي إلى إرهابهم، فالشوباصي الذي هو نائب للسادة في تلك الكروم همه أن يعتصر جهد الفلاحين، ويستخدم في ذلك الضرب بالعصا، أو الكرباج ،وحبس الفلاح في القبو ، لكنه لا ينتهك نساء فلاّحيه ولا يقبل رشوة على عكس المطعون ، والوالد كان في صف الشوباصي ومعجباً به، ويكره المطعون، أما حنامينه فقد كان ينفر من الاثنين، ويثيره سرقة تعب الفلاحين أكثر من مغازلة بدور أو غيرها.

[1] غوركي ،مكسيم، "جامعاتي "، المجلد الثالث، ترجمة المحامي سهيل أيوب ،دار "داروغا" موسكو، طُبع في الاتحاد السوفيتي،١٩٨٨ ،ص٦٩٢.

وقد ذكر أحمد الخوص المشكلات الاجتماعية، ودور القصة في معالجتها يقول:"ولقد كانت القصة العربية الحديثة سلاحاً فعالاً في التطور الاجتماعي للأمة العربية في هذا العصر حيث عالجت قضايا المجتمع من فقر وجهل وأخلاق وعادات ،وكانت بالمرصاد للحياة الاجتماعية المتدهورة ولاسيما في الريف العربي الذي حالفه التخلّف، وصادقه الجهل ورافقه الفقر بعد أن تآمرت عليه قوى القهر السياسي والاجتماعي من إقطاع وحكّام واستعمار.."[1]

وهذا مالمسته لدى حنامينه من خلال سيرته في "القطاف" (١٩٨٥)التي ذكر فيها استغلال الإقطاع للفلاحين، وحاول توعية والد رئيفة التي أحبها إلى أنه مستغَل ولكنه لم يستجب، وسيرد ذلك لاحقاً .

- **الظلم الذي تعرض له الفلاحون:**

في إحدى الليالي سمِع إطلاق رصاص ، فنهض الوالد ومعه عصاه وذهب إلى المطعون، لكن المطعون رفض أن يعرف ما يجري لأنه جبان، ودخل إلى الخيمة وأخرج مسدساً صغيراً، وجلس أمام الخيمة مضى الوالد وحده فادعى المطعون أن الوالد أخلّ بالنظام والقانون وأنه يستطيع إطلاق النار عليه وقتله .

كانت شقيقة حنّامينه التي تتمتع بالجسارة كوالدها تستمع، وتبتسم لحركات المطعون التي هي نوع من التمثيل المسلّي والتهريج ،وهي تعرف أن الوالد لا يسكت على ضيم، فحدثت الوكيل باستهزاء حول ادعائه بأنه سيطلق النار على والدها، وحاول الوكيل إسكاتها ولكنها كانت شجاعة وجريئة، وطلبت منه إعطاءها المسدس فرفض فقالت له: إما أن يعطيها المسدس وإما أن يدخِله إلى الخيمة بنبرة تهديد، وفعلاً انصاع لأمرها، وأدخله إلى الخيمة وطلب منها ألاّ تخبر والدها بما جرى .

عاد والد حنّا مينه وأخبر الوكيل بأنهم أطلقوا النار على فلاح فقير كان يمر بالكرم ،وقد قطف حفنة زيتون لأولاده، وعند ذلك هب المطعون يقوم بحركات مسرحية عنترية يمثل فيها دور القوي، وطلب تقييد الفلاح صخر إلى شجرة زيتون غليظة الجذع، وأخذ المطعون

---

[1] الخوص، أحمد،" نظرات في الأدب العربي الحديث"،دمشق،١٩٨٣،ص١٢٥.

يضربه بقضيب رمان على جسمه كله ،ولم يسلم وجهه من الضرب ، بقي صخر صامتاً ، لا يصرخ ثم قال عبارة واحدة هدد بها المطعون : بأنه سيجعله يدفع الثمن.

وصل الشوباصي فجأة ،وقص عليه المطعون ما حدث على هواه، الشوباصي بخلاف الوكيل يكره اللجوء إلى الدرك ، ويؤدب الآخرين بنفسه ،رأى الشوباصي الفلاح وقد تمزق جسمه ، وسالت الدماء من أنحاء جسده ، لذلك اكتفى بعدة صفعات ،وبضربات موجعة من عصاه الغليظة.

صاح الفلاح بأنه لم يسرق، وإنما قطف خفنة من زيتون لأطفاله الجياع لأنه لا يوجد في بيته ما يأكله فأسكته الشوباصي ،وفي اليوم التالي قدم دركيان على حصانين واتجها إلى صخر وانهالا عليه ضرباً بكرباجيهما ، وأوثقا صخراً بمؤخرة سرج الفرس ، وساقاه إلى سجن اللاذقية .

وجد حنّامينه أن القراءة هي ملاذه في امتصاص بعض نقمته على ضعفه لم يكن لديه سوى كتابين قد قرأهما ،ورغب أن يستعير من بيت المطعون، أو الشوباصي، أوالأسياد كتباً، ولكنهم لا يقرؤون وهنا تظهر مسألة التأثّر بمكسيم غوركي الذي كان يستعير الكتب من المرأة التي لقّبها بالملكة مارغو حيث تحدث مع المطعون عن الأمر يقول :" ولكنني قرأت عن بعض الأسياد في بلاد العالم ، أن لديهم كتباً ،ويمكن أن يستعيرها أحد ما ، أين هذا ؟ في روسيا ...غوركي كان خادماً ،ومن هو غوركي هذا ؟ كاتب ...، في المحكمة ؟كاتب كتب ...أديب ، لم أسمع به ...أنا لم أسمع بأي كاتب ..."[١]

وهنا جرت مقارنة من قبل حنّا بين الأسياد في روسيا، والأسياد في الريف في ذلك الوقت فرأى أنهم في روسيا يهتمون بالقراءة، أما هنا فالأسياد لا يقرؤون ، ورغب بشراء الكتب، ولكنه لم يكن يمتلك نقوداً لذلك ومحبته الشديدة للقراءة دفعته للطلب من الجمال أن يحضر له جريدة من المدينة ،ولكن الجمال لم يجد مكاناً لبيع الجرائد فخاب أمله .

---

[١] مينه، حنّا،"القطاف"،ص١٧٠.

وقد ذكر فائق المحمد تأثّر الأدب السوري بالأدب السوفييتي من خلال الترجمة فقد أفاد الأدب السوري من تيار الواقعية يقول: "كان للواقعية تأثيرها الكبير على الأدب في سورية بعد تلاحق المترجمات السوفيتية إلى العربية، وقد كانت دمشق أسبق العواصم العربية للإفادة من تيار الواقعية ، فقد وجد فيه الكتّاب ضالتهم المنشودة، وأقبلوا عليه بحكم معاداته للاستعمار الغربي ،وبفضل تعبيره عن التطلعات القومية ،وتلازمه النضالي مع حركة التحرر العربية ومع مبادئ وشعارات الأحزاب والقوى التقدمية "[1]

فالسياسة هنا دخلت في الأدب فقد تأثّر أدب بلادنا بأدب الدولة التي ناصرت قضايانا.

وقع حادث بعد أيام ، وكانت بطلته الفلاحة بدور ، التي أراد المطعون إغراءها، ولكنه فشل فقد اتهمها بأنها غادرت الكرم، وفي صدرها وجيوبها كمية من الزيتون، وزعم المطعون بأنه شاهدها تفعل ذلك بعينيه ،وتقوم بذلك الفعل منذ بدأتِ العمل ، ويوجد شهود عليها ،وهي تحمل زيتوناً اليوم في صدرها وتحت ثيابها ،وقرر تفتيشها.

طلب من الأخت تفتيش بدور في الخيمة فرفضت، وها هي مرة أخرى تظهر جسارة أخت حنّامينه وقوتها في المواجهة، وستظهر في مواطن أخرى ، وعندما رفضت الفتاة طلب من الأم تفتيشها فرفضت أيضاً ،ولم تكتفِ الأخت بالرفض بل طلبت منه أن تذهب إلى بيتها لأنها لم تسرق فأخت حنّا مثال للفتاة الواعية الثائرة الجريئة التي تقول كلمة حق في وجه ظالم.

تدخّل والد حنّا مينه، وأمر بدور أن تذهب إلى بيتها ، فثار المطعون ونعت والد حنّامينه بأنه خان الأمانة ، وأنه متواطئ مع الفلاحين ،وهو شريك لبدور،وذهب المطعون ليشتكي، وذهب والد الكاتب ليوصل بدور إلى بيتها ، فبدأت الأم بالبكاء، وأخذتِ الأخت تتوسل إليها أن تدخل إلى الخيمة وتكف عن البكاء ،وأخبرتها بأنهم إذا طُردوا سيجدون عملاً في المدينة ،وبشجاعتها كانت تمزق حاجز الخوف لدى الوالدة.

---

[1] المحمد،فائق ،"دراسات في الرواية "،صدر عن دار الشبيبة للنشر، طُبع بمؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر ،١٩٧٨،ص١٠٩

وهنا موقف آخر للأخت ،وهو فعل وليس كلاماً فقد عملت على وزن الزيتون الذي تركه المطعون لكي يفسد ويحمل الوالد المسؤولية، وطلبت من حنّامينه أن يسجل وزنه ، سر الفلاحون لما قامت به ، ودعوا لها بالسمعة الطيبة وبذلك تم إنقاذ الزيتون ،وبطُلت حجة المطعون في أنهم عرقلوا سير العمل.

- **حبه الأول لرئيفة :**

بعد إنهاء العمل قام حنّا بجولة في الكرم في أثناء الليل ، فصادف رجلاً اسمه عبد ا وابنته رئيفة في طرف الكرم المجاور لهم يسكنان في خيمة تحت زيتونة شاهقة ألقى حنّا مينه التحية عليهما، أصر الرجل بعد ذلك عليه أن يجلس ،ودعاه إلى كأس معه ، وكانت تلك المرة الأولى التي يشرب فيها من كأس مخصصة له .

سأله حنامينه عن عائلته فأجاب بأن لا أولاد له وليس لديه سوى بنت واحدة اسمها رئيفة وزوجه ماتت ، ودار الحديث بينهما عن الخواجات والإقطاعيين والأغنياء ، وقد اعترض حنّا مينه على تصرفات والد رئيفة، ورغب في بث الوعي لواقعه الاجتماعي.

عد والد رئيفة ذلك الأمر اعتراضاً على حكمة ا ، وتلك سياسة لا شأن له بها، ويخشى الخوض في غمارها حيث قال :"ها هو العم عبد ا واحد من الذين يخشون السياسة، ولو كانت تدخل في موقفهم الذاتي من الحياة ، لشد ما صادفتُ ، وما عانيت من هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن السياسة لم تُخلَق لهم ...كانت ثمة ضرورة أن يعرف الناس الشعب ، الفقراء خاصة أن السياسة داخلة في كلّ شيء ، من الرغيف إلى أيما سلعة يبتاعونها .."[(١)]

وقد تحدث مكسيم عن الفلاحين الذين لا يعون واقعهم الاجتماعي المتردي، وتحكم القيصر في حياتهم وهم مستسلمون كاستلام عبد ا ، وأمثاله من الفلاحين لذلك الواقع يقول:" القيصر هو الذي أنقذ الفلاحين من الملاّكين ،وهكذا يبدو أن القيصر هو وحده الآن السيد على جميع الفلاحين ، ولكن فلنقل مرة أخرى وماذا بشأن هذه الحرية ..."[(٢)]

---

[١] -مينه، حنّا، "القطاف" ،ص٢٠٢

[٢] -غوركي، مكسيم، "جامعاتي"،ص٢١٧.

سألته رئيفة عن عائلته ، شعر من خلال صوتها بنضج أنثوي أيقظ فيه مشاعر نائمة أخبر رئيفة أن لديه أختاً بعمرها، وعندما عاد حنا إلى البورة سمع أصواتاً كان المطعون قد رجع ومعه الشوباصي لم يكن راضياً عن فعلة والد حنامينه، وتصرف الوكيل وقد أخبر سليم مينه الشوباصي عن إساءة الوكيل لبدور أخلاقياً عندما طاب تفتيشها، وجعلها تخلع ثيابها ولو في الخيمة ، وقال أيضاً إن الوكيل يعطيه كل مساء كيساً من الزيتون ، ليشتري بثمنه عرقاً ،وهو مستعد للعقوبة شرط أن يعاقب المطعون، فالمطعون كان يأمره وهو ينفّذ .

أمر الشوباصي المطعون بالتوقف عن الوزن والوالد عن النطارة حتى تظهر نتيجة التحقيق ،فاندفع المطعون نحو الشوباصي يتضرع إليه، ويحاول تقبيل يده ويخبره أن سليم يفتري عليه وعلى نفسه ، لكن الشوباصي لم يغير قراره.

قرر المطعون النزول إلى اللاذقية وإخبار الدرك والملاّكين وكان الملاكون يعودون إليه في أغلب الأمور التي تتعلق بأملاكهم وهيبة الملاكين ما كانت لولا هيبته هو ، فعد الشوباصي ذلك تحدياً له ، وحاول المطعون الاعتذار ولم يفلح، ونهض الشوباصي وهو يخفي غضبه، وكان الصمت نذير عاصفته .

جاء دركيان في الصباح قبضا على بدور وسليم مينه بتهمة السرقة لبدور، والممانعة في القبض عليها من قبل سليم مينه ، لم يكن الوالد مبالياً بكل ما يحدث مع معرفته أنه سيقاد إلى السجن فشهد حنّامينه الظلم الاجتماعي الذي ينوء الفلاحون تحته من خلال صخر وبدور.

سمع حنّامينه صوت رئيفة في غمرة الأفكار التي كانت تدور في مخيلته، ولم يعرف متى جاءت فكانت المفاجأة أكبر من أن يستوعبها، فشعر بفرحة غامرة تملأ جوارحه فقد سألته عن بدور ولماذا أخذوها؟ فأجابها: بتهمة السرقة فقد اتهمها المطعون ولم تسرق لأنها فلاحة وجميلة ولم تستجب لرغبته فابتسمت رئيفة وسألت : هل الجمال ذنب ؟ فأجابها أحياناً يكون ذنباً، فحمدت ا ، وقالت بأنها ليست جميلة فسألها : إن كانت تخاف الجمال؟ فردت بأنها تخاف الذنب فكان جواب حنّا مينه في غاية الروعة، وقد أشعرها بالحياء بأنها مذنبة فقد رد على استدراجها له رداً مبطناً دون أن يقول لها بأنها جميلة وهي فهمت رده ، لقد جعلت رئيفة حياته سعيدة ، وكانت تلك تجربته الأولى .

حاول حنّا مينه قدر المستطاع أن يخفي حبه عن عيون الرقباء فكان يقول : " وكنتُ في حبي هذا ، أخشى العيون ، وأنأى به عن المظان ،أصونه في الحدقتين وأمشي إليه كأنني على جمر ، شاعراً في كل خطوة ، أنه ثمة من يراقبني ، ومن يحصي علي أنفاسي"[1]

كان والد رئيفة المثال بالنسبة إليها ، وهو رجل منحطّ روحياً ، فهو يعد كلب الخواجه خواجه ،ووظّف نفسه كلباً عند الملاّكين وقد عوى عندما عرف بفعلة والده لأن والد حنا برأيه كفر بالنعمة وأسياده هم أصحاب النعمة ، وكان رأي أخته ألا يذهب إلى ذلك الرجل ، وأن ابنته التي نعتتها بالجرادة تفكر مثل أبيها الذي نعتته بالضبع ، فرفض حنّا مينه أن تنعت أخته رئيفة بالجرادة، فأخبرته بأنها كانت تمزح معه واعتذرت منه .

وقف الفقر وأفكار الوالد المختلفة ورأي الأخت في رئيفة عائقاً في وجه ذلك الحب والحاجز الأكبر الفقر الذي تمثّل ببنطاله القصير ، مضى في اليوم التالي إلى الكرم وحين رأته رئيفة ابتسمت ، وتوقفت عن العمل، وأحس أنها طفلة على الرغم من نضج أنوثتها ، وكان من الممكن لو كان شخص آخر في مكانه لأقام معها علاقة على أساس غريزي بحت ، يقبلها، يضمها ، يختلي بها.

تحدثت معه عما جرى بينه وبين والدها الليلة الماضية، وسألته إن كان متضايقاً من أبيها ومنها ولكنه نفى ذلك ، ورأت أن ما يفعله الوالد هو وفاء لأسياده فرفض أن يكون ذلك وفاء لأن الأسياد لم يحسنوا إليهما ، فسألته إن كان يحبها فأجابها بأنها ليست حبيبته وذلك لمصلحتها ، لأنه فقير وهي بحاجة إلى زوج ،وهو ليس ذلك الرجل الذي يصلح أن يكون زوجاً لها، رئيفة قبلته كما هو ، وأحبتّه ، فقال لها بأنه إن أنكر أنه يحبها فهو كاذب، ولكنه ضحى بحبها لأجلها لأنه سيرحل بعد انتهاء الموسم إلى المدينة ولن يراها بعد ذلك.

قرر الافتراق عنها لمصلحتها لكن رئيفة لم تتمالك نفسها، وبدأت بالبكاء حيث يقول : " وقفنا حائرين ، بكت رئيفة، بكاؤها آلمني ، تقدمت منها ، تطلعت حولي لم يكن ثمة أحد ، كان الكرم في البقعة التي نحن فيها ، خالياً تناولتُ يدها ، أعطتني يدها بغير تمنّع ، شددتها إلى صدري ، فاستجابت لم تقاوم كانت تنتظر ذلك ، ربما كانت تنتظره منذ التقينا ، ضممتها،

---

[1] مينه، حنّا، "القطاف"، ص٢٦٣.

قبلتها ، كانت قبلتي الأولى آه...آية لذة غريبة في مذاق الفم ...تفتح الذكر في الجسم تفتحتِ الأنثى صار الآن ما بيننا حباً من نوع آخر، غريزياً ، شهوانياً مادياً لا يقيم وزناً لكل التحسبات من الفقر والبؤس ..."[(١)]

كانت درجة الصراحة في الحديث عن الأمور العاطفية متفاوتة بين الكتّاب الأربعة وبرأيي الأكثر صراحة هو حنامينه الذي تحدث بجرأة ناعمة عن قصة حبه مع رئيفة ،أما حب طه حسين فقد كان يعتمد على السماع، وهو سماعه لصوت سوزان العذب تلك الفتاة الفرنسية التي تزوجها عام ١٩١٧في باريس لم يتعمق بالحديث عن علاقتهما، وربما تحرج عن كشف خفايا نفسه وعلاقاته لأنه محكوم بتقاليد مجتمعه ورأت الدكتورة مها فائق العطّار أنه لم يتحدث عن عواطفه بصراحة حيث يقول: "لاشك أن طه حسين لم يكن صريحاً وصادقاً في كشف عواطفه وتعريتها وكان يمكنه أن يعري قسماً منها...ولكنه كان يخشى عواقب الأمور..."[(٢)]

تحرج أحمد أمين من الخوض في هذه المسألة، لكني لمحت حباً لسيدة إنكليزية متزوجة أخذ يتعلّم منها اللغة الإنكليزية، ويعلّمها العربية وشعر بأنها تغذي عواطفه بجمالها ورقتها، ومكسيم غوركي ذكر بأنه معجب بفتاة اسمه بيتزينا، ولمست شعوراً خفياً بمحبة تجاه الملكة مارغو.

كان الشوق والرغبة أقوى منهما ،وقد حزنت رئيفة لأنّه قبلها وهو ينوي هجرها وعاتبته لأنه أغراها بحبه ،وشعر في لهجتها نبرة مطالبة باستمرارية الحب، أخبر حنّامينه رئيفة بأنه سيكون اللقاء الأخير لهما وبعدها انصرف .

مرضت رئيفة، ولم يعرف والدها سبب مرضها، والذي زاد من مرضها أنها لا تستطيع أن تكتب ،ولا تجد من يحمل إليه رسالتها لو كُتِبت ،حاولت أن تتماسك وقفت في الطريق الذي يمر به، تجادلت كثيراً معه، وقد أراد حنّامينه أن يتراجع في أول الطريق بسبب فقره، لم تطلب رئيفة منه الزواج، بل أن يكون له قلب، ويعاملها بحنان .

---

[١] -المصدر السابق ، ص٣٩٠ .

[٢] العطار، د.مها فائق، "فن السيرة الذاتية في الأدب العربي" حتى أوائل الثمانينات ،مطبعة الداودي ،دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ ،ص٣٤.

أجد أن حنامينه في علاقته مع رئيفة كان متمتعاً بأخلاق عالية فقد كان من الممكن أن يستغلها ويقلّل من احترامها فهي لم ترفضه لأنها تحبه، وتعرف مدى رقته وعذوبة مشاعره ولكنه رفض لأنه يحبها ويحترمها ، وهي في غمرة انجرافها العاطفي لم تقدر أن هجرانه لها كان بسبب حبها، عدت ذلك كرهاً لها، ولكنها في قرارة نفسها تعرف أنه يحبها ، ولذلك تمسكت به، مع أن في ذلك إهانةً أحياناً لمشاعرها بسبب رفضه الكلامي لها الذي يتنافى مع ما في داخله، ودليل صدق هذا الحب أن الكاتب تحدث عنه بتفاصيله التي لم ينسها ،ولن ينساها فقد قال :" إنني لن أنسى حبها ، سخاءها ،منحتها ، التي تشبه منحة أميرة مترفة ومن المؤكد أنني مثلها أريد أن تدوم هذه العلاقة ، بيد أن وضعي لا يسمح بالاستمرار..."[1]

حاول إرهاق نفسه بالعمل ، ودار صراع بين إرادته وعاطفته أحياناً تنتصر الإرادة وأخرى تنتصر العاطفة فيمرض مثل رئيفة، ويرغب بالفرار حتى ينسى .

خرج سليم مينه من السجن بعد أيام ،وقد برأ بدور معه ، قاموا بتعذيبه حتى يقول إنها سرقت ،ولكنه رفض وأصر على أنها لم تسرق ، ضربه الدرك على قدميه حتى دميت ، كانت الطريقة التي أُخِذ بها سليم مينه وبدور وحشية فقد وضِع القيد في يديهما وكان عليهما أن يسيرا شبه راكضين وراء حصاني الدركين .

إذا تباطأا من التعب والعطش انهال عليهما كرباجا الدركيين ، فسال الدم من قدمي بدور الحافيتين ، أخيراً أُطلِق سراحهما ،قرر الوالد البقاء في اللاذقية ، ومعه بدور ، لم يجبرها على البقاء ، ولكنه في قرارة نفسه كان يعرف أنها ستبقى معه، وهو بحكم ضعفه أمام المرأة ، وجد نفسه مهزوماً ،وشعر أنها لينة مستسلمة راغبة فيما يرغب.

قاد بدور إلى بيت أحد معارفه ، وذهب ليلاً إلى الحمام، ثم اشترى مرهماً من الصيدلية كي يدهن رجليه المتورمتين ،وقد استدان بعض المال ، ودخل إحدى الخمارات فشرب كأساً ثم عاد إلى البيت، ووضع الطعام ودعا بدور إلى العشاء ، كانت قلقة نادمة لأنها بقيت معه.

---

[1] مينة ،حنّا ،" القطاف "،ص٢٩٣.

رفضت بدور مطاوعته ، لأنها خافت من الفضيحة ، ولم تنفعه كلماته ولا الأحاديث، تسرب اليأس إلى نفسه ، وفكّر أن يلقي بها في الشارع فتوسلت إليه أن يتركها وراء الباب إلى الصباح ، فسألها عن سبب قبولها المجيء معه ، وكان جوابها: لإرضائه ولكنها خافت من الخطيئة ، وقد أحبته لأنه شهم ولأول مرة في حياته قاوم رغبته وتركها تنام دون أن يمسها، وشعر بسعادة، وفي الصباح استيقظا قبل أن يستيقظ الجيران ، وقصدا الطريق التي قدما منها .

فرحت العائلة بعودة الوالد سليم مينه ،الذي استفاد من حياة السجن ومن الأحداث التي مرت به سابقاً في تأليف قصص يرويها، ويمتلك القدرة على تشويق السامع يقول : " يمسك الخيوط ويمركزها ليعقدها ،يحلها، ويخرج بقصة جيدة، مقبولة، فنّيتها في صياغتها وعنصر التشويق فيها بأكثر مما هي في قيمة الحدث ذاته "[1]

أعتقد أن حنّا تأثّر بوالده الذي يمتلك تلك القدرة على سرد الأحداث، وخلق قصص مثيرة من أحداث بسيطة ،لأن الأحداث التي كان يسردها الوالد لودوّنت لقدمت قصصاً جديرة بالقراءة، وتوصلت إلى ذلك من خلال وصف حنّا لقدرة والده ،وأرى أن حنّامينه بذرة نبتت في أرض تصلح للإبداع وهذه الأرض هي الفقر، والجوع والألم، والأحداث المحيطة والأم الحنون وقصص الطفولة ،والأب الذي يمتلك تلك القدرة على سرد القصص بعفوية كل ذلك صقل موهبته، وجعل منه كاتباً .

وقد لمحت ذلك أيضاً لدى مكسيم غوركي الذي تأثر بجدته التي تشبه أم حنّامينه في عطفها وحنانها كانت تروي الأساطير، والخرافات بطريقة تشد انتباه السامع فيرغب الجميع بالاستماع إلى رواياتها فجعلت ذاكرة مكسيم غوركي تتفتح على الإبداع يقول:"القوم تجمهروا بعضهم قرب بعض هانئين مرحين ، وجدتي تسرف في سرد أقاصيصها الرائعة أكثر من المعتاد ....فتأتينا كلماتها متلاحقة موزونة متناسقة كأروع الشعر .."[2]

[1]ـ المصدر السابق ،ص٣٢٢
[2] غوركي، مكسيم ، "طفولتي" ،ص١٩٧

في خريف عام ١٩٣٩ لم يكن يعرف ما سيكون مصيره قال :" وكنت أتساءل كما غوركي " ماذا تكونين يا نفس وماذا يخبئ لك الغد " وستمضي أعوام على ذلك قبل أن أتعرف على الطيبين وأدخل نقابة الحلاقين .." [١]

أخيراً بدأ القطاف العام ، واشترك الرجال مع النساء في عملية القطاف ، ذلك العمل الجماعي ملأ النفوس بالبهجة، ولكن تلك البهجة لم تلبث أن تلاشت فقد عضت حية فتاة فربط فلاح ساعد الفتاة بحبل، ثم وضع فمه على الإصبع، وراح يمص الدم ، وركض بعض الفتيان إلى القرية ، وأحضروا فروجين، وأخذ الشيخ يضع مؤخرة الفروج على مكان اللادغة حتى يمتّص السم من الإصبع، لكن ذلك لم ينفع فقد ماتت الفتاة وكل ذلك عائد إلى الجهل وسوء الأوضاع الصحية.

الموت بلدغة الأفاعي كان وارداً في كل يوم ، لذلك تابع الفلاحون الاحتفال بمهرجان القطاف، والذي جعل البهجة تغمر قلب حنّامينه وجود رئيفة في المهرجان ، فقد تحدثا والألم والحسرة تعتصر قلبيهما ، وحلّت لحظة الوداع، وانقطعت بذلك صلته برئيفة بشكل نهائي.

وقع حادث قبل انتهاء القطاف بيوم واحد ، وكان ذلك في المساء فقد أُطلِق عيار ناري على المطعون أرداه قتيلاً ،ولحسن حظ الوالد كان يعمل وقت الحادث في تعبئة غرارات الزيتون ، وفي اليوم التالي شاع خبر أدهش الناس مفاده أن الفلاح صخراً خرج من السجن يوم قُتِل المطعون، فتذكّر الناس ما فعله المطعون بصخر.

فخرب الدرك بيته، واستجوبوا زوجه أما صخر فقد اختبأ في الجبل ، وبعد يومين من الحادث غادرتِ العائلة البورة إلى المدينة .

خاتمة:

لقد أصدر حنامينه سيرته الذاتية ، بعد أن بلغ السنة الحادية والخمسين من عمره، فصدر الجزء الأول "بقايا صور" عام ١٩٧٥ ، وبعد مرور عامين صدر الجزء الثاني بعنوان"

[١] مينه ،حنّا، "القطاف"، ص٣٤١.

المستنقع" والجزء الثالث صدر عام ١٩٨٥ ، وقد اكتسب في تلك الفترة خبرةً كبيرة ، حيث ثقّف نفسه مثله مثل مكسيم غوركي وإذا كان مكسيم غوركي فقد والده وهو في الرابعة من عمره فإن حنامينه يشبهه ، لأن والده كأنّه غائب، ومع كل صراحة حنامينه وصدقه فكنت أتمنى لو أنّه رحم والده قليلاً ، ولم يذكر صفاته السلبية كلها.

قبل أن يكتب حنامينه سيرته الذاتية ، كتب رواية "المصابيح الزرق" عام ١٩٥٤ وروايات كثيرة، وأصبح روائياً كبيراً ومشهوراً في الآداب العالمية ، وترجمت الكثير من رواياته إلى لغات العالم، ونال أكثر من جائزة وخاض غمار الحياة ، فعمل في قطاف الزيتون،وفي محل للحلاقة، وذاق مرارة تجربة السجن السياسي، وإذا كان غوركي مؤسساً للواقعية الاشتراكية في الأدب الروسي، فإن حنامينه من أهم روادها في الأدب العربي.

مررت بسيرة ذاتية مشبعة بالآلام والفقر والعذاب والتضحية حملت في طياتها موضوعية الكاتب الذي تحدث عن كثير من الأمور بمصداقية تناول فيها مرحلة طفولته وبداية شبابه فشدني طواعية إلى أحداث سيرته حيث وجدتُ فيها قرباً من حياة عائلتي فقد كنت منذ طفولتي أهتم بالاستماع إلى أحاديث الكبار التي تحمل في داخلها الأوجاع التي مروا بها في تلك الفترة الزمنية.

الضربات التي تلقّاها حنّامينه في طفولته وشبابه المتمثلة في عذاباته النفسية والجسدية لم تكسر ظهره بل زادته قوة ، ودليل ذلك ما أبدعه من كتابات واقعية لامست حياة الناس جعلتني أكن له التقدير ، وأحب والدته تلك الإنسانية الطيبة المتسامحة كما وردت في سيرته ،و أحترم شجاعة والده وجسارته في بعض الأمور ، وأقدر أخته التي تمثل شخصية المرأة التي تقول الحق دون خوف، أو تردد فقد وقفت أكثر من مرة في وجه الظلم ،أخيراً جمع حنّا مينه الحروف فكتب ،وكتب فأجاد لأن ما كتبه جاء عفوياً، تميز بالشفافية.

مقدمة الفصل الثالث:

يبني الدكتور طه حسين سيرته الذاتية على التحليل النفسي، على الرغم من أن هناك من يرى أن طه حسين ينتقد التحليل النفسي وفي الحقيقة، فإن طه حسين ينتقد المبالغة والإسراف في تطبيق المنهج النفسي، يقول:"أحب أن أعترف للأستاذ العقاد بأني مازلت حتى الآن غير مؤمن بالعيادات النفسية، التي أخذت تكثر في هذه الأيام"[1]ويتابع :"وخير من إنفاق الجهد في هذه المحاولات، أن ينفق الأستاذ العقاد، وأنفق أنا مانملك من الجهد في المدرسة الفنية الأدبية، ..."[2]

وبذلك فإن الدكتور طه حسين يوجه خطابه لصديقه العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤)، الذي درس الشعراء العرب في العصرين الأموي والعباسي، وحلّل شخصياتهم تحليلاً نفسياً ، وكذلك فعل الدكتور طه حسين في دراسته لشخصية بشاربن برد في كتابه "حديث الأربعاء" وفي كتبه"ابن المعتز وشعره"و"البحتري وشعره "وابن الرومي وشعره" وفي "الغزل عند أبي نواس"

يلتزم الدكتور طه حسين مبدأ الشك في المعلومات التي تصله، وذلك واضح في كتبه الثلاثة عن أبي العلاء المعري، وكذلك في دراسته عن المتنبي، واستمر في كتابة سيرته الذاتية طيلة حياته إذ صدر الجزء الثالث منها وعمره ثمانية وسبعون عاماً أي عام١٩٦٧،يقدم فيها تحليلاً نفسياً لشخصيته أولاً ولأسرته وللأوضاع في عصره ، الذي حرمه من نور البصر، ولم يحرمه من نور العلم فتعلم في الكتّاب والأزهر والجامعة المصرية وجامعة السوربون، واطّلع على الآداب العربية والأجنبية وأتقن أكثر من لغة ، وترجم ، وكتب الرواية النفسية مثل رواية "دعاء الكروان" وأُنتخب طه حسين عضواً في مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٠، ومِنُح جائزة الدولة للأدب عام ١٩٥٠ وخاض معارك أدبية مع التيار اليساري ، أبرزها مع الدكتورمحمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس، وسلامة موسى ورئيف خوري .

---

[1] حسين ، د. طه، المجموعة ، المجلد الحادي عشر، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٧٤،ص٥٩٧.
[2] المرجع ذاته ،ص٥٩٨.

أحداث مرتبطة بطفولته:

كتب الدكتور طه حسين سيرته الذاتية بعنوان" الأيام" عام ١٩٢٩م أي عندما بلغ الأربعين من عمره ، وتنقسم إلى ثلاثة أجزاء الجزء الأول عام ١٩٢٩، والثاني عام ١٩٣٩، والثالث عام ١٩٦٧ تحدث فيها عن نفسه وأسرته والكتّاب والأزهر والجامعة والسفر إلى فرنسا والحرب العالمية الأولى والسياسة وذكر فيها الشخصيات التي عاصرها وكان لها أثر في حياته .

كان لطه حسين من وقت الطفولة ذكرى واضحة لا شك فيها ، ألا وهي ذكرى السياج الذي كان يقوم من القصب ، وقصب ذلك السياج كان أطول من قامته فقد كان من العسير أن يتخطّاه إلى ما خلفه.

كان يحب سماع صوت الشاعر الذي ينشد الناس في نغمة عذبة أخبار أبي زيد و خليفة ودياب، ولكن أخته كانت تقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر، فتقوم بحمله بين ذراعيها، ثم تضعه على فخذ أمه، وتفتح عينيه، وتقطر فيهما سائلاً يؤذيه لأنه أصيب بمرض الرمد وهو في الرابعة من عمره ، وفقد جراء ذلك بصره.

تأخذه أخته، وتجعله يستلقي على حصيرة قد بسِط عليها لحاف ، وتضع عليه لحافاً آخر ، وبعدها يأخذه النوم، ولا يلبث أن يستيقظ، والناس نيام فيلقي اللحاف على وجهه في خفية لأنه كان يكره النّوم وهو مكشوف الوجه خوفاً من العفاريت التي يظن أنها موجودة،حيث

يتحدث عن نفسه بصيغة الغائب فيقول:" لذلك كان يقضي ليله خائفاً مضطرباً إلاّ حين يغلبه النوم، وما كان يغلبه النوم إلاّ قليلاً كان يستيقظ مبكّراً أو قُل كان يستيقظ في السحر ، ويقضي شطراً طويلاً من الليل في هذه الأحوال والأوجال والخوف من العفاريت ......"[(١)]

وقعت حادثة ملأت قلبه حياء لم يفارقه عندما أخذ مساء في أثناء العشاء اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ، فأخذ أخوته يضحكون عليه، فبكت أمه عليه ، وقال له والده بصوتٍ هادئ : إن اللقمة لا تُؤخذ بتلك الطريقة ، ومنذ ذلك اليوم تقيدت حركاته بشيء

---

[١] حسين ،د.طه، "الأيام"، الجزء الأول ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت، لبنان ،الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ ،ص١٢-١٣

من الرزانة و الحياء ، و أعانته تلك الحادثة على فهم ما يتحدث به الرواة عن أبي العلاء عندما أكل ذات يوم دبساً، فسقط بعضه على صدره من غير علمه ، ولما خرج إلى الدرس نبهه بعض تلاميذه إلى أنه أكل دبساً ، فأسرع بيده إلى صدره ، ثم حرم على نفسه الدبس طوال الحياة .

ذكر الدكتور علي شلق أن الدكتور طه حسين تميز برهافة الحس والملاحظة الدقيقة في سيرته يقول:"طه حسين" فنّان أصيل في أسلوبه الجمالي، وقصته "الأيام" باح بها غنى ذاته ورهافة حسه، ودقة ملاحظته الذهنية ،ولبقاً في التفاتاته إلى الأشياء التافهة، فمنحها هويتها الباقية على الزمن "[1]

حرم طه حسين نفسه من اللعب و العبث إلاّ اللعب الذي لا يكلّفه عناء، ولا يجعله عرضة للسخرية أو الإشفاق ، و أغلب مشاركته أخوانه اللعب يكون بإعمال عقله لا يده، وقد كان ميالاً منذ صغره للاستماع إلى أحاديث غيره يقول:" و أحب شيء إليه أن يسمع إنشاد الشاعر، أو حديث الرجال إلى أبيه و النساء إلى أمه ومن هنا تعلّم حسن الاستماع "[2]

- **رأيه بشيخ الكتّاب والعريف:**

حفظ طه حسين القرآن و لما يتم التاسعة من عمره ، كان ذلك اليوم يوم أربعاء وقد أنبأ شيخ الكتّاب الذي يدعونه تلاميذه بسيدنا في الصباح، إن طه سيختم القرآن في ذلك اليوم وبذلك أصبح طه حسين شيخاً ولم يتجاوز التاسعة، لأنه حفظ القرآن و أصبح والده يدعوه بالشيخ وكذلك أمه.

بعد أيام شعر طه حسين بالسأم من لقب الشيخ، وأحس أن الحياة فيها الكثيرمن الظلم والكذب ثم استحال شعوره إلى ازدراء من لقب الشيخ . ويبدو أن حفظه للقرآن لم يدم فترة طويلة لأن الشيخ أهمله، وعني بغيره من التلاميذ الذين لم يختموا القرآن ، و أصبح يذهب إلى الكتّاب، و يعود دون دراسة، ومضى على ذلك أشهر إلى أن كان اليوم المشؤوم،الذي دعاه أبوه ومعه صديقان له ، وطلب منه أن يقرأ سورة الشعراء.

---

[1] شلق ،د. علي ، "نقاط التطور في الأدب العربي "، دار القلم ،بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٥،ص٦٠٤
[2] حسين،د.طه ،"الأيام" ،ج١،ص٢٧

أخذ طه يردد بداية السورة طسم دون أن يستطيع قراءة ما بعدها، وفتح أبوه عليه بما بعدها، ولكنه لم يستطع المتابعة و كذلك الأمر بالنسبة لسورتي النمل والقصص وعند ذلك طلب منه النهوض، وأخذ الرجلان يبرران عنه بالخجل وصغر السن ، فأمسى ذلك اليوم شر مساء، ورفض أن يتعشّى ، ولامه الشيخ في اليوم التالي على عجزه، و أخبره أن الذنب ذنب أبيه لأنه لم يعطه أجر ختمة القرآن.

عاد الشيخ يقرئه القرآن من جديد، فحفظه جيداً في فترة قصيرة جداً ، و يذكر بأنه عاد من الكتّاب مع الشيخ إلى البيت، وأقسم الشيخ إنه إذا تبين أنه لا يحفظ القرآن سيحلق لحيته ، ولكن والد طه أخبر الشيخ: إن طه نسي القرآن والشيخ كرره أمامه حتى حفظه لكن الشيخ أقسم إنه لم يقرئه، غير أن طه حسين كان مقتنعاً أن أباه على حق، وأن الشيخ كاذب ،و قد نجح طه حسين في الامتحان، وقرأ القرآن بإتقان وهنا يذكر كيف نال السيد جبة من الجوخ "وخرج سيدنا في ذلك اليوم ومعه جبة من الجوخ خلعها عليه الشيخ " .[1]

ذهب الشيخ في اليوم التالي إلى الكتّاب مسروراً ، و أخذ بيد طه حسين، ووضعها على لحيته وقال له إنه يسلّمه لحيته ، ويريد منه ألاّ يهينها ، وطلب منه أن يقسم بأن يتلو على العريف ستة أجزاء من القرآن في كل يوم من أيام العمل جزء ، وأعطاه طه عهداً على نفسه بأن يقوم بذلك فأصبحت صلته منذ ذلك اليوم بالعريف.

كان العريف شاباً طويلاً نحيفاً أسود ، أبوه سوداني ، جرب الكثير من الأعمال و لم يفلح ، وعندما ضاقت به الحياة أقبل إلى الشيخ فجعله عريفاً يعلّم الصبيان القراءة والكتابة كان العريف يكره الشيخ كرهاً شديداً ولكنه يداريه، وكذلك الأمر الشيخ، ولكنه يتملّقه والعريف يكره الشيخ لأنه غشّاش كذّاب، والشيخ يكرهه لأنه مكّار داهية، لكن العريف محتاج إلى أن يعيش، والشيخ محتاج إلى من يدبر له أمور الكتّاب .

يلاحظ القارئ وهو يطالع السيرة الذاتية لطه حسين صراحته المطلقة في إبداء رأيه بشيخ الكتاب فهو يذكر بصراحة بأن الشيخ كان كذّاباً غير آبه بردة فعل مجتمعه في ذلك الوقت.

[1] ـ المصدر السابق، ص٤٤

استمر اتصال طه حسين بالعريف ثلاثة أيام ضاق كلاهما ، واتفقا منذ اليوم الرابع أن يتلو طه حسين في سره، ويسأل العريف من حين إلى حين عن كلمة ، ويأتي الشيخ في كل يوم قبيل الظهر فيسأله : أقرأت ؟ فيجيبه: نعم ، ويحدد له ما قرأ وكان العريف ينذر طه حسين من حين إلى آخر أنه سيخبر الشيخ بوجود بعض السور التي لم يتقنها بشكل كافٍ ،وطه يشتري صمت العريف بملء جيبه خبزاً أو فطيراً أو تمراً .

وبعد فترة اتخذ العريف طه حسين صديقاً ، وأخذ يثق به ويطلب إليه أن يقرئ بعض الصبيان القرآن ، و كان أمهر تلاميذه صبية مكفوفة البصر ، كان أهلها أغنياء ، وكانت أقدر الصبيان على تخير الرشاوات، و أحفظهم للقصص حيث يقول: "فكانت تُلهي صاحبنا أكثر وقته بحديثها و تعديدها و أقاصيصها و ألوان رشوتها، و بينما كان صاحبنا يرشو و يرتشي ، و يخدع و يخدع ، كان القرآن يمحي من صدره آيةً آية"[(١)]

وهنا حدثت حادثة طريفة مع طه حسين ،إذ سرق حذاؤه في الجامع وذلك عندما انصرف من الكتّاب،ولم يذهب إلى البيت وإنّما ذهب مع أصحابه إلى الجامع ليصلّي العصر وبعد الصلاة افتقد نعله فلم يجده وعاد إلى البيت حافياً .

يصف هنا طه حسين الأوساط الدينية التي هي جزء من المجتمع ، وما فيها من عيوب المجتمع ، الموجودة فيها، مثل الرشوة و الخداع والسرقة، و بالتالي فإن طه حسين يتّصف بالواقعية النقدية التي بدأت تشق طريقها في النصف الأول من القرن العشرين، وقد نبتت بذور الواقعية الاشتراكية التي كملت الواقعية النقدية على يد الكاتب الروسي مكسيم غوركي في رواية "الأم" (١٩٠٦).

ونحن لا نخطئ إذا قلنا إن السيرة الذّاتية لطه حسين من السير العربية الناضجة المكتملة العناصر ، فعندما نقرؤها وكأننا نقرأ رواية توجد فيها شخصيات عديدة الشخصية الأساسية في هذه السيرة هي شخصية طه حسين الذي لا يذكر اسمه بصراحة، وإنما يقول أحياناً الصبي،الفتى،صاحبنا وهناك شخصيات أخرى هي شخصيات أفراد أسرته و الشيوخ و جيرانه في الربع .

١- المصدر السابق،ص٥٥.

ما كُتِب هو سيرة ذاتية، وتعني حديث الكاتب عن نفسه ويكون ذلك بصيغة المتكلم لكن الدكتور طه حسين كان على خلاف ذلك فتحدث عن نفسه بصيغة الغائب، وربما كان ذلك عائداً إلى فقد بصره فغيب نفسه بهذا الصيغة كما غاب بصره ، فهو لا يرى الأحداث وأجد أنه قرن الأحداث غير المرئية بصيغة المتكلم فغيبه بذلك، واعتمد على السماع وقرنه بصيغة الغائب الذي لا يحكم حتى يرى، وبما أنه لا أمل لديه في الرؤية، ناصر صيغة الغائب على المتكلم وهناك رأي آخر للدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم رأى فيه أن صيغة الغائب أخفت ذاته يقول :"ومن هنا كانت "صيغة الغائب "أكثر حجباً للذاتية وإخفاء لحقيقتها لأن الامتزاج الكامل بين الذات والموضوع ،وبين العالم الداخلي والعالم الموضوعي الخارجي لا يتم إلا بإبراز "الأنا"... "[1]

أما أحمد أمين وحنّا مينه ومكسيم غوركي فقد تناولوا سرد سيرتهم بصيغة المتكلم .

لا بد لنا من الإشارة إلى أن طه حسين عندما كتب سيرته الذاتية كان قد تعرف على الثقافة الفرنسية، فقد كتبها بعد عودته من فرنسا و حصوله على شهادة الدكتوراه في جامعة السوربون .

وقد بين الدكتور شوقي ضيف رأيه في كتابة الدكتور طه حسين لسيرته الذاتية حيث أظهر تأثره بالغربي يقول: "ربما كان طه حسين خير من جارى الغربيين في هذا المضمار، فقد كتب عن طفولته وشبابه في "الأيام" بدون أي تمويه، وأعطانا صورة تامة لكل ما اضطرب فيه بسبب فقده لبصره في سن مبكرة ولكل ما أثر فيه بسبب نشأته الأولى، وسكب على " أيامه" كثيراً من فنّه ، فجاءت قطعة أدبية رائعة " [2]

وطه حسين من الكتّاب الذين تأثروا بمذهب ديكارت الفيلسوف الذي كان يؤمن بأن الشّك هو طريقنا لليقين ، فكان يدقّق في كل شيء ، ويتأكد من صحته ، طه حسين عندما كتب هذه السيرة، كان قد كتب كتباً كثيرة قبلها يأتي في طليعتها كتابه " تجديد ذكرى أبي العلاء" الذي أصدره الدكتور طه حسين عام ١٩١٤م ، وكان قد أصدر كتابه الذي أثار ضجة كبرى

---

[1] عبد الدايم ،د. يحيى إبراهيم ، "الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث" ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص٤٢٢

[2] -ضيف،د.شوقي،"ترجمة شخصية"،دار المعارف ،القاهرة ،الطبعة الثانية ،١٩٥٦ ،ص٦

وهو" في الشعر الجاهلي" عام ١٩٢٦ ، والذي عدله بعد عام ،و أصدره بعنوان" في الأدب الجاهلي ".١٩٢٧

يرى الدكتور ماهر حسن فهمي أن الدكتور طه حسين واجه صراعات عدة في سيرته مع مجتمعه يقول: "وهو يدخل في صراع مع هذه البيئة أكثر من مرة ، يدخل في صراع معها حين يصطدم بالأزهر ويدخل في صراع معها حين يخرج كتابه " في الشعر الجاهلي "ولعل كل ذلك يرجع إلى أثر النشأة التي تعنتت في فهم الدين فثار عليها....."[١]

و نلاحظ في كتبه التي سبقت سيرته الذاتية إيمانه بمبدأ الحرية الفردية التي تعرف عليها في فرنسا، وإيمانه بما يقره العقل، وبالتالي ابتعاده عن الخرافات .

وأعتقد لو أن طه حسين كتب سيرته الذاتية قبل سفره إلى فرنسا لجاءت هذه السيرة بشكل مختلف عن الشكل الذي رأيناه الآن، فهذه الطريقة في الكتابة تدلّ على أن طه حسين متأثر تأثراً واضحاً بالأدب الغربي، وبالمنهج العلمي الذي تعرف عليه لدى بعض النّقّاد الفرنسيين، والذي يأتي في طليعتهم الناقد سانت بيف(١٨٠٤-١٨٦٩)وقد أشار إلى ذلك الدكتور شوقي ضيف في كتابه "البحث الأدبي "حيث يقول :"سانت بيف saintc_beuv (١٨٠٤_١٨٦٩)إذ دعا في أحاديثه المعروفة باسم"أحاديث الاثنين"و"أحاديث الاثنين الجديدة"إلى دراسة الأدباء دراسة علمية"تقوم على بحوث تفصيلية لعلاقاتهم بأوطانهم ،وأممهم وعصورهم وآبائهم وأمهاتهم وأسرتهم وتربياتهم وأمزجتهم وثقافاتهم وتكويناتهم المادية والجسمية وخواصهم النفسية"[٢]

يذكر الدكتور لويس عوض ما ورد في المحاضرة التي افتتحها الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة حول موضوع "الثقافة في المجتمع الاشتراكي" التي بين فيها أهمية تبادل الثقافات، وأجد أنه بذلك تتم مسألة التأثير والتأثر بشكلها الفعال يقول:"وكانت قضية القضايا التي تصدى لها الدكتور عبد القادر حاتم هي كيف يمكن دون إضاعة وقت كبير في بحث الشعارات استحداث الثورة الثقافية في ظل المجتمع الاشتراكي على هدى مبادئ الميثاق ،ومن

---

[١] فهمي، د.ماهر حسن، "السيرة تاريخ وفن" ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ، الطبعة الثانية، ١٩٧٠،ص٢٧٣.
[٢] ضيف،شوقي،"البحث الأدبي"،دار المعارف،القاهرة ،الطبعة الثانية،ص٨٦.

هذه القضية الجوهرية تفرعت جملة من قضايا تفصيلية كلها على جانب عظيم من الخطورة كان أهمها كيف نحرر الثقافة من الطبقية،وكيف نفهم مسؤولية حرية الكلمة من حيث هي حق ومن حيث هي واجب ،وكيف نوفّق بين ثقافتنا الوطنية ،وضرورة امتصاصنا للتراث الإنساني الكبير، وكيف نعمل على تصدير ثقافتنا كما نعمل على استيراد ثقافات الأمم الأخرى.."[1]

لم يعد طه حسين إلى الكتّاب، وجاء والده بفقيه آخر يتردد إلى البيت ،و يقرئه ساعة أو ساعتين ، فشعر بالسعادة ،وأخذ يظهر عيوب الشيخ والعريف أمام الصبيان، ولكن تلك السعادة لم تدم لأن الشيخ أخذ يتوسل من أجل أن يعود طه حسين إلى الكتّاب ، و فعلاً نجح في ذلك ،وعاد طه كارهاً مقدراً ما سيلقاه من الشيخ لأن الصبيان نقلوا له و للعريف كلّ ما قاله عنهما.

و بعد مضي شهر عاد أخوه الذي كان يدرس في الأزهر إلى القاهرة ، وقد وعد طه بأن يأخذه ليتعلّم في الأزهر ولكن لم يفعل، و قد طلب منه أن يقضي السنة في الاستعداد للأزهر وأعطاه كتابين الأول "ألفية ابن مالك" و الثاني"مجموع المتون" و أوصاه قبل سفره أن يحفظ الألفية فحفظها، و بعد أن أتقنها حفظ من الكتاب الآخر أشياء غريبة منها ما يسمى الجوهرة ومنها ما يسمى الخريدة وكانت هذه الأسماء تقع في نفسه موقع الإعجاب لأنه يعلم أنها تدلّ على العلم و أن أخاه الأزهري حفظها وفهم معانيها.

شعر طه حسين بالفرح عندما ذهب إلى الكتّاب يوم السبت ومعه نسخة من الألفية ،فالشيخ لا يحفظ حرفاً منها والعريف لا يقدر أن يقرأ الأبيات الأولى منها ،و قد كلّف الشيخ طه أن يذهب إلى المحكمة الشرعية كل يوم ليقرأ على القاضي ما يريد أن يحفظه من الألفية .

وقال طه حسين عن ذلك :" وكم كان فرحاً مختالاً حين غدا إلى الكتّاب يوم السبت، وفي يده نسخة من "الأليفة"! لقد رفعته هذه النسخة درجات ...ولكن الأليفة!... وما أدراك ماالأليفة ! وحسبك أن سيدنا لا يحفظ منها حرفاً، وحسبك أن العريف لا يحسن أن يقرأ الأبيات الأولى منها..."[2]

[1] عوض ، د.لويس ، "دراسات عربية وغريبة "، دار المعارف بمصر، القاهرة ، ١٩٦٥،ص١٥
[2] حسين، د. طه ،"الأيام" ص٧١.

وكان طه حسين فرحاً مبتهجاً لأنه يحفظ الألفية حتى وصل إلى باب المبتدأ ، فصعب عليه الأمر فأخذ يذهب إلى المحكمة متثاقلاً متباطئاً إلى أن وصل إلى باب المفعول المطلق، وبعدها لم يستطع أن يتقدم خطوة ، و كلما طلب منه والده أن يقرأ عليه ما حفظ قرأ عليه عشرين بيتاً من المئتين الأوليين .

كان له أخ يتعلّم في المدارس المدنية عرف أنه يخدع أباه ، و يكذب عليه وأراد أن يخبر أباه بالأمر، ولكن أمه توسلته بألا يخبره، وعندما عاد الأزهري امتحن طه حسين وعرف جلية الأمر ، فلم يغضب منه، و لم يخبر والده وإنما طلب من طه حسين أن ينقطع عن الكتّاب والمحكمة و حفّظه الألفية كلّها في عشرة أيام .

الدكتور طه حسين الذي كتب سيرته الذاتية وعمره أربعون عاماً قد لا تكون الأفكار التي عبر عنها في تلك السن وردت في مخيلته عندما كان طفلاً يتلقى علومه على يد شيخ الكتّاب لأن شخصيته خلال هذه المرحلة الطويلة التي تفصله عن الطفولة تغيرت فهو الآن يرى طفولته من خلال نظرات إنسان مثقّف معروف في الوطن العربي كله، فقد أصدر خلال هذه الفترة مجموعة من الكتب أثارت الكثير من المعارك الأدبية، ويأتي في مقدمها كتابه "في الأدب الجاهلي" الذي كان اسمه قبل أن يغيره "في الشعر الجاهلي".

ذكر الدكتور شوقي ضيف المعارك الأدبية التي خاضها الدكتور طه حسين بعد صدور كتابه"في الشعر الجاهلي"عام ١٩٢٦والتي وجهته إلى كتابة سيرته يقول: "ووجهته هذه المعركة العنيفة إلى النظر في شأنه وتطوره ،من هنا بدأ يكتب ترجمته الذاتية "الأيام " فأخرج الجزء الأول منها في سنة ١٩٢٩...."[(١)]

كان أحد شيوخ الطريقة يزور والد طه حسين وكانت زيارته مع أصحابه شيئاً ترغب به الأسرة رغبة شديدة لأنه يمكّنها من الفخر أمام الناس، وتكرهه كرهاً شديداً لأنه يكّلفها المال و المشقّة ،واتصال الأسرة بذلك البيت من بيوت الطريق كان قوياً لأنه ترك فيها آثاراً باقية من الأخبار والقصص وأحاديث الكرامات والمعجزات حتى إن والدة طه ووالده كانا يجدان لذة في أن يتحدثا إلى أبنائهما بتلك الأحاديث و الأخبار ،وبسبب ذلك حفظ طه

[١] ضيف، د.شوقي ،"الأدب العربي المعاصر في مصر"، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الخامسة ،ص٢٨١.

ألواناً من أخبار الكرامات المعجزات وأسرار الصوفية ، إضافة إلى ذلك ظهر باعة كتب تحمل في طياتها أشكالاً من السحر والشعوذة .

أرى أن الدكتور طه حسين كغيره من الكتّاب استفاد من الأخبار والقصص التي كان يسمعها في صغره من شيوخ الطريق، ومن كتب السحر والطلاسم التي كان يحملها باعة الكتب في القرى والمدن، وكذلك الأمر بالنسبة لمكسيم الذي كان يصغي إلى أحاديث وأساطير

الجدة التي كانت تقصها عليه وعلى غيره من الجيران،والكتب التي كان يستعيرها من زوج الخياط والملكة مارغو، وقصص والدة حنامينه التي كانت ترويها له عندما كان صغيراً في السويدية إضافة إلى قصص والده التي كان ينسجها ببراعة تثير انتباه الناس ومنهم الشوباصي ذاك الرجل الحازم ،أما أحمد أمين فقد ساعده ضغط والده عليه في الدراسة المكثفة على تشكيل مخزون في ذاكرته أفاد منه لاحقاً، يقول طه حسين في ذلك: "على أن صبينا لم يلبث أن أضاف إلى هذه الألوان من العلم لوناً آخر جديداً ، و هو علم السحر و الطلاسم ، فقد كان باعة الكتب يتنقلون في القرى و المدن بخليط من الأسفار " [(١)]

كان الناس يهتمون بتلك الكتب اهتماماً كبيراً ، و كانت عقولهم تتكون من خلاصتها وعِني طه بشيئين عناية خاصة هما: السحر والتصوف، ووجد أن التناقض الذي يظهر بينهما ليس إلا شكلياً فالفرق بين الساحر والصوفي هو أن الصوفي يتصل بالملائكة ،والساحر بالشياطين ، وطه كان يتصوف ويتكلّف السحر في الوقت ذاته .

ومن القصص التي كانت تكثر في أيدي الصبيان، ويحملها باعة الكتب ، قصة مأخوذة من "ألف ليلة و ليلة "، وتُعرف بقصة "حسن البصري "و تحمل هذه القصة أخبار المجوسي الذي كان يحول النحاس ذهباً ، وأخبار القصر الذي كان يقوم وراء الجبل على أعمدة شاهقة في الهواء ، و تسكنه بنات سبع من بنات الجن .

والذي ملأ طه حسين إعجاباً القضيب الذي أُهدِي إلى حسن ، وكان ذلك القضيب يتميز بأنّه يضرب به الأرض ، فتنشق ، ويخرج منها تسعة نفر يطيعون أوامر صاحب

---

[١]- حسين ،د.طه ، "الأيام" ،ج١،ص٩٦ .

القضيب ، وطه حسين لم يكن يميل وحده إلى السحر و التّصوف ، و إنما كان يدفعه إلى ذلك أبوه يقول: "و كان يلتمس هذا كلّه عند ا بالصلاة و الدعاء و الاستخارة ، وكان أحب رسائل الالتماس إليه وكان يطلب " عدية يسن" هذه إلى ابنه الصبي ؛ لأنه صبي ولأنه مكفوف"[١]

أما الشيخ فأشد النكبات التي تعرض لها أن رجلاً من أهل القاهرة جاء المدينة على أنه مفتّش للطريق الزراعية ، وكان مطربشاً يتكلّم الفرنسية، فسأل الشّيخ والد طه حسين إذا كان من حملة القرآن ، فأجابه: إنه من المجودين ، وهو أزهري، وتقدم في دراسة العلوم الدينية إلى مدى بعيد ، وبعدها انصرف عنها إلى المدارس، وتخرج في مدرسة الفنون والصنائع ،و طُلب منه أن يقرأ شيئاً ، فنزع الرجل نعليه و تربع ورتّل عليهم سورة هود ترتيلاً ما سمعوا مثله .

طلب والد طه حسين من ابنه أن يتردد على بيت المفتّش في كلّ يوم ،ففرح طه بذلك، و بدأ يقرأ القرآن من أوله على المفتش ، و المفتش يعلّمه مواضع الوقف والوصل ، وطه يقلّده في ترتيله ، وأخذ والده يمتحنه، وعندما سمعه يقرأ على تلك الشاكلة الجديدة أُعجِب بقراءته، و أثنى على المفتش وهذا الأمر أغاظ الشيخ ، و قد قضى طه سنة كاملة يتردد على المفتش حتى أتقن التجويد برواية حفص .

أجد أن الدكتور طه حسين في سيرته الذاتية يصف الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه والمرحلة التاريخية التي مربها ذلك المجتمع،فكان الناس يؤمنون بالسحر والشعوذة حتى إنه كان يحاول أن يصبح ساحراً لأهداف مادية، فهو يريد أن يحول النحاس ذهباً كما كان يحدث في مجموعة حكايات "ألف ليلة وليلة" وفكرة تحويل المعادن العادية إلى ذهب موجودة لدى الكتّاب العرب ولدى الكتاب الأجانب، فمثلاً الكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز،والذي حاز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢ يصور في روايته الشهيرة "مئة عام من العزلة" والتي صدرت عام ١٩٦٧ باللغة الإسبانية، وترجمها إلى اللغة العربية صالح علماني يصور شخصية جوزيه أركاديو بويندا الذي كان يحاول تحويل المعادن العادية إلى معدن ثمين، وهو الذهب، ويستعين في سبيل ذلك بخبرات المشعوذين الغجر.

---

[١] حسين، د. طه،"الأيام" ، ج١،ص١٠٤ .

- **أحزان عائلته:**

و تمر الأيام على طه حسين ويأتي يوم يذوق فيه الألم حقّاً ، فقد كان لطه أخت هي صغرى أفراد الأسرة كانت تبلغ من العمر أربع سنوات، وكانت خفيفة الروح فصيحة اللّسان أقبل العيد وبوقت قصير فقدت الطفلة نشاطها ، ولم يلتفت إليها أحد ،والأطفال في القرى يتعرضون إلى الإهمال ولاسيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد، وبسبب الإهمال فقد طه حسين بصره بعد أن أُصيب بالرمد ، وبعد أربعة أيام من مرضها وكان الوقت عصراً شعرت والدة طه حسين أن شبحاً مخيفاً يحوم على تلك الدار ، والموت لم يكن قد دخلها من قبل ، فقدت الطفلة حياتها .

كانت الساعة التي أقبل فيها بعض الناس،وحملوا الطفلة صعبة جداً على الأسرة حيث ساروا بها إلى المقبرة ، و كان ذلك اليوم يوم عيد الأضحى، ومنذ ذلك الوقت بدأ الحزن يتسلل إلى تلك الأسرة فما هي إلاّ أشهر حتّى فَقَد الوالد أباه الهرم ، و أيضاً بعد أشهر أخرى فقدت الوالدة أمها الطاعنة في السن.

وهنا يصف الدكتور طه حسين الأوضاع الاجتماعية ، والصحية فالطب ما يزال يمر بمرحلة بدائية، فأخته عندما مرضت لم تلقَ العناية الصحية المناسبة ،وطه حسين نفسه فقد بصره وأصيب بآفه العمى الكاملة علماً بأنه لم يصب إلاّ بالرمد، وهو مرض قابل ببساطة للعلاج وأخته خلال أيام فقدت حياتها بسبب مرض كان يمكن معالجته.

وقد أشار الدكتور محمود شريف إلى أن الدكتور طه حسين وقف في وجه الفقر والمرض والجهل وظهر ذلك واضحاً جلياً في روايته"دعاء الكروان " التي استقاها من بيئته،وشخصيته التي برزت في سيرته يقول: "وقد ربحت مصر كثيراً من حملات "طه حسين" ضد الفقر والجهل والمرض، وروايته "دعاء الكروان" وقفة مبكّرة له مع الطبقة الكادحة تحاول إنصافها ،وتتمنى لها السلامة والرقي، ومستقبلاً سعيداً رغداً"[1]

[1] - شريف،.محمود " أثر التطور الاجتماعي (السياسي ،الاقتصادي) "في الرواية المصرية ١٩١٢-١٩٥٣"،دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٨٦،ص٣٣٧.

حلّت الفاجعة الكبرى على العائلة في الحادي والعشرين في آب سنة ١٩٠٢ وكان وباء الكوليرا قد هبط مصر وكان لطه شقيق في الثامنة عشرة من عمره جميل المنظر ،ذكي ، ظفر بالبكالوريا،وانتسب إلى مدرسة الطب.

وقد ُأصيب الشّاب بهذا الوباء، واستدعوا له الطبيب، وبعد أن عاينه انصرف من الحجرة يائساً وأخبر رجلين من أصحاب الوالد بأنه يحتضر، وقد انهارتِ الأم على ولدها وماكادوا يبلغون به باب الدار حتى كان أول من لقي النعش العم الشيخ الذي كان الفتى يتمهل الموت دقائق ليراه، ومنذ ذلك اليوم استقر الحزن في تلك الدار، فكان عام ١٩٠٢ عام شؤم بالنسبة إلى هذه الأسرة إذ فقدتِ الأسرة ابناً في ريعان شبابه ، ويدرس الطب في ذلك الوقت.

- **أطوار الأزهر الثلاثة:**

وُأخبر طه حسين ذات يوم أنه مسافر بعد أيام إلى القاهرة للدراسة في الأزهر فإذا هو يرى نفسه يتأهب للسفر حقّاً،ووصل إلى القاهرة فوجد أن الصلاة في المدينة لا تختلف عن الأزهر،انتقل إلى العاصمة، وترك الريف وما فيه من عادات وتقاليد وأقام أسبوعين أو أكثر لايعرف من أمره شيئاً يسكن بيتاً غريباً، ويسلك طريقاً غريبة، يدخل من باب يفتح في أثناء النهار ، ويغلق في الليل ، يسمع صوتاً ويستحي أن يسأل عنه ، ثم عرف أنه قرقرة الشيشة كان يدخّنها بعض تجار الحي .

أشار الدكتور محمد حسين عبد ا إلى أن الواقعية جاءت بعد الرومانسية، وقد مهدت الرومانسية لها ولذلك يمكن أن نلمح مظاهر الرومانسية داخل الرواية الواقعية، ومن ذلك رواية طه حسين"دعاء الكروان"حيث يقول:"وقد أشرنا إلى "دعاء الكروان" التي لعب الحب فيها دوراً محركاً من بدايتها إلى نهايتها ،وكان هذا بمثابة ترجيح لطابعها الرومانسي ،ولكن الواقعية تطل في مشاهد شتى، حين يصف طه حسين الريف وبؤسه وسيطرة الأعراف الاجتماعية الضاربة على المصائر.."[(١)]

[١] عبد الله ،د. محمد حسن ، "الريف في الرواية العربية" ، مطابع السياسة ،الكويت ،١٩٨٩،ص٥٥

الطور الأول هو البيت وكان يمضي إليه في طريق ضيقة تأخذ أنفه روائح منكرة ، وأذنيه أصوات مختلطة أصوات النساء اللواتي يتخاصمن، وأصوات الرجال الذين يتنادون بعنف ، ويتكلمون برفق ، وصوت السقا ، وصوت الحوذي، أما السلم فقد كان متوسط الحجم ، وإذا وصل طه إلى أعلى السلم استقبل الهواء الطلق بوجهه ،وصوت الببغاء ،و كان يمر أمام بيتين يسكنهما رجلان من فارس أحدهما ما يزال شاباً ، والرجل الآخر كبير السن،ثم يصل بيته فيدخل غرفة أشبه بالدهليز ،و تنتهي به إلى غرفة واسعة غير مستقيمة قد وجدت فيها مرافق البيت وهي تضم غرفة نوم وطعام و جلوس و قراءة و دراسة معاً .

أما الطور الثاني من أطواره فهو الطريق بين البيت والأزهر فقد ذكر فيه أنه يستقبل حانوتاً كان له أثر عظيم في حياته، وهو حانوت الحاج فيروز الذي كان يبيع لأهالي الحي كل ما يحتاجونه في حياتهم من الغذاء يقول عنه:" كان للحاج فيروز في الحي وبين طلاّب العلم من أهله خاصة ، خطر عظيم ، فإليه كانوا يفزعون إذا تقدم الشهر أو تأخّر الراتب ،أو نفدت النقود.... " [1]

و الرسائل التي ترسل إلى الطلاب كانت تبعث باسمه وهذا خطر آخر، وكان طه حسين يسأل الحاج فيروز إذا وصلته رسالة فإن وجد له رسالة ذهب مبتسماً ،وإذا لم يجد ذهب عابساً.

كان يسير في طريقه تلك حتى يصل إلى مكان تختلط فيه الأصوات وترتفع ويستطيع أن يمضي أمامه، أو عن يمينه أو شماله أو يعود أدراجه ، ولكنه يمضي أمامه فيسلك شارع الحلوجي، و هو شارع العلم و الجد و العمل ، ثم يبلغ باب المزينين فيخلع نعليه و يمضي مع صاحبه، وقد تخطّى عتبة قليلة الارتفاع ،فينفرج له صحن الأزهر هادئاً يترقرق فيه نسيم بارد وهو نسيم الصباح.

ويكون بذلك قد وصل إلى الطور الثالث من حياته الأولى وهو الأزهر وهذا الطور أحب أطوار حياته إليه ، فالطور الأول وهو البيت كان يشعر فيه بالغربة ، والطور الثاني في طريقه تلك بين البيت والأزهر كان فيه مشرداً مضطرب الخُطى ،وكان لديه شعور غامض ،

[1] حسين، د.طه ،"الأيام "،ج٢،ص١٦٠ .

و لكنه قوي بأن هذا العلم لا حد له ، وقد رغب أن يمضي حياته كلّها و يبلغ من هذا العلم أكثر ما يستطيع أن يبلغ .

درس صاحبه في أصول الفقه، وكان أستاذه الشيخ راضي رحمه ا ، والكتاب الذي يدرسه الشيخ كتاب " التحرير " للكمال بن الهمام ،وكان طه حسين يقول عن ذلك :"ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة ، فيعرف الصبي أن الليل قد أقبل ، ويقدر في نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه ، ويقدر في نفسه أن لو كان معه في الغرفة بعض المبصرين لأضِيء المصباح فيما يظن المبصرون ، وإن كان ليراهم مخطئين في هذا الظن فقد كان ذلك الوقت تفرقة غامضة بين الظلمة والنور...." [1]

وقد كان ينصرف الشيخ ويتفرق الطلاب ويبقى طه مكانه حتى يعود إليه صاحبه من سيدنا الحسين حيث كان يسمع درس الفقه، ويمضي به حتى يخرجه من الأزهر إلى الطور الثاني ، ثم إلى طوره الأول فيلقيه في الغرفة على بساط قديم .

- **الأحداث والأشخاص في الربع:**

بعد ذلك يبدأ باستعراض خواطره التي تملأ رأسه، وهي خواطر الطريق ،وخواطر صحن الأزهر، وخواطر ما سمع من أستاذ الحديث وما سمع من أستاذ الفقه، وفي حديثه عن الإفطار فقد كان يختلف من يوم لآخر ليس في ما يحتويه من طعام و لكن فيما يحيط به من ظروف ، فقد كان هادئاً يوماً صاخباً يوماً آخر، هادئاً حين يأكل طه حسين مع أخيه،و صاخباً حين يشارك فيه زملاء أخيه الطعام.

فقد كانت ضحكاتهم تملأ الغرفة ،وأصواتهم كانت مرتفعة وطه حسين جالس ويده تذهب و تجيء في استحياء تصطدم بتلك الأيدي الكثيرة،وتناولهم الطعام لم يكن يتجاوز ربع الساعة، ويكونون بذلك قد أفرغوا الطبق من الطعام، ثم كان يذهب أحد هؤلاء الشبان، و يستخرج مقداراً من الفحم، ويعد الشاي حتى إذا بدأ الماء يغلي عمد إلى علبة الشاي الأحمر أخذ منه مقداراً من الشاي وضعه في الإبريق .

---

[1] حسين، د. طه ، " الأيام " ،ج٢،ص١٧٣.

بعد الانتهاء من الطعام والشراب يسترجعون ما سمعوا من الشيخ في درس الفجر ويسخرون من هذا الشيخ مرة ، ومن ذاك أخرى ، و يبقى طه حسين في مكانه يقّدم له نصيبه من الشاي، وفي وقت الظهر يتفرق الشبان، وقبل ذلك يلقي كل منهم نظرة سريعة على درس الظهر قبل الذهاب للاستماع إليه.

وقد أشار سامح كريم إلى سيرة طه حسين الذاتية في أجزائها الثلاثة، وفي حديثه عن الجزء الثاني يقول: "أما جزؤه الثاني من الأيام يقص علينا كيف نُقِل من الريف إلى القاهرة ومن الكتّاب إلى الأزهر الشريف، وكيف عاش تلك الحياة الجافة المؤلمة، ومواقفه التي اتخذها من مشايخ الأزهر،والإهمال الذي كان يلاقيه من عائلته، ثم رده على ذلك حين عاد ثائراً....وكيف أن بيئته بدأت تتنبه إليه، وتعامله بحذر بحيث تنقلب هذه المعاملة له من مجرد العطف إلى غير ذلك من المعاملة التي يحبها ويرجوها..."(١)

أكثر ما كان يعذّب طه حسين الوحدة ، فقد كان أخوه يتركه في غرفته بعد الدرس ، ويذهب إلى أصحابه في إحدى الغرفات، وطه يعلم أن القوم سيجتمعون حول شاي العصر، ويذكرون ما جرى معهم مع الشيوخ و الزملاء ، ويسترجعون درس الظهر ،ثم يعيدون درس المساء الذي سيلقيه الأستاذ الإمام محمد عبده ، وكان يرغب طه حسين في ذلك كلّه ، ولكن لا يستطيع أن يطلب من أخيه الإذن بأن يحضر مجلس هؤلاء الشباب .

وفي الليل كان يجد في المصباح إذا أُضيء مؤنساً ، وكان يجد وحشة في الظلمة ، ومع أن سكون العصر كثيراً ما كان يدفعه إلى النوم ، فقد كان سكون العشية يدفعه إلى اليقظة ، أما المؤذّن الذي يدعو إلى صلاة العشاء فيثير في نفسه أملاً ضئيلاً يتبعه يئس طويل، وهنالك تتصل يقظته الآمنة بنومه الممتع دون أن يشعر بذلك .

و فجأة يوقظه صوتان غريبان الأول صوت عصاً غليظة تضرب الأرض بعنف والثاني صوت إنسان متهجد يذكر ا ويسبح بحمده ، وقد ارتاح لهذين الصوتين حين سمعهما لأول مرة ، وهذان الصوتان كانا يوقظان طه حسين كلّ يوم في أول الثلث الأخير من الليل.

---

(١) كريم، سامح، "ماذا يبقى من طه حسين"، دار القلم ،بيروت ، طبعة جديدة،ص١٢٢.

كان الباب يطرق طرقاً عنيفاً ، و يد ذلك الصوت تقرع الباب وعصاه تضرب الأرض ،وقد اندفع معه الشباب ،وهم يغرقون بالضحك،وهكذا عرف طه الرجل وهو الحاج علي والحاج علي كان رجلاً شيخاً تقدمت به السن حتى جاوز السبعين، ولكن بقي محتفظاً بقوته كلّها.

ولد في الإسكندرية، واحتفظ بما لأهلها من قوة وعنف، وكان يتاجر بالأرز ، و بعد أن تقدمت به السن توقّف عن العمل بالتجارة، واتخذ لنفسه غرفة في ذلك الربع ، و قامت بينه و بين الشباب مودة متينة نقية ، ويعود إلى ذلك الشيخ تدبير طعامهم و لهوهم البريء في يوم الجمعة.

قضى الشباب فترة كبيرة مع ذلك الشيخ ، وشب طه في تلك الحياة الضاحكة بفضل العم علي على الرغم مما كان يعترضه من حزن وألم،ثم تفرقتِ الجماعة، وتركوا الربع وقلّت زيارتهم للشيخ إلى أن انقطعت ثم نسوه ، و في أحد الأيام حمِل إلى أفراد الجماعة نعي الشيخ فحزنت قلوبهم لكنهم لم يذرفوا الدموع عليه.

كان يسكن في غرفة أقصى الربع رجل متوسط السن قد جاوز الأربعين ، وكان ذلك الرجل يمنحهم الفّرح ، عاش في الأزهر أكثر من عشرين سنة، ولم ينل درجة العالمية

كان معتدل الحب للعلم ، و يبتدئ عامه مصمماً على أن يتأهب للامتحان ، فيقوم بالاتفاق مع جماعة من أصدقائه على أن يقرأ معهم ، ثم لا يمضي شهر أو شهران حتى يشعر بأن الحظ يعاكسه ، فيهمل ثم يكسل .

أكثر ما كان يعجب الشباب من صديقهم بأنه صاحب لذة،ويشعر باستمتاع عندما يفصل في الحديث عنها، وكانت تلك اللّذات التي يتحدث عنها بريئة أحياناً وآثمة أحياناً أخرى وأي شيء أبلغ تأثيراً في نفوس الشباب المحرومين من تلك اللّذات بريئها وآثمها .

كان طه حسين يسمع ذلك وهو جالس في مكانه ، ويقول في نفسه : لو علم الرجال مقدار ما يسمع لهم لاجتنبوا أن يتحدثوا مثل تلك الأحاديث أمام الصبية الناشئين . وأستشفّ

من حديثه هذا أن يتنبه الكبار للأحاديث التي يخوضونها، وأن ينتبهوا إلى وجود الصغار بينهم فتكون الأحاديث مناسبة لوجودهم وأعمارهم .

وبالحديث عن الواقعية فقد كانت واضحة لدى كتابنا وكل منهم عالج الواقع بطريقته، وقد ذكر الدكتور محمد التونجي إن الواقعية الاشتراكية ظهرت في الدول الشرقية ، وقد اختلفت نظرتها عن نظرة الواقعية الغربية للإنسان فالواقعية الغربية عدتِ الإنسان بؤرة للشرور ،أما الواقعية الاشتراكية فقد عدته خيراً معطاء مثّلها مكسيم في سيرته "جامعاتي " (١٩٢٣)،ورواية "الأم"(١٩٠٦).

أما الواقعية العربية فقد صورت في بادئ الأمر الواقع كما هو وظهر ذلك في سيرة طه حسين "الأيام" وذلك من خلال حديثه عن الشيوخ والواقع الاجتماعي وما يحيط به فقد عرضه عرضاً تصويرياً كما هو، بينما حنّامينه عالج قضايا العمال، فكانت واقعيته مذهباً، بينما أحمد أمين عرض الأحداث عرضاً تاريخياً فكان أقرب إلى المؤرخ منه إلى الأديب، فيقول الدكتور محمد التونجي عن الواقعية الشرقية: " كانت الواقعية الشرقية أكثر تفاؤلاً من الواقعية الغربية، ونظرت إلى الإنسان على أنه كثير العطاء ، فياض الخير...كمكسيم غوركي في "الأم" و"جامعاتي"...[١]

وفي حديثه عن الواقعية العربية يقول:"برزت فكرة الوقعية في بعض أرجاء الوطن العربي على أنها تصوير للواقع، فاعتقدوا أن مرامي هذا المذهب هي في تصوير الواقع كما هو....من ذلك "الأيام" لطه حسين أما الفئة التي أدركت الواقعية مذهباً واتجاهاً فقد عالجت قضايا الإنسان المشرد والعامل المكافح والفلاح المقهور كحنا مينا وعبد الرحمن الشرقاوي...."[٢]

عندما أحس ذلك الشاب بأن الحظ سيواتيه تقدم للامتحان ، وأقبل على اللجنة مع الصباح ، و كان قد دبر لنفسه حيلة ظريفة يرتاح بها من اللجنة إن ضغطت عليه ، فاشترى

---

[١] التونجي، د.محمد ،"دراسات في الأدب المقارن" ،حلب ،١٩٨٢،ص٢٨٤.
[٢] المرجع ذاته،ص٢٨٤-٢٨٥

بطيخة، وتركها قرب غرفة الامتحان ، وادعى بأنه مصاب بسلسٍ بولي ، فكان يقطع حواره فجأة ،ويستأذن في الخروج ، فإذا خرج ذهب إلى البطيخة يبرد بها جوفه.

وأخيراً ُأتيح له النجاح، وتفرق عنه أصدقاؤه مع الصيف ، و أخذته نزعته الصوفية ذات يوم فاعتكف في المسجد ، ولكنه خرج من الخلوة نحيلاً ، فلما رجع إلى أهله لم يستقبلوه فعاد إلى التهالك على اللّذات ، وبعد فترة جن، ثم انقطعت أخباره، وأنبأ المنبئ ذات يوم بأنه مات .

وهناك شاب يسكن غرفة من غرفات الربع ، كان مصدر فكاهة لهؤلاء الشباب هو شاب نحيف الصوت يكفي أن يتكلم ليضحكوا على صوته ،كان محدود العقل، ويتباطأ في الذهاب لدرس الأصول لأن الدرس كان يلقى مع الفجر ،وهو كان مؤثراً لراحته.

أصبح واحداً من هؤلاء الشباب يشاركهم في الدرس والشاي و الزيارات ، ولكن ا لم يفتح عليه أن يشاركهم في العلم والفهم،وأجمل ما كان يتندر به الشباب عليه علمه بالعروض أو قلْ جهله بالعروض لم يكن يذكر بحراً لأية قصيدة سوى البسيط ، فقد كان يسارع فيأخذ في تقطيع البيت، ويرده إلى البسيط مهما يكن وزنه فيقطع على الجماعة درسهم ويدفعهم إلى الضحك الشديد.

أقام هذا الشاب مع أصدقائه أعواماً طوالاً لم يزعجهم ولم يزعجوه، وتقدمت به السن وإذ به يترك العلم أوقل يتركه العلم ، وتمضي الأيام و يتفرق الشباب ،ولكن ذلك الشاب بقي يزورهم وإن لم يزوروه،وعندما اضطربت الأمور السياسية ، اتّصل بخصوم الإضراب مفشياً لهم أسرار المضربين،فانقطعت الصلة قطعاً عنيفاً بينه وبين أصدقائه ، ثم يأتيهم خبره في أحد الأيام بأنه قد مات فلا يحزنون عليه.

الأحداث بين الربع والأزهر

عاد الشباب إلى الربع بعد إجازة الصوم بشكل تدريجي، فكان يقبل الطلاب من بلادهم على مهل ، فإن أقبلوا زاروا بعضهم بعضاً ، ثم سعوا إلى دروسهم متباطئين، ولم يكد طه حسين يستقر في الربع حتى أخذ أهله يرجعون إليه فامتلأ بالحركة و النشاط .

كانت تقوم أسرة في زاوية الربع من يمين، كانت تلك الأسرة غريبة في الربع وغريبة في القاهرة فقد جاءت من الصعيد سكنت الطابق الثاني ، وكان سكّان ذلك الطابق غرباء كلّهم، وهم شيخ من الإسكندرية ، وفارسيان ، وطلاب ، و أساتذة ، أما الطبقة الأولى من الربع فقد كان العمال والباعة الذين يسكنونها من أهل القاهرة ، كانت تتألف تلك الأسرة التي سكنت الطابق الثاني من شخصين اثنين : امرأة جاوزتِ الستين، وابن شاب لم يبلغ الثلاثين .

كان الفتى بائعاً متجولاً يبيع في الشتاء غزل البنات، وفي الصيف دندرمة، وفي ذات يوم انقطع غناؤه،وقام مقام ذلك الغناء نسوة يقمن في تلك الغرفة متصايحات متضاحكات ثم مزغردات ناقرات على الطبول ، حتى تحولت حياة الطلاب إلى عناء ثقيل ولكن روّت حياة طه حسين لذلك، وامتلأت لذة فيقول في ذلك: "و قد جاء اليوم الأكبر يوم الخميس بعد أن لقي العلماء و طلاب العلم من هذا الاضطراب شراً عظيماً أزعج أصحاب الجِد منهم..."(١)

و لكن أخاه وأصحابه جراء ذلك هجروا الربع في ذلك اليوم ، وكان يقيم شخص آخر في الربع غير أنه لم يكن يسكن في غرفة بعينها ، كان هذا الشخص يزور و لا يزار ، و كان يزور و معه شخص آخر ،وتكون زيارته في الليل ، وفي أثناء النوم العميق ،وزيارته كانت حلوة البدء مرة العاقبة.

كان يسمى هذا الشخص بين هؤلاء الشباب أبا طرطور، فقد كان الشيطان الذي يلم بأحدهم في الليل ويأخذه في أثناء نومه ، فإذا انصرف عنه نهض من فراشه مستعجلاً ، حريصاً على أن يطّهر ليدرك درس الفجر ، وقد كان الأمر يسيراً في الصيف ، ولكن الجهد و العذاب كان في ليالي الشّتاء .

---

١ حسين ،د.طه ،"الأيام" ، ص٢٥٦

إن مااكتسبه طه حسين في الربع من العلم وشؤون الحياة والأحياء وأخلاق سكّانها لم يكن أقل قيمة مما اكتسبه في الأزهر من العلوم ،تعاقبتِ الأيام إلى أن أقبل اليوم الذي أُخبر طه حسين به أنّه سيذهب إلى الامتحان في حفظه للقرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر، ولم يكن طه قد أُخبِر بذلك ، فلم يتهيأ لذلك الامتحان.

بعد أن أنهى الطّالب الذي كان أمامه امتحانه سمع كلاماً مهيناً من أحد الأساتذة ، وهو عضو لجنة الامتحانات إذ طلب منه التقدم ونعته بالأعمى، أجد في ذلك إساءة معنوية لطه حسين ، والذي جعلها أكثر إيلاماً أن أحد الشيوخ ذكرها، وفي مكان علم يجب أن تقدر فيه المشاعر الإنسانية ، وقد تعود من أهله كثيراً من الرفق وعدم تذكره بآفه العمى.

وقد تحدث الدكتور محمد صادق الكاشف عن الصدامات التي كان يقوم بها طه حسين في حياته، ومنها الصدام في الأزهر وما فيها من سخط ظاهر الذي يخفي وراءها سخطاً باطناً على كبت حركته بسبب عاهته يقول:"ومنذ أن اقتدر طه حسين على الصدام والمواجهة في بيئته التعليمية بالأزهر، وهو ما يفتأ يعلن سخطه الظاهر على ما صدمه به الأزهر من الحجْر على حرية الرأي في النقاش ، والكبْتِ لحرية النقاش والحوار مازجاً هذا السخط الظاهر بسخطه المعنوي الثائر بسبب ما يعانيه من كبت عاهته لحركاته وإمكاناته وقدراته..[1]

طلب إليه الممتحِن أن يقرأ " سورة الكهف "، قرأ الآيات الأولى فأوقفه، وطلب إليه أن يقرأ " سورة العنكبوت " أخبره أحد الممتحنين بأن ينصرف، واستغرب طه لذلك الامتحان ، لكنّه انصرف راضياً عن نجاحه ، و تلقّاه أحد الفراشين وأدار حول معصمه سواراً من الخيط ، وكان يدلّ على أنه مرشّح للانتساب إلى الأزهر .

وقد أشار سعيد الجزائري إلى حياة طه حسين وأسلوبه الذي وصف فيه واقعه الاجتماعي والقرية والأزهر يقول:"الصبي الأعمى ، نهاره ليله ، في خطواته الأولى ، مع شيخه في كتّاب القرية، وفي البيت الكوخ ، وفي العائلة الخاصة بأفرادها الكثيرين وعائلها الوحيد ، الذي هو أبوه...والخير كل الخير أن نقرأ لا أن نكتب ، قصة الصبي، في كتابه "

[1] الكاشف، د.محمد صادق ،"طه حسين بصيراً"،الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ،مطبعة المدني ، الطبعة الأولى، ١٩٨٧،ص١٧٤

الأيام " وماذا في " الأيام" فيه طه حسين في كلامه بأسلوبه الوصفي ، لواقعه الاجتماعي في القرية في الأروقة الأزهرية ..."[1]

كان له ابن خالة ، وهو رفيق صباه ، وكان يأتي من بلدته لزيارته وقضاء الشّهر أو الأشهر يقرأان معاً ، ويلعبان، ويذهبان إلى المسجد، وفي أحد الأيام قررت عائلة ابن خالته أن ترسله إلى القاهرة ، فسر طه حسين كثيراً ،و قد تغيرت حياته كلّها منذ ذلك اليوم ، فلم يعد يشعر بالوحدة .

كان يقضي يومه أغلبه في الأزهر ، ثم يعود ليجلس مع صاحبه على فراشٍ ضيق حيث كان الصبيان يلهوان بالحديث قليلاً و بالقراءة كثيراً ، و إذا جاء وقت الدرس ، خرج مع صاحبه إلى الأزهر ، فسلكا الطّريق ذاتها التي كان يسلكها مع أخيه ، و كانا يسيران وهما يتحدثان بالجد مرة و بالهزل مرة أخرى .

كان يفرغ من درس الضحى ، ثم يعود إلى غرفته فيقرأ مع صاحبه ، فإذا غربتِ الشّمس تناولا طعام العشاء، ويختلف نوعه من يوم إلى آخر باختلاف ما بقي لديهما من نقود فالعشاء المترف يكون قطعة من جبن، وقطعة من حلاوة ، والعشاء العادي عسل أسود أو أبيض ، وبعد العشاء يسرعان إلى الأزهر ليحضرا درساً بعد صلاة المغرب .

و هكذا انتهت السنة الأولى ورحل الطلاّب، يتحدث عن ذلك فيقول: " ما أسرع ما انقضت السنة الأولى ! وما أسرع ماختمت دروس الفقه والنحو! وما أسرع مادعي التلاميذ إلى التفرق ثم إلى الرحيل..."[2]

ولكن أخيراً قرر العودة مع ابن خالته، وركبا في عربة من عربات النقل ، وبعد سير القطار نسيا أزهرهما و قاهرتهما وربعهما، وذهبت ذاكرتهما إلى الريف،وبذلك يكون طه حسين إنساناً عملياً يعطي كل وقت حقه، فإذا كان في الأزهر شُغل به، وإذا ذهب إلى الريف انصرف تفكيره إليه.

---

[1] الجزائري، سعيد، "أدب وأدباء"،مطبعة اتحاد الكتّاب العرب، دمشق ١٩٩٥،الطبعة الأولى،ص١٦١.
[2] حسين،د. طه ،" الأيام"، ج٢،ص٣٠٠.

وقد أشار الدكتور زكي نجيب محمود إلى اللمسة الشخصية في كتابة الدكتور طه حسين والعقاد لسيريتهما الذاتية يقول:"فتصور كاتباً كالدكتور "طه حسين" أو الأستاذ "العقاد" وقد أخرج لنا كتاباً في الحركات الأدبية في هذا النصف الذي انقضى من القرن العشرين ، كما عاشها هو ، أفلا ترى عندئذٍ أن لمسة شخصية تضاف على الموضوع فتكسبه حياة من نوع جديد؟"[١]

و عندما وصل القطار إلى المحطّة ، لم يجدا أحداً في انتظارهما ، وقد أزعجهما هذا الأمر ، و لما دخل الصبيان دهشتِ الأسرة لدخولهما و لم تكن تعرف بأنهما عائدان .

و بعد أن أمضى أياماً مع أسرته غير رأي النّاس فيه ، من خلال معارضته لبعض تصرفاتهم، فقد سمع الشيخ يتحدث إلى أمه ببعض الحديث في العلم و الدين ، فرفض طه حسين رأيه ورد عليه بأن كلامه فارغ ، فغضب الشيخ وشتمه، وزعم أنه أضاع في القاهرة تربيته الصالحة، وغضبت أمه منه ، و قد تجاوزت معارضته الدار إلى مجلس الشيخ وإلى المسجد فوصلت إلى المحكمة الشرعية .

حيث قال في ذلك:"وتسامع هؤلاء الناس جميعاً بمقالات هذا الصبي ، إنكاره لكثير مما يعرفون ، واستهزائه بكرامات الأولياء ، وتحريمه التّوسل بهم و بالأنبياء، و قال بعضهم لبعض : إن هذا الصبي ضالّ مضلّ ، قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة و آراءه الفاسدة المفسدة ، ثم عاد بها إلى المدينة ليضلّل النّاس."[٢]

كان والده يشعر بالسرور منه مع أنّه لم يصدق قطّ أن التّوسل بالأولياء و الأنبياء حرام،ولم يصدق أيضاً عجز الأولياء عن إحداث الكرامات ،و يبدو أن طه حسين انتقم لنفسه، وشغل الناس به، وقد أنذره والده أول الإجازة بأنّه لن يعود إلى القاهرة، وسيصبح فقيهاً يقرأ القرآن في المآتم والبيوت ، ولكنّه غير رأيه وسمح لابنه بالسفر إلى القاهرة .

[١] محمود د.زكي نجيب ،"في فلسفة النقد"، دار الشروق ،بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٧٩،ص٤٩.
[٢] حسين، د.طه،"الأيام" ،ج٢، ص٣٠٩.

نقده لشيوخ الأزهر وأحداثه:

درس طه حسين في الأزهر ، وغير الأزهر ، و أمعن في النحو والمنطق والفقه،ولم يجد في حياته شيئاً جديداً في ذلك العام ، إلاّ ما كان يفيده من العلم كلّما تعمق في الدرس،أما بالنسبة للشّيوخ فأشيع وأشنع ما كان فيهم هو الغيبة والنّميمة ، و قد روى الطّلاب الكبار قصة عن جماعة من كبار الشيوخ ، فزعموا أن هؤلاء الشيوخ لاحظوا أنهم قد بالغوا في الغيبة فتعاهدوا على الابتعاد عن الخطيئة ، و أن من يغتب غيره عليه أن يؤدي إلى أصحابه عشرين قرشاً .

سخط كلٌ من طه حسين وأحمد أمين على سيدنا وهو شيخ الكتّاب، وبعض شيوخ الأزهر لكن السخط لم يصل إلى حد الثورة الإيجابية، وقد تطرق الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم إلى ذلك فتحدث عن أحمد أمين في كتابه يقول: "كان يحس بالسخط والتمرد على سيدنا،وكذلك أحس بالسخط في مطلع شبابه على علوم الأزهر، وعلى بعض مشايخه لما كان يعانيه من جهد ومشقة في محاولة تفهم علومه، ومتونه سواء حين يجلس لدرسها بنفسه، أو بين يدي شيخ من شيوخه ، مما جعل كلامه عن الأزهر يشوبه لون من السخط والسخرية ، ولكنه كلام لا يبلغ حد الثورة الإيجابية، أوالسخرية الموجعة، لأنه لايلبث أن يتراجع لائذاً بطبيعته المؤثرة للسلامة والاستسلام..."[1]

وفي حديث عن الدكتور طه حسين وموقفه يقول: "فالصراع رغم أنه موجود لديه، فإنه لا يعبر عنه إلا بروح السخط والسخرية والاشمئزاز والازدراء ، لكنه لا يقدم إلينا مواقف إيجابية كافية ..."[2]

جاء أستاذ جديد يدرس الفقه ، وقد استشار أخاه حول التحاقه بدروسه فشجعه على ذلك، وقد أُعجِب طه حسين بطريقة أستاذه الجديد في دروسه الأولى ،و كان الأستاذ أنيقاً ، رشيقاً ، حلو الصوت ، و لكنّه إذا حلّ المساء ذهب إلى مكان لا يتناسب معه كأستاذ، وسمع الغناء ،و أقبل على اللذّات

---

[1] عبد الدايم، د. يحيى إبراهيم ،"الترجمة الذاتية" ،ص٢٨٧-٢٨٨

[2] المرجع ذاته ،ص٤١٣

لم يتفق طه حسين مع الشيخ إلاّ أسابيع، وبعدها شعر بأنه مقصر في تحضير الدرس وسأله ذات يوم سؤالاً فأجابه بالشّتم ، و لما روى طه حسين لأخيه وأصحابه ما يفعله الشيخ أنكروا ذلك، وتحدثوا فيما بينهم بأن العلم و السهر لا يجتمعان .

ولم يكن حظّه في المنطق أفضل من حظّه في الفقه و النحو ، لأنه لم يستمر فيه وذلك عائد إلى الأسئلة التي كان يطرحها على الشيوخ التي تحرجهم، وتكون الإجابة عنها غير مقنعة بالنسبة إليه.

ُأرسِل طه حسين إلى الأزهر ليدرس فيه ، و يبلغ الامتحان وينال الدرجة ،فيصبح شيخاً من شيوخ الأزهر ويسند ظهره إلى عمود من الأعمدة القائمة فيه ، ويتحلّق الطلاّب حوله ليسمعوا درساً في الفقه، أو في النحو، أو في كليهما ،و كان لا بد أن يمضي في طريقه الأزهرية حتى يصل إلى غايته في قسمين ، حيث يقضون ثلاث سنوات أوأربع في الأزهر . إحداهما علمية وهي الالتزام بالدروس، والثانية مادية فيها ثلاث مراحل : مرحلة المنتسب، و مرحلة المنتظر، و مرحلة المستحق .

وفي حديثه عن تلك المراحل يقول:" أما مرحلة المنتسب فهي المرحلة التي يبدأ الطالب بها حياته الأزهرية بعد أن يتم تقييده في سجلات الأزهر، ....وأما مرحلة المنتظر فقد كانت المرحلة الثانية ، ينتقل إليها الطالب بعد أن يقيم أعواماً في الأزهر.....حتى إذا خلا مكان بين المستحقين للجراية ارتقى إليه فبلغ المرحلة الثالثة، ونال جرايته رغيفين أو ثلاثة أو أربعة ..."[١]

وقد تحدث طه حسين عن سرقة الأحذية في الأزهر وهي عادة سيئة ومنتشرة،والمستغرب أنها تحدث في مكان مقدس وديني، هنا دليل على الحالة المتردية والفقر الشديد في ذلك الوقت، وما أكثر ما كانت تسرق النعال في الأزهر، وما أكثر ما كانت تلصق على جدران الأزهر أوراق يعلن فيها أصحابها أن نعالهم فُقِدت .

[١] حسين، د. طه، "الأيام"،ج٢،ص٣٣٢.

و في ذات يوم غضب القصر على شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، ومنعه من إلقاء دروسه ، فوجد النّاس أن في ذلك ظلماً للشيخ ، ولكنّهم لم يفعلوا شيئاً ،اجتمع مجموعة من طلاب الشيخ ، فذهبوا إليه وطلبوا منه أن يلقي عليهم الدروس في بيته ، فاستجاب لهم ولكن ذات يوم جادل طه حسين الشيخ في أمرما ، ولما طال الجدال، غضب الشيخ وأمره في سخرية أن يسكت، ونعته بالأعمى وألاّ يتدخل فيما لا يعنيه، فغضب طه حسين منه .

ولم يحضر منذ ذلك اليوم دروس الشيخ ، ولم يبقَ له أي أملٍ إلاّ في درس الأدب فالجدال الذي كان يدور بين طه حسين، والشيوخ يؤدي به إلى النفور من الدروس، وتركها ويعود ذلك إلى عجز الشيوخ الذين كان يجادلهم عن الرد على أسئلته.

أُشيع أن الشيخ المرصفي سيخصص يومين من أيام الأسبوع لقراءة " المفصل " للزمخشري في النحو ، فأقبل إلى الدرس الجديد، وقد أحب الشيخ طه، وأخذ يوجه الحديث إليه في أثناء الدرس ، ويصحبه بعد الدرس إلى باب الأزهر ، ويدعوه إلى صحبته في بعض الطريق ، فآثر طه حسين ذلك الدرس على غيره من الدروس .

لم يبقَ حول الشيخ بعد فترة إلاّ عدد قليل من تلاميذه الكثيرين، وظهر منهم ثلاثة فتيان، لم يلبث أن سمع الطلاب، والشيوخ خاصةً بنقد الفتيان الثلاثة للأزهر، وثورتهم على التقاليد، حيث كانوا ينظمون شعراً في هجاء الشيوخ والطلاب .

قام طه حسين وصديقاه بزيارة الشيخ ذات يوم، فلقياه على فراش متواضع في الدهليز إلى جانبه امرأة عجوز، فدهشا لما شاهدا ، وطلب منهما انتظاره في غرفته ، ثم أقبل ضاحكاً ، راضي النفس، وأخبرهما بأنه كان يعشّي أمه .

وبعد فترة دعي الفتية الثلاثة إلى حجرة شيخ الجامع حسونة وكان معه مجموعة من الشيوخ منهم الشيخ بخيت والشيخ محمد حسنين العدوي و الشيخ راضي و آخرون، فأقبل جماعة من الطلاّب وقد تقدمهم رضوان الذي اتّهم الفتية بالكفر لمقالتهم في الحجاج وقد أحصى رضوان على أولئك الفتية كثيراً مما كانوا يعيبون به الشيوخ ،وعندما سئِل الفتية لم ينكروا ذلك ، فدعا شيخ الجامع رضوان وأمره بمحو أسماء الطلاب الثلاثة من الأزهر ،وأقبل

الشيخ المرصفي فلقيه رضوان، وأخبره بلطف بأن شيخ الجامع قد ألغى درس الكامل فانصرف الشيخ وهو حزين .

لم يرض الفتية بتلك العقوبة التي فُرضت على الشيخ ، وفكّروا في طريقة تخلّص المرصفي من الظّلم الذي لحقَ به، ولكن واحداً منهم فارق صاحبيه ، أما طه لم يتوسل إلى الشيوخ ، وإنما كتب مقالاً عنيفاً هاجم فيه الأزهر وشيخ الأزهر خاصة وطالب بحرية الرأي.

كان مدير الجريدة يدعو إلى حرية الرأي، وقد لقيه لقاء حسناً فيه كثير من العطف وسأله:هل أراد أن يشتم الشيخ ويعيب الأزهر،أم أنه أراد أن يرفع عنه العقاب؟ وهنا تذكر نجاح عمر ذلك حيث تقول:"كتب مقالاً عنيفاً يهاجم فيه الأزهر كله وشيخ الأزهر خاصة ثم اختار الجريدة لأن مديرها "لطفي السيد" كان يدعو لحرية الرأي يومها تلقاه المدير بترحاب.."[١]

وقد كان جواب طه حسين هو الرغبة في رفع العقاب ، فطلب منه المدير أن يترك له تلك القصة ، وتبين له بعدها ولصاحبيه أن شيخ الجامع لم يعاقبهم، ولم يمح أسماءهم من سجلات الأزهر ، و إنما أراد تهديدهم فقط ،و بدأ منذ ذلك الوقت يتردد على مدير الجريدة حتى جاء وقت كان يلتقي به كلّ يوم ، وفي مكتب المدير حقّق شيئاً كان يرغب به دائماً، وهو الاتصال ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم .

- **بين الجامعة والأزهر:**

أُنشِئت الجامعة عام ١٩٠٨ وأقبل طه حسين عليها حيث كان يأخذه غلامه الأسود الذي أحضره والده لمساعدته إلى دروس الأزهر صباحاً ، و إلى دروس الجامعة مساء، فوجد للحياة طعماً جديداً. حضر أول درس من دروس الجامعة في الحضارة الإسلامية ، وقد فُوجئ بأمرٍ لم يعهده من قبل في الأزهر .

---

[١] عمر، نجاح، "طه حسين أيام ومعارك "،منشورات المكتبة العصرية ،بيروت –صيدا، ص٢٣.

والمقارنة الثانية التي أجراها كانت في طريقة تقديم الدروس للطلاب فيقول:" ثم راع الفتى بعد ذلك أن الأستاذ لم يقل في أول درسه:" قال المؤلف رحمه ا " وإنما استأنف الدرس يتكلم من عند نفسه ولا يقرأ من كتاب...وكان كلامه واضحاً لا يحتاج إلى تفسير .."[1]

وأجد أن طريقة تعامل أستاذ الجامعة مع طلابه تختلف عن تعامل شيوخ الأزهر من حيث التحية، وإلقاء المحاضرة تعتمد على إبداع المحاضر في الجامعة ، وعلى النقل من المؤلف في الأزهر .

وفي اليوم الثالث كان تحرقه لحضور الدرس أشد لأن الأستاذ سيكون إيطالياً، وسيتحدث باللغة العربية، و بشيء لم يسمعه هو ورفاقه من قبل ألا وهو " أدبيات الجغرافيا و التّاريخ" وقد كان الأستاذ أغنالسيو جويدي شيخاً كبيراً ، نحيف الصوت، و أغرى ذلك الطلاب بالضجيج فضاع الدرس الأول ،و لم تمض ثلاثة أيام منذ افتتاح الجامعة حتى تغيرت حياة طه حسين تغيراً كاملاً.

بعد أن اتصل بالجامعة لم يعد يمنح الأزهر من الوقت إلاّ أقصره ، و أخذ يحاول الكتابة ، وكان موزعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة ، أحدهما مذهب الاعتدال الذي كان يدعو إليه الأستاذ لطفي السيد ، والآخر مذهب الغلو والإسراف الذي كان الشيخ عبد العزيز جاويش يحرضه عليه ، فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة ، و إذا أسرف نشر في صحف الحزب الوطني .

وبعد تعاقب الأيام نسي ما كتب، لكن الناس لم ينسوه بل حفظوه له ، و طول لسانه قطع الصلة بشكل أكيد بينه وبين الأزهر، لم يتأثر بانقطاع الصلة بينه وبين الأزهر ، ولكن الحزن ملأ قلبه حين عرف سخط أبيه، وحزن أمه التي كان يحبها و يبرها.

وتحدث الدكتور شوقي ضيف (١٩١٠-٢٠٠٥)عن طه حسين الذي أراد أن يقطع صلته بالأزهر ويلتحق بحياة الجامعة بشكل كلي لولا أنه رغبة والده في إتمام دراسته بالأزهر فقد قال:"وعول على قطع كل صلة بينه وبين الأزهر لولا وجد عند أبيه رغبة في أن يتم

---

[1] حسين،د.طه "الأيام"،ج٣،ص٣٨٩-٣٩٠.

دروسه به فاضطر إلى أن يحيا حياة مشتركة، يتجاذبه فيها قديم الأزهر، وجديد الجامعة ..."[1]

جاء وقت الامتحان ، وهيأ نفسه لينال درجة العالمية ، وتلقّى الدروس التي يجب أن يعدها ليلقيها أمام اللجنة، وقدم الشيخ المرصفي إليه ليلاً ، فأخبره هذا الخبر العجيب و هو أن يستقيل من الامتحان ، لأن اللجنة تآمرت عليه وسترسبه.

رفض طه حسين أن يستقيل، وذهب للامتحان، و قد قضى في الدرس الأول ساعتين و نصف، ولقي فيه مناقشة شديدة ،وجدالاً قاسياً دخل الشيخ الأكبر ولم يسلّم، ورأى بأن اللجنة تضغط عليه، وطلب منهم الرفق ثم انصرف، لم يستجب له الشيخ دسوقي وانتهى الدرس الأول ، نُصح بالذهاب ليستريح ، و بعد قليل أقبل من يحمل المحفظة إليه وفيها قرار رسوبه في الامتحان ، وقررت اللجنة ألاّ تتم له بقية الدروس فأدرك طه حسين وصاحباه أن للمجد مكاناً غير الأزهر، وهو الجامعة.

أخذ طه حسين يكتب في الجريدة، وكان مدير الجريدة راضياً عن فصوله، وشجعه على الكتابة ،وكان يذهب إلى الشيخ عبد العزيز جاويش فيسمع له حديثاً ليناً، ويرى من وراء اللّين عنفاً إذا تحدثوا عن السياسة أوالأزهر و شيوخه، يقول:" وكان الفتى يختلف مع ذلك إلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه ا فيسمع صوتاً عذباً وحديثاً ليناً رقيقاً ،' ويرى وراء هذا اللين وتلك العذوبة عنفاً أي عنف إن ذُكِرت السياسة، أو ذُكِر الأزهر وشيوخه .."[2]

وقد تحدث طه حسين عن مرحلة مهمة من حياته وهي مرحلة التأليف ، فقد أصبح كاتباً ويعود الفضل في ذلك إلى رجلين : لطفي السيد و عبد العزيز جاويش، وكانت أعوامه العشرة الأولى من كتابته في الصيف حباً بالكتابة ولم يكسب منها مالاً.

أنشأ عبد العزيز جاويش مجلّة "الهداية "و طلب إلى طه حسين أن يشارك في تحريرها ، ثم ترك له الإشراف على التحرير ولم تخلُ " الهداية " من جدالٍ عنيف ، و قد أنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش مدرسة ثانوية كما فعل مصطفى كامل، وطلب من طه حسين أن يعلّم فيها

---

[1] ضيف، د.شوقي ،"الترجمة الشخصية"،ص١٢٠
[2] حسين،د. طه ،"الأيام"،ص٤١٧.

الأدب دون أجر، ثم لم يلبث أن انقطع كل ذلك فجأة حيث صرف الشيخ عنه بأحداث السياسة ، واضطر إلى الرحيل عن مصر ولم يره طه حسين بعد أن ودعه إلاّ بعد أعوامٍ طوالٍ .

ويمكن القول: إن عبد العزيز جاويش ساعد طه حسين في الخروج من بيئته المغلقة إلى الحياة العامة، وكذلك الأمر الأستاذ أحمد لطفي السيد(١٨٧٢-١٩٦٣) وبفضله لقي ذات يوم تلك الفتاة التي كان الناس يتحدثون عنها فيكثرون الحديث، كانت أول فتاة ظفرت بالشهادة الثانوية، وهي نبوية موسى ،وقد لقي طه حسين سيدات في بيئته الريفية ، و لم يجد بينهن القارئة الكاتبة التي تظهر في مجالس الرجال و تحاورهم ، وتخاصمهم ، قبل أن يلقى نبوية موسى .

تم الاحتفال ذات مساء في الجامعة بتكريم خليل مطران ، وكان الخديوي قد أهدى إليه وساماً،ولم يعجب طه حسين في الحفل إلاّ صوتٌ رقيق ، عذب فلم يحاول فهم الحديث وإنما شغله الصوت ، وكان صوت الآنسة مي زيادة، وقد أرق هذا الصوت ليلته تلك ، ولم يستطع طه في اليوم الثاني أن يمتنع عن السعي إلى مدير الجريدة.

وصل في حديثه إلى الآنسة مي زيادة وسأله المدير عما قالت ، فلم يحسن الرد، وشعر بالارتباك ، فقد أثنى المدير على مي زيادة و أخبر طه حسين إنه سيقدمه إليها في يوم قريب ، ففرح بذلك و ظلّ يترقب ، ولكن الأستاذ نسيه ، وحياء طه حسين منعه من تذكيره .

مضت أيام وشهور واستحقّ طه حسين من الجامعة درجة الدكتوراه عام ١٩١٤، كانت أول شهادة دكتوراه تمنحها جامعة القاهرة ، وكانت رسالته عن أبي العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧) بعنوان "تجديد ذكرى أبي العلاء"، أعطى طه الرسالة إلى مدير الجريدة فقرأها ورضي عنها ، ولم يردها إلى طه حسين لأن الآنسة مي زيادة طلبت أن تقرأها ، فظهر عليه الذهول و قال له أستاذه إنه لم ينس وعده بتقديمه إليها .

قُرّر يوم الثلاثاء للقاء الآنسة مي زيادة ، وفي ذلك اليوم وجد نفسه لأول مرة في حياته في صالون فتاة تستقبل الزائرين من الرجال حفيةً بهم في حديث عذب يخلب القلوب،و يستأثر بالألباب ،وكثُر الزائرون، و تناولوا أكواب الشاي وبعد انصرافهم جميعاً ، خلا للأستاذ

أحمد لطفي السيد مدير الجريدة، وتلميذه وجه مي زيادة فأثنت على رسالته ، وانصرف الأستاذ أحمد لطفي السيد وطه حسين بعد حين و في نفس طه حسين إعجاب كبير بصوتها.

ويذكر محمد عبد الغني حسن الحديث الذي دار بينه، وبين الدكتور طه حسين عندما حضر حفل تأبين مي زيادة حيث رأى أن حياة مي زيادة الأدبية لها مظهران مختلفان المظهر الأول مظهر الأديبة البارزة التي تنظّم الاجتماعات الأدبية، والمظهر الثاني مظهر الوحدة، والعزلة التي فضلتهما بعد وفاة والديها، وكانت عزلتها تدريجية تُذكّر بعزلة أبي العلاء المعري ، وقد انتفع الأدب العربي من هذين المظهرين وقد قال عن المظهر الأول :" تُنظّم هذه الاجتماعات في بيتها، وتشترك في كل اجتماع يشبهها إذا كان خارج بيتها، وليس من شك في أن الصالون الذي تستقبل المرأة فيه رجالاً يتحدثون فيما يتصل بالحياة العقلية من قريب، أو بعيد لم يكن جديداً في حياتنا العربية بل لم يكن جديداً في حياتنا المعاصرة ..."[١]

وبالحديث عن المظهر الثاني فقد قال :" أما المظهر الثاني الذي أشرت إليه فهو مظهر مي التي آثرت الوحدة،وألحت على نفسها في العزلة...وأخذ ميلها إلى العزلة يظهر بعد أن فقدت أبويها ، وبعد أن غمر الحزن نفسها المشرقة ، ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأة، وإنما قلّلت لقاءهم ..." [٢]

طلاب الجامعة وأساتذتها :

يذكر طه حسين أن طلاب الجامعة كانوا من مستويات مختلفة فمنهم الغني المترف و الفقير الذي لا يجد ما ينفقه ، والقاضي و الطبيب والموظف،وقد أخذت غرفات الجامعة تضيق بهم ، فقرر بعض الأساتذة أن يلقي محاضرته مرتين ، واضطرت الجامعة أن تنظّم الدخول إلى المحاضرة بسبب العدد الضخم للطلاب ، فلا تأذن بالدخول إلاّ لمن قدموا بطاقات الانتساب .

و قدِم طه حسين ذات مساء بصحبة غلامه الأسود ، وعندما وصل إلى الغرفة أظهر بطاقته فسمح له البواب بالدخول ، ولم يسمح لغلامه على الرغم من حاجته له ، فذهب إلى

---

١ حسن، محمد عبد الغني ،"مي أديبة الشرق والعروبة "،الناشر عالم الكتب،دار الثقافة العربية للطباعة ،القاهرة،ص١٧٨.

٢ المرجع ذاته ،ص١٨١

السكرتير العام أحمد زكي بك شاكياً مع الطلاب الساخطين على تصرف البواب ،ولكنه لم يساعدهم وأخبرهم بأن النظام يجب أن يطبق على الجميع.

انصرف الطلاب ساخطين على السكرتير العام ، و صحبوا طه حسين إلى الدرس وردوه إلى غلامه بعد انقضاء الدرس ، وأخذوا منذ ذلك اليوم يساعدونه ، و لو أطاع طه حسين نفسه في ذلك اليوم لانصرف عن الجامعة، ولكنه كان يحب الجامعة،وآثرها على كبريائه .

كان طه حسين يرى حياته في الجامعة عيداً وفرحاً ، فقد كانت تتيح له علماً جديداً في الأدب، وفي التاريخ، لم يكن يقدر أنه سيعرفه في يوم من الأيام ،أقبل أساتذة جدد استأثروا بحبه ، منهم الأستاذ الإيطالي المستشرق كارلونالينو، كان يدرس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأموي، والأستاذ سنتلانا يدرس بالعربية وبلهجة تونسية تاريخ الفلسفة الإسلامية ، و الأستاذ ميلوني يدرس باللغة العربية تاريخ الشرق القديم ولم ينس طه حسين موعداً ضربه لأستاذه سنتلانا ليحضر معه درساً من دروس الأزهر للشيخ الأكبر سليم البشري .

بدأ طه حسين يجادل كعادته الشيخ، ويرد عليه الشيخ رداً لا يقنعه، فيسكته الشيخ و يقول له أستاذه الإيطالي على شكل دعابة بأن يسكت حتى لا يضربه، وبعد انتهاء الدرس ذهب بأستاذه إلى إدارة الأزهر وطلب الإذن بالدخول على الشيخ الأكبر، فدخل طه حسين عليه وسأله الشيخ برفق: إن كان يجادل في الدرس ؟ فيجيب : بنعم . فيضحك الشيخ ،و يذكر طه حسين الكلام الذي قاله الشيخ بحقه :"ما شاء ا ، ما شاء ا ، فتح ا عليك ، و أشقاك بتلاميذك ، كما يشقى بك أساتذتك !" [1]

كان الأساتذة المصريون يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً ، فالأستاذ حنفي ناصف كان متفائلاً متواضعاً وصاحب طرفة وعلم ، فقد كان يدرس الأدب العربي القديم ،أما الأستاذ إسماعيل رأفت فكان يقبل على الدرس عابساً ، وينصرف عابساً ، ويأخذ في القراءة حتى تنتهي ساعة الدرس ،قد سحر الأستاذ الشيخ محمد الخضري طه حسين بعذوبة صوته وحسن إلقائه و أحب درسه في السيرة و تاريخ الخلفاء الراشدين .

[1] حسين، د.طه ، "الأيام" ،ج٣،ص٤٤٨.

كتب طه حسين رسالته التي تقدم بها للدكتوراه ، و نقد فيها أستاذه الشيخ محمد المهدي مصرحاً باسمه ،كان الأستاذ من الممتحنين ، فانزعج من هذا النقد ، ورفض أن يمنحه درجة الامتياز ، واضطرتِ اللجنة إلى أن تنزله إلى درجة جيد جداً .

لم يكن الأساتذة المصريون وحدهم الذين يملؤون الجامعة فكاهة،ودعابة ويتعرضون لعبث الطّلاب، وإنما كان الأساتذة الأجانب هكذا أيضاً ،فلم ينس طه حسين يوماً قرر فيه الطلاب الإضراب عن درس الأستاذ نالينو الإيطالي،لأن إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا وعندما دخل الأستاذ انصرف الطلاب خارجاً ، فانتظر الأستاذ لدقائق ثم خرج، وأخبرهم بأنهم كالرجل الذي أراد أن يغيظ امرأته فخصى نفسه ، و كان أثر ذلك الكلام لاذعاً، ولم يعد يفكر طلاب الجامعة في الإضراب .

- **السعي إلى تعلمه اللغة الفرنسية:**

كانت دروس الآداب الانكليزية والفرنسية تلقى في الجامعة ، ويحضرها الذين يحسنون هاتين اللغتين ، فاتفق طه حسين مع زميل له أن يسمعا درس الأدب الفرنسي ولبثا ساعة كاملة لم يفهما فيها إلاّ لفظة واحدة هي لافونتين(١٦٢١-١٦٩٥) التي رددها الأستاذ كثيراً ، ثم انصرفا و قد سميا تلك الساعة سجن لافونتين.

أثّرت تلك الساعة في حياتهما، فعدل المرصفي عن الجامعة ، أما طه حسين فقرر أن يتعلّم الفرنسية حتى لا يرجع إلى سجن لافونتين ،وبدأ بتعلم اللغة الفرنسية في المدرسة التي أنشأها الشيخ عبد العزيز جاويش، وسمع الدرس الأول من كهل مصري كان يبهره هذا النطق لكن طه حسين ظلّ واجماً لا يرى الحروف ولا يرسمها .

إذاً كان لدى طه حسين رغبة شديدة في تعلّم اللغة الفرنسية، والأخذ من الحضارة الغربية بما يفيده ، وقد ذكر الدكتور محمد حسين عندما تناول الخطوط الأساسية من كتاب الدكتور طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر" أنه رغب في الأخذ من الثقافة الغربية يقول:

"وقد مهد المؤلف لما أراد أن يذهب إليه من اتخاذ الحضارة الغربية طريقاً لنا.."[1]

فيذكر الدكتور طه حسين رغبته في سلك طريق الأوربيين ،لنصبح شركاء لهم في الحضارة :"نسير سيرة الأوربيين،ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ،ولنكون لهم شركاء في الحضارة ،خيرها وشرها،حلوها ومرها..."[2]

رأى الدكتور طه حسين أن من يرفض الأخذ من الثقافة الغربية هو مخادع ، لأنه يناقض نفسه، ففي الحياة العملية اليومية يظهر جانب التأثّر، ولا يوجد مبرر للنفاق، والوقوف في وجه التطور الثقافي يقول: "ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخادع ، والغريب أنّا نسير هذه السيرة، ونذهب هذا المذهب في حياتنا العملية اليومية ،ولكننا ننكر ذلك في ألفاظنا وعقائدنا ودخائل نفوسنا، فنتورط في نفاق بغيض لا أستطيع أن أسيغه ولا أن أسكن إليه.."([3])

شعر طه حسين بضيق من عدم إتقانه اللغة الفرنسية، و اضطر آخر الأمر إلى البحث عن معلم يلقّنه أوليات تلك اللغة تلقيناً منظّماً حتى استدلّ على أستاذ، وكان الدرس من الساعة الثانية إلى منتصف الخامسة .

كان الأستاذ النظامي رجلاً غريب الأطوار ، كبير السن ، معدماً، يتناول وجبة الغداء مع طه حسين و لا يأخذ منه أجراً ، لا يتحدث إلى طه حسين دقائق حتى يدركه الإعياء فيرتاح ثم يعود بعد ذلك و هكذا ... ولم يلبث أن ضاق به ، وصرفه صرفاً مهذّباً.

بدأ ينتقل من معلم إلى معلّم ، و يجد في ذلك مشقّة بسبب أجر الدروس، واختلاف أطوار المعلّمين إلى أن التقى رفيقه في الكتّاب محمود سليمان الذي ظفر بالشهادة الثانوية ، فقد كان متقناً للفرنسية ، فيسر له تعلّم اللغة الفرنسية دون أجر ، و بالمقابل علّمه طه حسين بعض قواعد النحو و الصرف .

---

[1] حسين، د.محمد محمد،"الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر الأول والثاني" (الجزء الأول من الثورة العرابية إلى قيام العالمية الأولى، مؤسسه الرسالة ،بيروت، الطبعة السادسة،١٩٨٣ ، ص٢٣١

[2] حسين ،د.طه ،"مستقبل الثقافة في مصر"،مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر،١٩٣٨،ص٤٥.

[3] المرجع ذاته ،ص٤٥.

الأصدقاء الذين ساعدوه في رسالة الدكتوراه،ودعوة الخديوي له.

في ذات يوم قرأ طه في الصيف إعلاناً في الجامعة تطلب فيه أن يتقدم الطلاب إلى بعثتين لفرنسا ، إحداهما لدراسة التاريخ ، و الأخرى لدراسة الجغرافيا ، فرغب في بعثة لدراسة التاريخ في السوربون ، و كتب إلى رئيس الجامعة الأمير أحمد فؤاد كتاباً أوضح فيه رغبته في البعثة، وقد اشترطت الجامعة شرطين خاصين به.

تحدث طه حسين عن الشرطين اللذين لا يسمحان له بالتّقدم ،وهما الأول : الشهادة الثانوية ، فقد بين أن نقصانه لا يضيره ، لأنّه تقدم للامتحان في الجامعة وأحرز الدرجات العظمى في جميع العلوم التي أجرى بها امتحاناً، والثاني أنّه مكفوف البصر ، ولكن هذا الأمر لا يمنعه أن يسمع دروس الأساتذة و يؤديها ولايمنعه أيضاً أن يكون طالباً أوأستاذاً، و فقد بصره قضاء ا ، ورغب ألاّ يكون ذلك عقبة في وجهه ، فرد عليه بالرفض.

حاول مرة أخرى بكتاب آخر، وبين فيه أنه لا يطلب من النفقات إلاّ المقدار الذي يطلبه غيره من الطلاب ، وقد رفض المجلس هذا الكتاب ، و لكن هوّن الرفض عليه فصيغ بصيغة التأجيل حتى يحسن اللغة الفرنسية ، وهذا الأمر لم يزده إلاّ عزيمة ، وبعد شهور كتب كتابه الثالث ، وبين فيه أنه قد وصل من تلك اللغة إلى مقدار لا بأس به .

قرر مجلس الجامعة النظر في إيفاده إذا ظفر بشهادة الدكتوراه ، وتقدم لهذا الامتحان وظفر بإجازة الدكتوراه ،وكان لطه حسين ثلاثة أصدقاء ، الأول عرفه في الجامعة ، لم يكن أزهري النشأة وإنما كان من فئة المطربشين ، بفضله استطاع أن يفرغ لدروس اللغات السامية ، ولم ينس طه يوم احتفل طلاّب الجامعة بوداع الأستاذ ليتمان ، فقد قام هذا الصديق وأثنى على الأساتذة و المستشرقين وعلى الأستاذ ليتمان خاصة باللغة السريانية ، فشعر الأستاذ ليتمان بالغبطة لذلك .

و أما الصديق الثاني فقد كان أزهرياً غير محب لدروس الأزهر ، كان قليل الاهتمام بزيه و شكله ، و لكنه كان معنياً باللغة يتتبع غريبها، ويحصي نوادرها ، حاول تعلم الفرنسية

فلم يحسن ، أقبل من الصعيد واحتفظ بلهجته ، وبفضله استطاع طه حسين الاطّلاع على آثار أبي العلاء عندما حاول أن يؤلف رسالته لنيل درجة الدكتوراه .

عندما رأى صديقه بأن طه حسين مستعد لإملاء رسالته كتب له ما كان يمليه ، وبحث له عن الشواهد التي يريدها ، ولكن كيف سيقدم الرسالة وليس لديه إلاّ نسخة واحدة ؟ و يحتاج إلى خمس نسخ ،وهنا يظهر الصديق الثالث ، و يحمل عنه هذا الثقل ، وقد كان أزهري النشأة ولكنّه كان مخالفاً لصديقه الثاني ، فقد كان حسن الصورة يعتني بزيه أشد العناية لقيه طه ذات مساء في قهوة الكلوب المصري .

كان طه يفكّر كيف سيقدم إلى الجامعة الرسالة، وليس لديه إلاّ نسخة واحدة ؟ فهون صديقه الأمر عليه واشترى أداة من أدوات الطبع ، واستأجر ناسخاً كتب الرسالة بالحبر الذي يلائم تلك الأداة ، وأصبح طه حسين أول طالب مصري يرشّح نفسه للظفر بدرجة الدكتوراه ،وحدد اليوم الذي تُناقش فيه الرسالة.

وظفر طه حسين بدرجة الدكتوراه في يوم الثلاثاء في الخامس من شهر أيار سنة ١٩١٤، و انصرف طه مع رفاقه، وقضى ساعات في بيت الزيات تحدثوا فيها عن الامتحان و نيل طه حسين الدرجة ، ولم ينم تلك الليلة ، فقد حال الابتهاج بينه و بين النوم ، و أصبح بذلك سفره إلى فرنسا ديناً له على الجامعة لابد أن تؤديه إليها .

و لم يمض على نيله درجة الدكتوراه سوى أيام حتى دعته الجامعة ،و أخبرته بأنه سيتشرف بالمثول بين يدي الخديوي، يتحدث طه حسين عن وقع النبأ عليه:" وجم الفتى لهذا النبأ وجوماً معقداً حقاً ، كان فيه السرور و الغرور..."[١]

أخذ يسأل نفسه أسئلة منها كيف سيسافر إلى الإسكندرية و مع من ؟ ثم في أي ثياب سيدخل على الأمير ؟ وماذا سيفعل بعد أن يخرج من القصر وأين سيقضي ليلته ؟ وأحس السكرتير بحيرته، فأنبأه بأن سفره ورجوعه سيكون على نفقة الجامعة فابتسم طه في

[١] حسين، د.طه ،"الأيام" ج٣،ص٤٩٩.

مرارة و شكره وانصرف ،ومساء ذلك اليوم رأه صديقه الغني فقرر مرافقته بدل غلامه وذكّره بأن علوي باشا قد منحه جائزة بعشرين جنيهاً فاشترى له معطفاً .

رأى طه حسين نفسه في قطار الإسكندرية، وفي الدرجة الأولى بصحبة صديقه و شفيق باشا رئيس ديوان الخديوي ،وصل القطار إلى الإسكندرية ذهب طه وصاحباه إلى القصر في عربة فخمة، لقيه الأمير في سماحة ، و أجلسه على أريكة، وجلس إلى جانبه وهنّأه بفوزه ، وسأله عما يريد أن يفعل؟ فأجابه بأنه سيحاول السفر إلى فرنسا لدراسة الفلسفة أو التاريخ ، فحذّره الأمير من دراسة الفلسفة لأنه وجدها تفسد العقول .

وقد تحدث الأمير عن ذهابه إلى باريس منذ سنتين، واستقبال الطلاب المصريين هناك فقد كانوا حاسري الرؤوس، في أيديهم قبعاتهم إلاّ واحداً منهم كان حاسر الرأس، ولكنه يمسك طربوشاً في يده ،وقد عرف أنه يدرس الفلسفة فرأى أن الفلسفة أفسدت عقله لأن صاحب الطربوش لا يرفعه عن رأسه، ثم أغرق في ضحك متصل .

و بعد ذلك ودعه شفيق باشا، وأسلمه إلى صاحبه وانسلّ الصديقان لا يهتم بهما أحد وذهبا إلى مكتب التلغراف حيث كتب الصديق إلى الجامعة برقية يخبرها بأنه التقى حضرة الجناب العالي ربع ساعة ..

أمضى طه حسين ساعات حلوة في الإسكندرية مع صديقه ، وعندما عاد إلى القاهرة دعِي إلى العشاء على مائدة علوي باشا مع أساتذته الذين أجروا له الامتحان ، و لكنه لم يأكل لشدة حيائه،و بعد أن فرغوا من طعامهم أخذوا يتحدثون، ثم قام الباشا إلى خزانته ، و أخرج منها ورقة وقد كانت شيكاً أعطاه لطه وهو جائزة لنيله درجة الدكتوراه، ومقداره عشرون جنيهاً.

- **الحرب العالمية الأولى، والبعثة إلى فرنسا:**

برت الجامعة بوعدها ، وقررت ضم الدكتور طه حسين إلى بعثتها بباريس، وتحدث بذلك إلى أهله وإلى الناس، وقد سر والداه بذلك ،وأخذ يهيئ نفسه للسفر ، ولكن انقلب فرحه

حزناً ، لأن الحرب أُعلِنت واستردت الجامعة طلاّبها من أوربا، وأوقّفت إرسال البعثة الجديدة ، ولذلك اضطر إلى الانتظار.

ويذكر الدكتور سعيد علوش من المغرب أن الأدب العربي سيكون له مستقبلٌ مشرقٌ، والذي سيجعله أكثر إشراقاً توثيق الصلة بينه وبين الآداب الأخرى، وقد رغب الدكتور طه حسين بتوثيق العلاقة مع الآداب الأخرى لتكون الفائدة أكبر، وظهر ذلك من خلال عزمه الشديد على السفر إلى فرنسا،يقول الدكتور سعيد علوش:"إن مستقبلاً مشرقاً ينتظر أدبنا العربي، وخاصة إذا توثقتِ الصلات الأدبية بينه وبين غيره من الآداب عن طريق المقارنة والموازنة والتأثّر والتأثير ، ولسوف ينتقل من عهد الإقليمية الضيقة إلى آفاق العالمية الفسيحة ، في أخوة متبادلة بينه وبين غيره من آداب العالم ..."[١]

قضى طه حسين في القاهرة أياماً طوالاً ثقالاً بسبب الحرب التي حالت بينه،وبين السفر إلى فرنسا ، فقد كان ضجراً ليس أمامه غاية يسعى إليها ، و كثيراً ما يسأل نفسه لم تعب وشقي، وتكلّف من الدرس و الامتحان، وظفر بما ظفر به من النجاح ؟

طه حسين لا يظهر لأحدٍ شيئاً من ضيقه وإنما يلقى الناس مبتسماً، وهنا ألمح قدرة الدكتور طه حسين على الصبر والتحمل فهو يعاني داخلياً بسبب تأخّر البعثة، ولكنه يظهر للناس عكس ما بقلبه،فما بداخله خاص به ،وهو وحده جدير بتحمله وتجاوزه .

ذات يوم خطر له خاطر ليخرجه من الملل ، ويبث في نفسه الأمل، وهو أن يكون أستاذاً في الجامعة وكتب بذلك كتاباً إلى رئيس الجامعة يطلب منه أن يعطي دروساً في تاريخ الآداب العربية دون أجر، فقُبل الطلب، ورفض ماعرضه من المجانية ، وساوم علوي باشا طه حسين على المكافأة وهي أن يدفَع له مبلغ متناسب مع عدد الطلاب الذين سيحضرون ،فرفض طه حسين العرض ففرض علوي باشا عليه خمسة جنيهات شهرياً.

[١] علوش، د.سعيد ،"مدارس الأدب والمقارن" ،الناشر المركز الثقافي العربي،الطبعة الأولى ،١٩٨٧،ص١٧٣.

دعته الجامعة بعد فترة، وقد لقي علوي باشا الذي أخبره بأنه مسافر بعد أيام إلى فرنسا فقد تحسنت الأحوال السياسية ، فسافر طه ومعه أخوه وقد رفضت الجامعة أن تتكفّل بنفقات أخيه.

أبحر مع الدكتور طه حسين طالبان أحدهما في الأربعين من عمره تقريباً ظفر بالشهادة الثانوية وانتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية ، و ظفر بدرجة الليسانس الفرنسية إضافة إلى عمله في ديوان من دواوين الحكومة ، أما الآخر فكان في الثلاثين، وقد تخرج في دار العلوم وتقدم لمسابقة الجامعة فنجح ، وأُرسل إلى فرنسا حتى يتخصص في الأدب العربي.

سافروا على متن سفينة اسمها أصبهان، وهي سفينة فرنسية فقيرة رخيصة غير معدة بشكل جيد تفضل التّمهل على السرعة،و قد بقي طه حسين في غرفته منذ دخل السفينة إلى أن خرج منها، وكان يتناول طعامه في الغرفة ، أصاب السفينة عطباً، فذُعِر المسافرون، ولكن كان في السفينة مهندسون، وعمال تمكّنوا من إصلاح العطب و أخيراً تحول الخوف والهلع إلى ضحك و ابتهاج .

وصلت السفينة، وبلغ الرفاق مدينة مونبليه التي أمرتهم الجامعة أن يتعلموا فيها، وقد قادهم رفيقهم الذي نيف على الأربعين إلى فندق حقير فقير كالسفينة التي عبرت بهم البحر .

شعر طه حسين بالسعادة في مدينة مونبليه حيث كان يقارن بين حياته في الأزهر و حوش عطا، وبين الحياة الجديدة في تلك المدينة الفرنسية فالطعام فيها لين وفي أوقاته المحددة وفي الجامعة لا يسمع درساً إلاّ وقد وجد فيه علماً لم يكن يعلمه سابقاً ، وعلى الرغم من قلّة حظّه في إتقان اللغة الفرنسية لم يكن يجد كثيراً من المشقّة في فهم الأساتذة .

أراد الظفر بدرجة الليسانس، ولم يكن الظفر بتلك الدرجة سهلاً في تلك الأيام فقد وجب عليه أن يحسن لغتين إحداهما اللغة الفرنسية والأخرى اللاتينية ، و أخذ طه حسين يتهيأ لإتقان اللغتين.

وقد تحدث الناقد محمد روحي الفيصل عن مزج الثقافات ليتولّد منها أفكار مشتركة بين الشعوب وهذه رغبة تملّكت الدكتور طه حسين لأنه كان يرى من خلال ذلك أنه يمكن أن يتم خلق أفكار جديدة ومفيدة يقول محمد روحي فيصل:"جميل جداً أن تتعاون الحضارات وتتمازج الثقافات ، وتتصل العقول الشرقية بالعقول الغربية ،لتخلص كلها إلى تفكير مشترك حي يقتات من روحيات أقوام متفاوتة الدماء والأصول والبيئات..."[1]

قيل له أن أستاذاً ضريراً يمكن أن يعينه ، و قد طلب مبلغاً معيناً أجراً له فأعانته الجامعةعلى ذلك المبلغ ، فأقبل على الكتابة البارزة ،ولم يلبث أن أحسنها، و لكن لم يجد فيها نفعاً لأن الكتب التي كان يحتاج إليها طُبعت على غير تلك الطريقة، فسئم ووجد أن ما يحصل عليه عن طريق أذنيه أسرع مما يحصل عليه عن طريق أصابعه، و لم يستغن عن أستاذه واستحى أن يطلب من الجامعة عوناً جديداً، فقتر على نفسه .

وفجأة في يوم من أيام الربيع ابتسمت لطه حسين الحياة عندما سمع ذلك الصوت الذي قرأ عليه شيئاً من شعر جان راسين فشعر وكأنه خُلِق من جديد، ومنذ ذلك الوقت لم يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً.

- **أزمة الجامعة المالية أعادته إلى مصر:**

أقبل ذات صباح صاحبه الدرعمي ينبئه بأن كتاباً قد وصل إليه من الجامعة جاء فيه بأن طلاب البعثة جميعاً يجب أن يعودوا إلى مصر فأصيب طه حسين بذهول عميق، و لكنه لم يستسلم لليأس، وأخذ يراسل القصر، وعاد الرد بضرورة العودة ، فرجع طه، وصاحبه الدرعمي إلى الوطن وهما حزينان .يقول:" ويرى الفتى نفسه ذات يوم من شهر سبتمبر يسعى مع رفيقه الدرعمي إلى السفينة، وكلاهما محزون كاسف البال كأنه لا يسعى للعودة إلى الوطن ، وإنما يساق إلى الموت.."[2]

[1] فيصل، محمد روحي،"شوارد قلم في الأدب والنقد"،دارطلاس للدراسات والترجمة والنشر،دمشق،١٩٨٤،الطبعة الأولى،ص٣٥.
[2] حسين،د.طه،"الأيام"،ص٥٤٣.

ردته الأزمة المالية التي أصابتِ الجامعة إلى وطنه خائباً لم يظفر بشيء فهو لا يكاد يدنو من غايته حتى تصده الحرب مرة ،وتصده الأزمة المالية مرة أخرى ،وقدصحبه الصوت أيام السفينة فكان يشعر باليأس حيناً، وبالأمل حيناً آخر.

بلغت السفينة ثغر الإسكندرية،وكانت مصر محتلّة من الإنكليز، وقد انتظر الصاحبان حتى تسمح السلطة لهما بمغادرة السفينة، والنزول إلى أرض الوطن يريدان أن تفتح لهما أبواب الوطن ،و يرغبان في أعماق ضميرهما أن تبقى مغلقة وأن ترجع بهما السفينة إلى مارسيليا لكن أبواب الوطن تفتح لهما أخيراً .

أقام الدكتور طه حسين في القاهرة ثلاثة أشهر تقريباً، وكان يشقى بالفراغ والبؤس ويسعد بتذكّر الصوت العذب، وهو صوت الفتاة الفرنسية سوزان التي قرأت له شيئاً من شعر جان راسين الذي كان يناجيه بين حينٍ و حين.

دعاه علوي باشا ذات يوم، وأخبره أن أزمة الجامعة قد انفرجت،وعليه التأهب للسفر،ثم أنبأته الجامعة بأنه سيتشرف مع زملائه أعضاء البعثة بلقاء السلطان حسين كامل وبعد إنهاء اللقاء قدم السلطان جائزة لكلّ واحد منهم مقدارها خمسون جنيهاً، ورغب الرفاق في التبرع بالجائزة للجامعة،ولكن علوي باشا ضحك، وطلب منهم أن يأخذوا أموالهم و يرفهوا بها عن أنفسهم، وقال أيضاً :إذا أصبحوا أغنياء يمكن أن يستأنفوا ما أقدموا عليه من خير .

رفضت شركة السياحة أن تصرف له تذكرة السفر إلاّ بإذن خاص من المفوضية الإيطالية ، لأن الشركة كانت تخشى ألاّ يؤذَن لطه حسين بالنزول في إيطاليا لأنه ضرير، و لكن الأستاذ أحمد لطفي السيد، والأمير أحمد فؤاد يسرا له السفر .

كان الدكتور طه حسين فرحاً لأن الأزمة انتهت، يقول:" كان سعيداً لأن الغمرة قد انجلت عنه فاتّصل من إقامته في فرنسا ما انقطع ، وأذن ا له في أن يتم ما بدأ من الدرس، ويحاول تحقيق ماكان يداعب من الآمال، ويسمع من جديد ذلك الصوت يقرأ عليه روائع الأدب الفرنسي ..."[١]

[١] المصدر السابق،ص٥٦١.

لما وصل مارسيليا نبهه رفاقه بلطف أن تقاليد الفرنسيين تقضي على مثله أن يضع على أجفانه نظارة من زجاج أسود، فاشتروا له النظارة، و قد ارتاح إليها بعض الارتياح حتى عاد إلى مصر، و في مصر لقيه أكبر إخوته، وكان مطربشاً ميالاً إلى الترف فلم تعجبه نظارته، و قال : بأنها رخيصة لاتليق به ، و أهدى إليه نظارة ذات إطار ذهبي .

ذهب الدكتور طه حسين إلى الجامعة ذات يوم، وقد قُرئ عليه كتابان، وعندما ذهب إلى منزله قُرئ عليه كتاب ثالث ، فملأت تلك الكتب قلبه غماً، وكرهاً للحياة وضيقاً من الناس وكان الكتاب الأول من علوي باشا يطلب من أكبر أخوته أن يساعد أخاه وأن ترسل الأسرة نصف المرتّب الذي كانت الجامعة تمنحه لطه حسين بسبب الأزمة المالية للجامعة، ويتبرع علوي باشا بالنصف الآخر .

شعر طه حسين بالسرور من علوي باشا ، ولكن رد أخيه على الكتاب محا من قلبه كلّ سرور فقد اعتذر فيه عن الأسرة بأنها فقيرة لا تستطيع أن تساعده فمرتبه ضئيل ،ووالده شيخ يتقاضى مرتباً قليلاً أيضاً ،وله بنون آخرون ينفق على تعليمهم ،وأما الكتاب الثالث فكان من أكبر أخوته يتمنّى له النجاح، ويطالب باسترداد نظارته ،رد طه حسين النظارة لأخيه الذي آلمه بتصرفه.

قُررت عودته إلى فرنسا ثانية، ولم ينس أنه أُجلِس في مكانه في القطار، ولم يبرح مكانه حتى وصل القطار باريس بعد ثلاثين ساعة وكأنه متاع و لكنه متاع مفكّر،يفكّر مرة فيما حفظ من قول أبي العلاء عن العمى بأنه عورة ، ويفكّرمرة أخرى في الغنى والفقر وفي الأغنياء الذين يكدسون المال، أو ينثرونه بما لا يجدي عليهم وعلى غيرهم نفعاً و بالذين لا يجدون ما ينفقون على طعامهم ولباسهم،و يفكّر مرة ثالثة في صاحبة الصوت العذب.

وصل الدكتور طه حسين إلى غرفة جميلة في فندق من فنادق الحي اللاتيني ، وجهز نفسه لاستقبال شخص طالما نازعته نفسه إلى لقائه منذ شهور، ولكن أصيبت تلك الفتاة صاحبة الصوت العذب بوعكة صحية جعلتها طريحة الفراش يقول في ذلك:"و بينما كان"الفتى" يمتحن بأثقال هذه الحياة المادية، والعقلية العسيرة مجاهداً مااستطاع الجهاد ، مروعاً بين حين وحين بهذا اليأس الذي كان يتراءى له من وقت إلى وقت فيشقيه، ويضنيه فُتِح له باب من

أبواب الأمل لم يكن يقدر أنه سيفتح له في يوم من الأيام ألمت علّة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب .."[1]

بدأ طه حسين يعودها ، ولكنه فجأة أخبرها بأنه يحبها ثم سمعها ترد عليه بأنّها لا تحبه ، فأخبرها بأنه لا يريد صدى لحبه، ويريد فقط أن يحبها، وانصرف بعد ساعة ، فالوعكة التي ألمت بصاحبة الصوت العذب ، والضعف الذي أصابها ،والإشفاق عليها من الألم كل ذلك أنساه تحفظه، وتحرجه فقال تلك الكلمة التي طالما أنكرها على نفسه.

عاش طه حسين بين السخط و الرضى أياماً لم يذق فيها للحياة طعماً ، وبعد أن شُفِيت صاحبته لقيها كعادته بها لم تزد إقبالاً عليه، ولم يلقَ منها إعراضاً عنه تقرأ له وتبين له ما يصعب عليه في أثناء القراءة ، فكبت حبه في أعماقه ، ولكن بعد فترة خلا إلى نفسه وأراد النوم فخرج ذلك الشعور المكبوت ومنعه من النوم حتى أوشك الصبح أن يشرق وبعدها استسلم للنوم .

ظهرت آثار الأرق على وجهه ،ولاحظ ذلك أهل البيت، وكذلك صاحبة الصوت العذب، وبقي على تلك الحالة حتى ظهر عليه الإرهاق، فحاولتِ الفتاة ذات يوم معرفة مابه وألحت عليه فأجابها بأمره كلّه ، فأخبرته بأنها فكّرت بما قاله، ولم تنتهِ بعد إلى قرار وأن الصيف قادم، وستبعث له بالرسائل، وإذا وجد في بعض رسائلها أنها تدعوه إلى قضاء بقية الصيف معها تكون بذلك موافقة على طلبه وإذا لم يجد فالصداقة باقية بينهما، فشعر طه حسين بسعادة غامرة ملأت قلبه .

جاء الصيف، وذهبتِ الفتاة إلى قرية في أقصى الجنوب وبقي طه في باريس وقد كلفت الفتاة زميلة لها بقراءة رسائلها،وبعد شهر وصلت رسالة تدعوه فيها إلى قضاء الصيف معها، ومع أسرتها، فشعر بسعادة غامرة لأن هذه الدعوة تعني بأنها قبلت عرضه وهو الزواج بها.

---

[1] حسين ،د.طه ، "الأيام" ج٣، ص٥٨٣.

ألغت سوزان كل ما كان يشعر به من حيرة، و كل ما كان مضروباً بينه و بين الحياة والأحياء والأشياء من الحجب والأستار كانت تحدثه عن الناس فينفذ إلى أعماقهم و عن الطبيعة، فيشعر بها شعور من يعرفها عن قرب كالشمس والسماء والأشجار و الأنهار فكان يخيل إليه أنّه يكشَف له عن حقائق كانت مخفية عليه، وأخذ ينجلي عنه الشعور بالغربة والوحدة و الضيق و السأم ، فقد جعلت فتاته الحياة بالنسبة إليه نعيماً ونوراً وسعادة.

أمضى صيفه مع الفتاة في الدراسة على غير عادة المحبين لأن لديه واجباً يجب أن يؤديه ففي أول النهار يقرأان اللاتينية ،ووقت الضحى الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون، وبعد الغداء تاريخ اليونان والرومان، وبعد الساعة الخامسة الأدب الفرنسي، وكانا يمضيان في الترفيه عن نفسيهما ساعة أو أقل، وأجد أن حبه لم يقف عائقاً أمام تحقيق أحلامه ،وإنما كان حافزاً له للجد والاجتهاد أكثر فأكثر يقول :"ولم ينفق الفتى وصاحبته صيفهما ذاك فيما تعود الفتيان المحبون أن ينفقوا فيه أيام حبهم الأولى...وإنما عرفا أن وقتهما أضيق من الفراغ للحب ونعيمه، فوقت الفتى من فرنسا محدود..."[1]

- **معاناته في نيل الليسانس،والدكتوراه:**

قرر الظفر بدرجة الليسانس ثم الدكتوراه، و لكن كان يجب عليه أن يتقن الفرنسية و اللاتينية ليقدم فيهما امتحاناً تحريرياً ، و قد قرر ثلاثة من الطلاب المصريين الظفر بدرجة الليسانس أما الأول فقد أخفق في الامتحان، وفقد عقله فرد إلى مصر،ثم تُوفى وأما الآخر فكان الأستاذ الدكتور صبري السوربوني الذي تقدم للامتحان أكثر من مرة، ولكنه كان يخفق في اللاتينية ويسلم الورقة بيضاء، ولم يعرف اليأس إلى أن استطاع أخيراً تجاوز الامتحان بنجاح.

اتّصف الدكتور طه حسين بصفات الأديب المبدع الذي يسعى دائماً إلى تذليل الصعاب بإصراره، وقد تحدث سامح كريم عن شخصية الدكتور طه حسين الراغبة دائماً في الأفضل يقول: "وبالنظر إلى تركيب شخصيته ،وما ينطوي على هذه الشخصية من جوانب، وقسمات نجدها شخصية محبة للقتال راغبة في الصراع أبداً طموحة لا يشبعها نجاح، ولا

---

[1] المصدر السابق،ص٥٩٨.

ترضيها شهرة لأنها ما تظفر بشيء حتى تزهده ،وتتطلع إلى أكثر منه، ولا تصل إلى مكان عالٍ حتى تطمح فيما هو أعلى..."[1]

الطالب الثالث من الطلاب المصريين هو طه حسين، الذي صمم على النجاح لكن مشكلة اعترضته، وهي أنه أعطى الجامعة وأعضاء البعثة عهداً بعدم الزواج في أثناء إقامته في الخارج، ولكن الجامعة رحمته، وأذنت له فقرر الزواج بعد نيل درجة الليسانس، وعندما أقبل الصيف بدأ يستعد للامتحان، وكان مصراً على النجاح، وفعلاً أُتيح له ذلك حيث أقبل ذات مساء الأستاذ صبري السوربوني فرحاً،وأخبره بأنه ظفر بدرجة الليسانس .

و في اليوم التالي أبرق إلى الجامعة ،وأخبرها بذلك ولم يمضِ يومان حتى أبرقت إليه الجامعة تهنئه، وترسل له مكافأة وقدرها عشرون جنيهاً ، وقرر الخطيبان في ذلك اليوم أن يتما زواجهما قبل رحلة الصيف إلى الجنوب، وتذكر طه حسين أن الجامعة سمحت له بنيل الدبلوم والليسانس، وتعفيه من الدكتوراه حتى لا يبقى فترة أطول في فرنسا لأن ذلك يكلفها نفقات أكثر فيقول :" كتبت إليه الجامعة تأذن له بنيل" الدبلوم" إن استطاع بعد "الليسانس "، وتعفيه من دكتوراه الدولة في التاريخ لأنها تطيل إقامته في أوربا، وتكلّف الجامعة من النفقات أكثر مما تطيق ، ثم أذنت له بتقديم رسالته عن "ابن خلدون" لنيل دكتوراه الجامعة..."[2]

و قد قطع طه حسين على نفسه عهداً بألاّ يقدم رسالة إلى جامعة أجنبية مهما يكن موضوعها حتى تقوم الجامعة المصرية بقراءتها ،وبعد أن نجح طه حسين في الليسانس أذنت له السوربون بطبع رسالته ، وقرر تأجيل الامتحان الشفهي بعد أن ظفر بالامتحان التحريري وعرض نفسه على طبيب ليشهد أنه متعب الأعصاب، و محتاج إلى الراحة، وفي التاسع من آب في ذلك العام أي عام ١٩١٧ أصبحا زوجين .

بدأ يستعد للامتحان الشفهي من تاريخ وجغرافيا وفلسفة، فيصبح وزوجه في التاريخ ويمسيان في الجغرافيا،ويتركان أمر الفلسفة إلى ا ثم إلى ذاكرة طه حسين ،وجاء موعد

---

[1] كريم ،سامح، "معرك طه حسين الأدبية والفكرية" ،دار القلم ،بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧،ص٦٣.
[2] حسين، د.طه ،"الأيام" ج٣،ص٦١١.

الامتحان حيث أقبل على أستاذ تاريخ القرون الوسطى، فطلب منه أن يحدثه عن الامبراطورية العربية في أيام بني أمية.

اندفع طه حسين في حديثه حتى أوقفه الأستاذ وأخبره: بأنه ظفر بالدرجة العليا وعندما جاء موعد امتحان الجغرافيا أمِل طه حسين أن يسأل عن الجغرافيا الاقتصادية،أوالبشرية، أو السياسية ولكن كان السؤال أن يصف مجرى نهر الرون فامتنع طه حسين عن الإجابة،وشعر بأنه خسر الامتحان، ثم تقدم إلى امتحان الفلسفة.

كان يظن في قرارة نفسه أنه راسب، وبعد فترة تهمس له زوجه في أذنه بأنه ناجح فيتملّكه الفرح فقد منحه أستاذ الجغرافيا درجتين ليبعده عن الإخفاق إن أُتيح له النجاح في غير الجغرافيا من مواد الامتحان يقول في ذلك ولم تتحدث إليه صاحبته في أمر هذا الامتحان، وإنما جعلت تتحدث إليه في أشياء كثيرة ليس بينها وبين السوربون وعنائها صلة، ثم تقبل عليه ذات يوم فلا تكلمه ولا تلقي إليه تحيتها، وإنما تقبله ثم تهمس في أذنه : لقد نجحت ! ولم يصدق الفتى ماسمع حتى أنبأته بأنها عائدة من السوربون حيث أُعلِنت أسماء الناجحين ، وفيها اسمه..."[1]

ثم يتحدث عن ذوق أستاذ الجغرافيا فيقول:" وعلم الفتى بعد ذلك أن الأستاذ ريمونجون أستاذ الجغرافيا لم يكن غليظ الطبع ، ولا قليل الحظ من الذوق ، فلم يمنحه الصفر الذي كان يستحقه ، وإنما منحه درجتين اثنتين ليعصمه من الإخفاق إن أُتيح له النُجح في غير الجغرافيا من مواد الامتحان...."[2]

- **وفاة الأستاذ المشرف على رسالة طه حسين:**

بدأ طه حسين يتهيأ لمناقشة الرسالة ،ولكنه لم يلبث أن روع بوفاة الأستاذ المشرف فحزن لذلك كثيراً ، وقد ندبتِ السوربون لمناقشته في رسالته طالباً من طلاب الأستاذ الفقيد وهو الأستاذ بوجليه، ويجب أن يناقش طه حسين قبل تقديم الرسالة بموضوعين يختاران له قبل اليوم المقترح للمناقشة.

---

[1] حسين،د.طه،"الأيام"،ص٦١٩.
[2] المصدر ذاته،ص٦١٩-٦٢٠.

اقترح الأستاذ الفيلسوف على طه حسين موضوعاً هو: " علم الاجتماع كما يصوره أجوست كونت "،أما أستاذ التاريخ أراد أن يناقشه في "القضايا التي رفِعت على حكام الأقاليم كما يصورها بلينوس الشاب في رسائله".

لم يشعر طه حسين بالخوف قط من امتحان إلا من ذلك الامتحان حين أخذ الأستاذ يناقشه، ولولاالحياء لا رتجف من الخوف ولكنّه ثبت ،ثم خلتِ اللجنة للمداولة،وعادت بعد لحظات فأُعلِن ترشّحه لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف،وبقي عليه أن يظفر بدبلوم الدراسات العليا ، وأراد حظه أن يعد رسالته في دبلوم الدراسات العليا بإشراف أستاذ التاريخ الذي أرهقه في المناقشة .

لقي طه حسين أستاذه في اليوم التالي وقد كلّفه بدراسة القضايا التي أقيمت في روما على حكّام الأقاليم الذين أهانوا جلال الشعب الروماني كما صورها المؤرخ العظيم تاسيت وطلب منه قراءة كتب معينة،ولكن هذه الكتب لا يمكن استعارتها لحاجة الطلاب لها في مكتبة الجامعة،وشراء هذه الكتب مشكلة كبيرة بسبب ثمنها، فكتب إلى الجامعة حتى تعينه على شرائها ، و لكنها رفضت إلاّ أنها بعد فترة أذنت له أن يشتريها، وينتفع بها على أن تكون ملكاً للجامعة ترد إليها بعد عودته إلى مصر .

كان إرهاق طه حسين واضحاً فأوقات فراغه كانت معدومة ،ودائماً كان يجد عراقيل تقف في وجهه لكنه كان يتخطاها بصبره ، وهذا ما لمسته لدى كتّابنا فكان الصبر خير سلاح يتسلحون به.

لما بدأ قراءته العسيرة حدث حادث قطع هذه القراءة، فقد سقطت القنابل على الحي اللاتيني، فدمرت أبنية قريبة من الدار التي كان يسكنها، وقد اضطر بسبب هذا الحادث إلى ترك باريس،والهجرة إلى الجنوب .

يذكر سعيد الجزائري رأيه بالدكتور طه حسين ، ويشيد بجهوده فيقول: "ربما لم يكن صحيحاً كل ما قاله الدكتور طه حسين في الأدب والنقد، ولكنه كان جميلاً في أحواله كلها أعطاه من ثقافته المتمكنة ،والعالمية ،ألوانها كانت قوس قزح.."[1]

عندما عادوا إلى باريس شُغِل عن الرسالة أكثر من شهرين بسبب رفيق مصري ألم به مرض عصبي خطير ، وليس له في باريس من يعتني به ،وقد كان يتلقى المال اليسير من الجامعة،ومدير البعثات لينفق عليه،ولم تمر الأزمة حتى تلقّى أمر الجامعة بإعادة الصديق المريض إلى القاهرة .

- **موقفه من الأحداث السياسية في مصر:**

وضعتِ الحرب أوزارها ،وأُعلِنت الهدنة وأخذت مصر تطالب باستقلالها، وقد ثارت بأعدائها فشعر طه حسين وزملاؤه بفرحة واعتزاز مما سمع من تلك الأنباء، فما أكثر ما أعرضوا عن الدروس ليتحدثوا عن الثورة و الثائرين ، وقد كان طه مؤثراً للعزلة ولكن في ذلك الوقت كثر لقاؤه بزملائه حيث خاضوا في أحاديث الثورة والثائرين ، ولكنه لم يهمل الرسالة وقد زادته أنباء مصر إقداماً واندفاعاً لتحقيق ما يصبو إليه.

كانت عودة الزوجين إلى مصر متعثّرة، وكانا ضيفين على أخيه ، و رغبا في أن يعيشا مستقلّين،وساعده في ذلك صديق له وهو الأستاذ محمد رمضان، فقد صحبه إلى شركة تسمى شركة التعاون المالي، وضمنه عند تلك الشركة، فأقرضته مئة جنيه،وجاء اليوم المنتظر، وأقبل طه حسين إلى قاعة الدرس.

ألقى درسه فرضي عنه الناس ورضي هو أيضاً عن نفسه،وكان تاريخ اليونان هو الموضوع الذي اختاره لدروسه في ذلك العام وكان عليه أن يتحدث عن بلاد اليونان جغرافياً فساعدته زوجه في وصف تلك البلاد على الورق وأجاد الوصف،فأعجب به المستمعون.

و في أحد الأيام أنبأه رئيس الديوان بعد لقائه له بأن السلطان يحب أن يراه ،وفي صباح اليوم التالي في الساعة العاشرة أقبل موظف القصر، و صحبه إلى حيث أسلمه إلى من

---

[1] الجزائري، سعيد، "أدب وأدباء" ،ص١٦٣.

صحبه إلى مكتب السلطان،واستقبله السلطان أحسن استقبال ، وفي أثناء حديثه ذكر بأنه كان رئيس الجامعة التي كان طه حسين طالباً فيها، وتذكّر بأنه انعقد مؤتمر في مصر للمكفوفين في سنة من تلك السنين ، و في ذات مساء كان طه حسين يسعى إلى غرفة الدرس فطُلب منه أن يلقي خطبة فيه، ولكنّه رفض وجاء يوم حين أقبل رفاقه، وأخبروه بأن سعد زغلول وأصحابه سيصلون إلى باريس .

لقي طه حسين مع زوجه سعد زغلول وكان لسعد زغلول دين عليه يرجع تاريخه إلى العام الذي قدم فيه رسالته عن أبي العلاء، وقد قدم عضو من أعضاء الجمعية التشريعية اقتراحاً يطلب فيه أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها خرجت ملحداً ، و لكن سعد زغلول رفض ذلك ، فشكره على ذلك في باريس .

و في الزيارة الثانية له في باريس لقيه سعد زغلول بفتور، وسبب ذلك أنه في ذكرى وفاة الأستاذ محمد عبده(١٨٤٩-١٩٠٥) خطب في ذلك الحفل فزعم أن مصر مدينة بما أتيح لها من اليقظة لثلاثة رجال هم الأستاذ محمد عبده، و قاسم أمين(١٨٦٥-١٩٠٨)،ومصطفى كامل ولم يذكر اسم سعد زغلول بينهم .

وقد ذكر بأنه عندما أنجز رسالته لم يرسلها إلى الجامعة في مصر وهي بدورها لم تسأل ، وقدمها للسوربون يقول:"وأقبل الصيف، وقدم صاحبنا رسالته إلى السوربون فرضيت عنها، ولكنه لم يرسلها إلى الجامعة ولم تسأله الجامعة عنها ..."[١]

- **عودته إلى مصر، وتقديم استقالته للجامعة، ثم عدوله عنها:**

قرر طه حسين ألاّ يعود وحده، وأراد اصطحاب زوجه معه فكتب إلى الجامعة بذلك فأذنت له وعندما وصلا إلى مارسيليا علما أن سفينتهما لن تبحر في الغد بسبب إضراب واستمرالإضراب خمسة وعشرين يوماً،ونفد ما لدى طه حسين من المال،فاضطرإلى الاستدانة من صديقه وعند وصولهما إلى مصر ودعهما الصديق، وقد جمع لهما المبلغ وأضاف الفوائدعليه وما أسرع ما طالب صاحبه بأدائه ومعه فوائده .

[١] حسين ،د.طه، "مذكرات طه حسين"، دار الآداب،بيروت ،الطبعة الأولى،١٩٦٧ ،ص٢٢٩.

و بعد فترة قصيرة تعقّدت الأمور بين الجامعة وبين طه حسين، فزوجه لم تعد تستطيع منحه من وقتها ما يحتاجه، ولا يمكن أن تصحبه دائماً إلى الجامعة بسبب ابنتها و منزلها، وطلب من الجامعة أن تقدم له المساعدة ليدفع أجر صاحب إلى الجامعة، ولكنها رفضت، فقدم استقالته في لهجة شديدة غضب لها مجاس الإدارة ،فأخبره سكرتيرالجامعة بأن الجامعة عزمت على قبول الاستقالة ، وعليه أن يدفع ما أنفقته عليه ، فهونت زوجه عليه الأمر، ونصحته أن يعود عن ذلك، وأن يعتذر عن لهجته القاسية .

لم يعلم طه حسين كيف ارتفع أمر الخصومة إلى السلطان، وأعلمه موظف القصر إنه سيقابل السلطان، وفي أثناء اللقاء أخبر السلطان إنه أحسن بالعدول عن الاستقالة، وبأن عليه أن يصبر ، فشعر طه حسين أن عليه ديناً يجب أن يؤديه للسلطان ، وبعد شهورأتم أول كتاب أصدره بعنوان" صحف مختارة من الشعر التمثيلي اليوناني " وأهداه إلى السلطان.

- **موقف الأدباء، وعامة الناس من الثورة:**

أمضى طه حسين في فرنسا أعوام الحرب العالمية كلّها، ولا يذكر أنه صرف عن أحداث الحرب، وأول مالاحظ بعد عودته إلى مصر أن العلماء، والمفكرين كانوا يؤمنون بالثورة، ولكنهم يؤمنون بأنفسهم أيضاً فقد كانوا يحسبون كل خطوة يخطونها، ولايتحرجون من نقد الساسة والقادة، وكان هذا الموقف يعرضهم للانقسام على أنفسهم .

وقد تحدث عامر العقاد عن المنهج الذي اتبعه الدكتور طه حسين، والعقاد يقول: "فالدكتور طه حسين ينظر إلى الأشياء نظرة المحقق الذي يرى أن يتقيد بمناهج البحث العلمي، وعلى هذا يرجع الخلاف بينه وبين العقاد على اختلافهما في المنهج ويقول في هذا الصدد :"ربما كان مصدر هذا الاختلاف أن العقاد ينظر إلى الأشياء الخاصة، والظواهر العامة نظرة الفيلسوف، بينما أنظر إليها أنا نظرة المؤرخ ،أو بعبارة أدق المحقق الذي يتقيد بمناهج البحث العلمي ، ولا يحلّق في هذه السماء الجميلة المزدانة سماء الفلسفة .."[1]

[1] العقاد ،عامر، "معارك العقاد الأدبية"،منشورات المكتبة العصرية ،صيدا ،بيروت ،ص٧٣.

كان عامة الناس والشباب مؤمنين بالثورة، وقد أخلصوا لها، فكانوا يعرضون صدورهم لرصاص الإنكليز ،وانقسم المصريون و ثارت بينهم فتنة ،ونظر طه حسين فإذا العلماء، والمفكرون قد انقسموا إلى فريقين كغيرهم من الناس: فريق منهم مال إلى الوفد، ووجد في سعد زغلول رئيساً لهم، وفريق آخر مال إلى الوزارة، ورأى أن المفاوضات لمن ولي الحكم، وقد مال طه حسين إلى الوزارة ورئيسها عدلي باشا، وكتب في صحيفة "المقطم " ساخراً من السعديين : فيقول طه حسين" يقول الوفديون: لارئيس إلاّ سعد كما يقول المسلمون: لا إله إلاّ ا "[1]

أخفق عدلي باشا ونُفي سعد بعد إخفاق عدلي بقليل، ورأى أصحاب عدلي أن نفي سعد إهانة للوطن كلّه،وبعد تصريح الثامن والعشرين من شهر شباط سنة ألف و تسعمائة و اثنتين وعشرين أُتيح لمصر أن تدبر أمورها بنفسها ، ويكون للشعب دستور، ويحيا حياة ديمقراطية كريمة مما يتيح لمصر مظاهر الاستقلال ، ولكن السعديين كانوا ينكرون ذلك التصريح، ويرون قبوله جريمة .

لم تهدأ الثورة، وثروت باشا بدأ يستعد لوضع الدستور، وإذا الخلاف يظهر بين القصر وبين ثروت باشا،وأصل الخلاف ديمقراطية الدستور، وقد أخبر ثروت باشا طه بأن القصر ساخط عليه، وأخيراً استقال ثروت لأنه لم يستطع إصلاح الأمر بين القصر والوزارة.

ووجد طه نفسه بين خصمين الأول أنصار سعد زغلول، والثاني القصر، وغرق في السياسة و احترق بنارها، ولم يقف حيادياً لأنه كان يرى في الحيادية جبناً ونفاقاً ،وكان الكثير من الناس يلومونه على أنه عرض نفسه للغضب والنقمة ولكنه كان مصراً على إشقاء نفسه في سبيل ما يرى أنه الحق فلم يفضل يوماً رضى السلطان على رضى الضمير .

ورد في جريدة الأسبوع الأدبي مقال يتحدث عن " الأيام" وأهميتها وترجمتها إلى لغات عدة: " في الأقطار العربية عبر جنس السيرة الذاتية عن نفسه في العشرينات من هذا القرن كجنس أدبي مستقل، ومشهور كتاب الدكتور طه حسين "الأيام" الذي صدر في عام

[1] حسين، د.طه،"الأيام" ، ج٣،ص٦٨٣.

١٩٢٩ ،ولقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عالمية كثيرة مباشرة بعد صدوره وأصبح هذا الكتاب نموذجاً لهذا الجنس الأدبي في العالم العربي تقاس به جودة السير الذاتية.."[١]

كتاب " الأيام" لا يقلّ أهمية عن الكتب الأجنبية المترجمة إلى العربية، وقد أشار أنيس المقدسي أيضاً إلى أن "الأيام" وغيرها من الكتب العربية تُرجِمت إلى لغات أجنبية، وهنا تظهر مسألة التأثيروالتأثّر واضحة جلية من خلال تلك الترجمات حيث يقول: "فمن أمثلة المنقول عن العربية إلى لغة أجنبية "الأيام" لطه حسين "شهرزاد "و"عودة الروح" لتوفيق الحكيم "الأطلال" لمحمود تيمور،"تاريخ التمدن الإسلامي"لزيدان، وبعض رواياته التاريخية ،" على بساط الريح"لفوزي معلوف وغير ذلك...... "[٢]

خاتمة:

الدكتور طه حسين كتب الجزء الأول من سيرته الذاتية بعنوان " الأيام"عام ١٩٢٩ أي عندما بلغ الأربعين من عمره، وكتب الجزء الثاني عام ١٩٣٩ أي عندما بلغ الخمسين وكان ذلك بعد أن درس في الأزهر مابين عامي (١٩٠٢-١٩٠٨) أي ست سنوات،ودرس في الجامعة المصرية ستة أعوام أخرى مابين (١٩٠٨-١٩١٤) وبعد دراسته التي قدمها عن أبي العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧م) بعنوان "تجديد ذكرى أبي العلاء " ونال عليها شهادة الدكتوراه ، وكانت أول شهادة دكتوراه تمنحها الجامعة المصرية، ودرس في فرنسا خمس سنوات من(١٩١٤-١٩١٩) ونال شهادة الدكتوراه وكان موضوع رسالته "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية"، وتزوج المواطنة الفرنسية سوزان عام ١٩١٧.

واستطاع هذا الفتى الذي فقد بصره، وهو في الرابعة من عمره، بسبب مرض الرمد وسوء المعالجة الطبية والذي جاء من عزبة الكيلو صعيد مصر، واستطاع إصدار مجموعة كتب قبل أن يكتب سيرته الذاتية مثل " في الشعر الجاهلي" (١٩٢٦) الذي عدله

[١] الأسبوع الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد ٣٣٥ ٢٩ تشرين أول ١٩٩٢م.
[٢] المقدسي، أنيس، "الاتجاهات الأدبية في العالم العربيّ الحديث"، دار العلم للملايين ، بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٧،ص٣٨٤.

وأصدره بعنوان آخر بعد عام واحد وهو " في الأدب الجاهلي"نظراً للضجة التي أثارها عن موضوع النحل في الشعر.

أما الجزء الثالث عن سيرته الذاتية فلقد أصدره الدكتور طه حسين قبل وفاته بست سنوات أي عام ١٩٦٧، إذ تُوفّي طه حسين عام ١٩٧٣، وكان خلال هذه الفترة ، قد تولى عمادة كلية الآداب أكثر من مرة، واستلم رئاسة جامعة الإسكندرية عام ١٩٤٢ ، وأسس جامعة عين شمس ،واستلم وزارة المعارف مابين عامي ١٩٥٠-١٩٥٢ وحصل على جوائز كثيرة منها جائزة الدولة للأدب عام ١٩٥٢، ووسام قلادة النيل عام ١٩٦٥ ،وأصدر بالإضافة إلى كتبه النقدية الكثيرة والعظيمة ست روايات،منها رواية "دعاء الكروان" وترجم عدداً من المسرحيات الإفريقية والفرنسية لسوفوكليس (٤٩٦-٤٠٦ق.م) ولبيركورني،وكتبت عنه الموسوعة العربية:" وربما كان كتابه "الأيام" وهو سيرته الذاتية من أفضل ماكتب في هذا الجنس الأدبي"[1]

الدكتور طه حسين أديب متميز ، وقد ظهر تميزه من خلال صبره على كل ما أحاط به من فقر وتخلّف وجهل،وتجاوز كل ذلك بإرادته الصلبة التي دفعته دائماً إلى التقدم وتخطّي الصعاب مهما كان نوعها فكانت الكتابة خير سلاح واجه به.

وقد تشابه مع الكتاب الثلاثة في قدرتهم على إثبات أنفسهم في مجتمعاتهم من خلال ما قدموه في سيرهم عرضوا فيها حياتهم بدرجات متفاوتة من الصراحة ولكنها صراحة مرضية لأن كل أديب منهم راعى عادات المجتمع وتقاليده، وحاول أن تكون صراحته متماشية مع تلك العادات والتقاليد ،إلاّ أن ما ميز الدكتور طه حسين عن الكتاب الثلاثة أحمد أمين و حنّامينه ومكسيم غوركي برأيي هو أنهم مبصرون،وهوأعمى فلم تكن تلك الآفة مثبطة لعزيمته بل كانت على العكس دافعاً له للجد والعمل فأضاء ظلمته بنفسه،وأشرق نور المعرفة على داخله فعكسه كتابات تروي ظمأ المتعطشين للأدب والمعرفة.

---

[1] الموسوعة العربية ، رئاسة الجمهورية ، هيئة الموسوعة العربية ،المجلد الثامن، دمشق ، الطبعة الأولى ،٢٠٠١،ص٣٢٣.

مقدمة الفصل الرابع:

يعرف أحمد أمين (١٨٨٧-١٩٥٤) الأدب في كتابه " النقد الأدبي" بمايلي : "وخير تعريف للأدب أنّه التعبير عن الحياة أو بعضها بعبارة جميلة"[1] ويرى أحمد أمين أن عناصر الأدب أربعة وهي العاطفة والفكر والخيال والأسلوب، وبذلك فإن الناقد عبر عن سيرة حياته كما هي يقول، بعبارة جميلة ، وعاطفة صادقة، وأسلوب واضح وخيال غني بالصور الجميلة فهو لم يزين حياته على حساب الحقيقة ، وكان صريحاً تشبه صراحته صراحة ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) في سيرته الذاتية بعنوان " سبعون" (١٩٥٩) والتي كتبها في ثلاثة أجزاء بمناسبة مرور سبعين عاماً على ميلاده.

حصل أحمد أمين على ثقافة واسعة فدرس في الأزهر ، ودرس في الجامعة المصرية ، ويشهد كتابه" قصة الأدب في العالم" على ثقافته الواسعة، وبذلك فإن أحمد أمين اطّلع على السير الذاتية في الآداب العالمية وتأثربها ومنها السيرة الذاتية لعملاق الأدب الروسي ليف تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) في ثلاثة أجزاء "الطفولة" (١٨٥٢) و"المراهقة" (١٨٥٤) والشباب (١٨٥٧)، وكذلك اطلّع على رواية "ديفيد كوبر فيلد" (١٨٥٠) للروائي الإنكليزي تشارلز ديكنز (١٨١٢-١٨٧٠) وهي معالجة فنية لسيرته الذاتية مثلها مثل سيرة ليف تولستوي وسيرة غوركي الذاتية.

اطّلع أحمد أمين بشكل معمق على السيرة النبوية فهو درس في الأزهر ، كما أسلفنا ، وهو كتب ثلاثيته الشهيرة عن تاريخ الإسلام وبذلك فإن أحمد أمين اطلع على السيرة الذاتية العربية والعالمية قبل أن يكتب سيرته الذاتية، وتوخى الموضوعية في وصفه لعصره ولأدبية الأدب كما يقول مؤسس المدرسة الشكلية الروسية رومان ياكبسون(١٨٩٦-١٩٨٢) أي العنصر الذي يجعل الأدب أدباً وهو توهج الجمال، لأن الأدب برأيه ليس لعرض الأفكار فقط، وإنّما الناحية الجمالية هي التي يجب أن تظهر على حساب العناصر الأخرى.

---

[1] أمين، أحمد ، "النقد الأدبي" ، الجزء الأول ، دار الكتاب العربي ، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧،ص١٧.

- **تقارب أحمد أمين من طه حسين**

ينتمي أحمد أمين إلى الجيل نفسه الذي ينتمي إليه طه حسين،وكانت تربط بينهما صداقة وهو أكبر من طه حسين بثلاث سنوات ولكن عمره كان أقصر من عمر طه حسين حياة طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣)،أحمد أمين(١٨٨٦-١٩٥٤) كلاهما درس في الأزهر وكلاهما كتب عن التاريخ الإسلامي والشخصيات الإسلامية طه حسين كتب"على هامش السيرة"أحمد أمين كتب"فجر الإسلام" وكلاهما درس في جامعة القاهرة.

بدأ طه حسين حياته بالمرض والفقر ، وأنهى حياته بالاستقرار والهدوء والسعة بفضل تدريسه في الجامعة،وكلاهما عمل عميداً لكلية الآداب في فترات مختلفة في القاهرة،كلاهما زار الغرب وكلاهما مؤمن بأفكار الشيخ محمد عبده رئيس جامعة الأزهر،ومفتي الديار المصرية كلاهما كتب عن الأدب الغربي لطه حسين بعنوان "الأدب التمثيلي الغربي" لأحمد أمين كتاب في ثلاثة أجزاء "قصة الأدب في العالم".

وقد رأت الكاتبة تهاني عبد الفتاح شاكر أن هناك تشابهاً واختلافاً بين طه حسين وأحمد أمين ، التشابه يكمن في بعض الجوانب المتعلقة بالمضمون والاختلاف في البناء الفني حيث تقول: "طه حسين قد استعان بالعناصر الفنية للقالب القصصي كالتصوير، والتشخيص ،واعتنى بتصوير الصراع الداخلي والخارجي ،أما أحمد أمين فإنه استعان بالأسلوب التقريري الإخباري الذي يصور الحقيقة كماهي فلا يضفي عليها شيئاً من ذاته.." [١]

رأى أحمد أمين أن ما ورثه من آبائه و الحياة الاقتصادية و الدين واللغة و الأدب الشعبي ساهم في تكوين شخصيته إلى حد كبير،أسرة أبيه من بلدة سمخراط وهي أسرة فلاحة مصرية تعيش على الزرع عانوا من ظلم السخرة، و تحصيل الضرائب فهجروها، و سكنوا القاهرة ، وأصل أمه من تلا من أعمال المنوفية، وقد هجروها ولا يدري أهجروها فراراً من الظلم أم لشيء آخر ، و سكنوا في حي في وسط القاهرة فكان بيته أول مدرسة تعلّم فيها يقول : "كانت أول مدرسة تعلمت فيها أهم دروسي في الحياة بيتي ".[٢]

---

[١] -شاكر، تهاني عبد الفتاح، "السيرة الذاتية في الأدب العربي" ، ص٧٩.
[٢]- أمين، أحمد ، "حياتي" ،ص٩.

كان أبوه مولعاً بالكتب في شتى العلوم ، وقد مكّنه عمله مصححاً في المطبعة الأميرية أن يقتني كثيراً مما طبع فيها ،وقد استفاد أحمد أمين منها ، ولد في الساعة الخامسة صباحاً من أول تشرين الأول سنة ١٨٨٦ ، وكان رابع ولدٍ للأسرة ،توفُت أخت له في الثانية عشرة من عمرها و هي تُعد القهوة، جرى حادث واحترقت ، وكانت أمه حاملاً به ، فأُستقبل عند ولادته استقبالاً حزيناً .

كان بيت هذه الأسرة جاداً والسلطة تعود للأب في أمور البيت كلها ، أمه كانت قصيرة النظر فورث عنها قصر النظر،وعانى من ذلك في حياته الشيء الكثيرفإذا تقدم للدخول في دار العلوم حرم من ذلك لقصر نظره ، أوالدخول في مدرسة القضاء، أو تثبيته في وظيفة رسب في امتحان النظر .

- **أحداث الطفولة الثلاثة المستقرة في ذاكرته:**

رجع بذاكرته إلى أقدم أحداث طفولته فذكر منها ثلاثة الأول و هو في الرابعة من عمره، فقد خرج من حارته فوجد بناء وله باب مفتوح فدخله ، كان ذلك البناء جباسة شاهد ثوراً كبيراً علّقت في عنقه خشبة، وربطت بأسطوانة من الحديد وضع تحت الحديدة حجر أبيض إذا دارت عليه طحنته فكان جبساً، فشُغل به وقضى أكثر من ساعتين وبحثت أمه عنه فلم تجده في البيت.

كان يشاع في ذلك الوقت بأن هناك قوماً يخطفون الأولاد، ويسفّرونهم إلى البلاد النائية للعمل ، فاستأجروا منادياً لينادي عليه، ويختمها بكلمة يا عدوي وذُكِر أن العدوي هو شيخ من أولياء ا الصالحين موكل برد الضائع إلى أهله .

و هو في الجباسة جاء رجل، وطرده فشتما بعضهما، وعندما عاد إلى البيت نهرته أمه، وحكى القصة بلغة مكسرة فكانت القصة تثير ضحك الأسرة فطلُب منه أن يعيدها، و لذلك ثبتت في ذاكرته .

أما الحادث الثاني الذي وقع عندما غرق في الميضأة حين ذكر أن والده أخذه إلى المسجد ليصلّي فخلع والده جبته ،وذهب إلى الميضأة ليتوضأ ، كانت الميضأة عبارة عن

حوض ماء نحو ثلاثة في ثلاثة يملأ بالماء من فترة لأخرى ، ومن أراد أن يتوضأ يرجع الماء بعد الانتهاء من الوضوء إلى الميضأة، و بذلك تصبح الميضأة مصدر بلاء كبير.

ومما أُخذ على الشيخ محمد عبده أنه أبطل ميضأة الأزهر، وأحلّ محلّها الحنفيات،والميضأة عادة سيئة لما فيها من انتشار للأمراض، والأوبئة لأن الماء يلوث بتلك الطريقة ،وفكرة محمد عبده جيدة تحافظ على صحة الأشخاص، توضأ والده وذهب بعدها إلى الصلاة وبقي أحمد أمين قرب الميضأة فسقط، وغرق فيها لولا أن أباه كان قريباً فانتشله منها وأنقذه من الموت.

أما الحادثة الثالثة فهي أنه مر بحارتهم شخص، ومعه دف أطربه ولذلك تبعه واستمر ذلك إلى بعد العشاء ، وكان والده ينتظره ولما عاد إلى البيت أخذ يضربه دون أن يسأله عن سبب تأخّره، يقول في ذلك :" فلما دخلتُ البيت أخذ يضربني من غير سؤال ولا جواب ولو كان أبي فناناً لقبلني لأنه كان يكتشف في أذناً موسيقية وعاطفة قوية، ولكنه لم ينظر في الموضوع إلاّ أني تأخرت عن حضور البيت بعد غروب الشمس.... "[1]

- **التفاوت الطبقي في حارته:**

تعلّم أحمد أمين في طفولته المبكرة في مدرستين المدرسة الأولى هي البيت أما المدرسة الثانية فهي حارته التي لعب مع أبنائها، و تعلّم منهم الكثير من مبادئ السلوك والعواطف من حب أو كره وألفاظ مهذّبة أوألفاظ بذيئة، يقول:" كانت الحارة وماحولها مدرسة لي تعلمت منها اللغة العامية القاهرية الصميمة ، من ألفاظها وأساليبها وأمثالها وزجلها ، وكان حينا كما قلت يمثل الحياة القاهرية الخالصة ..."[2]

كانت حارته تحوي ثلاثين بيتاً ولهذه الحارة باب ضخم يغلق في الليل ليحميهم من اللصوص، وكان من الثلاثين بيتاً بيت واحد من الطبقة العليا ونحو عشرة من الطبقة الوسطى وعشرين من الطبقة الدنيا .

---

[1] أمين ،أحمد ،"حياتي"ص٢٤.
[2] -المصدر ذاته ،ص٣٤.

كان الغني من الطبقة العليا شيخاً معمماً ، يدل مظهره على أنه من أصلٍ تركي وهو نائب المحكمة العليا الشرعية ، وسيد الحارة ، فإذا حضر إلى الحارة تأدب أهلها، ولم ترفع نساء الطبقة الدنيا أصواتهن، لديه خدم من الجواري حيث كان في القاهرة أسواق لبيع الجواري البيض والسود، وظلّ هذا الوضع إلى عهد الخديوي إسماعيل ، حتى وضِعت معاهدة لإلغاء الرقيق ، كان يشاع عن الشيخ أنه يملك ذهباً كثيراً و أنه بخيل . و لما بلغ السبعين ماتت زوجه، فتزوج بشابة أضاعت ماله .

كانت الطبقة الوسطى مؤلفة من موظفين في الدواوين، دخل كل منهم في الشهر ما بين سبعة جنيهات واثني عشر جنيهاً، عيشتهم متوسطة لا ترف فيها ولا بؤس، كان يتعلم أولادهم في الكتاتيب، ثم المدارس .

أما الطبقة الدنيا فيسكن بيوتها بناء، أو مبيض أو خياط أو طباخ، وهم كثيرو الأولاد بائسون لا يستطيعون الطبخ إلا في أوقات قليلة لفقرهم، و يعيشون أغلب أيامهم على الطعمية و الفول المدمس، وأولادهم لا يدرسون في كتّاب و لا مدرسة فهم أميون، ونساؤهم قد يجلسن سافرات أمام باب البيت، وكثيراً ما تقوم الخصومات بينهن فيتبادلن الشتائم.

وقد لمست الواقعية في عرض الأحداث لدى أحمد أمين في سيرته، وقد أشار الدكتور شكري محمد عياد إلى أن الكتابة الواقعية تقوم على عرض الأحداث الاجتماعية ومافيها من عادات وتقاليد يقول: "من السمات الأساسية للكتابة الواقعية أنها " تسجل" الظواهر الاجتماعية من عادات وأخلاق، فتعنى بالبشر العاديين ، سواء أكانوا أخياراً أم أشراراً ، (وهم غالباً مزيج من الخير والشر)، وبالحوادث التي تقع من أمثالهم أو تقع لهم ، سواء أكانت سارة أم مؤلمة.."[(١)]

أما بالنسبة للأطفال فكانوا لا ينظرون إلى غنى أو فقر و تعلّم أو جهل يلعبون معاً دون تكبر ، وأحب أصحاب أحمد أمين إليه ابن كاتب في الدفترخانة ، و ابن صاحب مقهى وابن فقيه كفيف ،وهنا أرى أن روح الطفولة التي تحمل كثيراً من البراءة تعرف أن تحب دون مصلحة، ودون تميز فالنقاء هو الغالب عليها .

[١] ـ محمد عياد، د. شكري، "المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين "،عالم المعرفة ،مطابع السياسة ،الكويت،١٩٩٣،ص١٢٨

وقد تحدث أحمد أمين عن مشكلة الفقر التي لا تتناسب مع عدد الأولاد الكثيرين في الطبقة الفقيرة فقد كان عدد المواليد يتناسب بشكل معاكس مع الطبقات فأفقر الطبقات أكثرها أولاداً ، و عدد الوفيات يزداد مع زيادة عدد الأولاد بسبب سوء الحالة الصحية، وعدم العناية بالماء والأكل وهم لا يعرفون الطبيب، وهذه المشكلة عانى منها كتّاب السيرة الأربعة مكسيم غوركي وحنا مينة وطه حسين وأحمد أمين فقر ومرض ولكن بدرجات متفاوتة.

كان في حارته سوق فيها كل ما تحتاجه البيوت وبجانب السوق مسجد لصلاة أهل الحي ، وحمام للرجال أياماً و للنساء أياماً ، ومقهى فيه مقاعد تناسب الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا ، وأطول رحلة كان يخرج فيها عندما يذهب مع أمه إلى حي الموسكى لشراء الأقمشة أوعندما تأخذه إلى بيت خالته، كانت الحارة مدرسة ثانية له تعلّم منها اللغة العامية القاهرية الصميمة.

لمست عفوية أحمد أمين وبساطته في عرض أحداثه المستمدة من الواقع وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى ذلك يقول: "وكتب أحمد أمين حياته في يسروبساطة ، مصوراً بيئته وظروفه تصويراً وافياً...."[١]

كتب أحمد أمين سيرته من أول حياته إلى نهايتها محاولاً الإلمام بالأحداث التي مرت به في حياته كلّها خلافاً لطه حسين، ومكسيم غوركي ،وحنّا مينه الذين كتبوا سيرهم الذاتية وجمعوا فيها طفولتهم وبدايات شبابهم لكل من مكسيم وحنا، وقد أضاف طه حسين على طفولته مرحلة الشباب بشكل كامل، واختلاف طه حسين عن أحمد أمين الذي اهتم بالأحداث التي كانت تدور حوله فكان أقرب إلى ذوق المؤرخ الذي لا ينفعل بما يرى منه إلى ذوق الأديب مثل طه حسين وهذا ما لمسته من خلال قراءتي لسيرتيهما.

ويقول الدكتور شوقي ضيف حول ذلك :" وترجمته"حياتي" كتبها في أواخر أيامه ، فهي تصف حياته من أولها إلى نهايتها تقريباً غير أنها لا تعنى بهذه الحياة بمقدار ما تعنى بالأحداث الهامة التي ارتبطت بها، فهو فيها إلى ذوق المؤرخين أقرب منه إلى ذوق الأدباء

[١]- ضيف، د.شوقي، ا"الترجمة الشخصية"، ص٦

مثل طه حسين، وربما دفعه إلى ذلك دراساته السابقة في العرب وتاريخهم وحياتهم الفكرية فانحدر في أغلب ماكتب من تاريخ نفسه إلى تاريخ عصره..."[1]

- **بين الكتّاب والحارة:**

كان الكتّاب المدرسة الثالثة لأحمد أمين بعد أن عد البيت مدرسته الأولى والحارة مدرسته الثانية، وقد اختار له والده أقرب كتّاب وهو حجرة متصلة بالمسجد، وأثاثه حصير كبيرة بالية وزير فيه ماء يكاد يسود من الوسخ وعليه غطاء من خشب، وقد علّق في الغطاء حبل طويل، وربط فيه كوب و يشرب من هذا الكوب النظيف والقذر والمريض والصحيح.

وأجد أن أحمد أمين يلتفت دائماً إلى مسألة النظافة التي من خلالها نتخاص من العدوى و الأمراض .

أما الشيخ فقد كان يلبس عمامة وبيده عصا طويلة، وكان للشيخ عريف يساعده في كتابة الألواح للأطفال ، كما يساعده في مد رجل الطفل في الفلقة عند الحاجة ، وإذا قرأ مع الطلاب وجب أن يهتزوا وأن يصيحوا فمن لم يهتز أو لم يصح، لم يشعر إلا والعصا الطويلة تنزل عليه فيبكي الطفل ويقرأ معاً ، و يستمر على هذا النحو إلى وقت العصر تقريباً.

كان يمر والد الطفل الذي يتعلّم في الكتّاب على الشيخ بين فترة وفترة حتى يسأله عن ابنه ، ويطلب منه أن ينفض له الفروة وهذا يعني أن يشد على الأطفال، حتى أنه أحد الأيام بينما كان مع أسرته و هو يتناول الطعام، انتفض دون وعي فقد ظن أن عصا الشيخ نزلت عليه لأنه لم يهتز .

تنقّل أحمد أمين بين أربعة كتاتيب ، ولا تختلف تلك الكتاتيب إلاّ في أن الحجرة واسعة أو ضيقة ، وأن الشيخ لين أو شديد ، أما أسلوب التعليم فواحد فيها .

كل ما حوله كان كفيلاً أن يقضي على الذوق والشعور بالجمال، فالاهتمام بقضية النظافة ليس ذا أهمية فحارته لا يمسها الماء إلاّ إذا نزل المطر، والنساء يفتحن الشبابيك، ويقذفن منها ما تجمع من ماء غسل الثياب أوغسل الصحون، وأحياناً لا تنظر السيدة في الشارع عندما

[1] المرجع السابق ،ص١٢٠

تقذف الماء القذر فينزل ذلك الماء على بعض المارة فتكون الشتائم أما الشوارع فقد كانت قذرة .

- **بين المدرسة والكتّاب:**

أدخله والده مدرسة ابتدائية وهي مدرسة أم عباس، وقد كانت مدرسة نموذجية، غيّر شكل لباسه في تلك المدرسة فقدلبس بذلة بدل الجلباب، وطربوشاً بدل الطاقية ،وخالط تلاميذاً من الطبقة الوسطى والعليا لا نسبة بينهم في جمالهم ونظافتهم وشكلهم وبين أبناء الكتاتيب و الحارة .

كان يتعلم في المدرسة القرآن، و الحساب، و اللغة العربية و التركية ، ثم انكمش هذا النوع من التعليم و سمي قسم الحفّاظ ، وأُنشِئت بجانبه فصول على النمط الحديث يعلّم فيها الجغرافيا و التاريخ و الحساب إضافة إلى اللغة الفرنسية .

قد ألزمه والده ببرنامج مرهق لا يعلم كيف استطاع الصبر عليه، وقد تحدث عن ذلك البرنامج المرهق حيث قال: " وقد وضع لي أبي برنامجاً مرهقاً لا أدري كيف أحتمله ، كان يوقظني في الفجر فأصلي معه، ثم أقرأ جزءاً من القرآن ، وأحفظ متناً من المتون الأزهرية كألفية ابن مالك في النحو، حتى إذا طلعت الشمس أفطرت ، ولبست ملابسي، وذهبت إلى المدرسة أحضر دروسها إلى الظهر ، وفي فسحة الظهر أتغدى في المدرسة على عجل، وأذهب إلى كتّاب قريب من المدرسة...."[١]

اتفق أبوه مع فقيه الكتّاب أن يسمع منه جزءاً من القرآن و إذا ما أتمه وسمع جرس المدرسة يذهب إلى الفصل ، و يحضر حصص بعد الظهر فإذا دقّ الجرس النهائي يخرج إلى البيت ، ويخلع ملابس المدرسة و يلبس جلباباً ، ويذهب إلى المسجد ، ويمكث من المغرب حتى يصلّي العشاء .

كان يلقي والده درسه في المسجد بين المغرب والعشاء فيبقى أحمد أمين للاستماع إلى درس والده ، ثم يعود إلى البيت و في الطريق يحفّظه والده بيتاً أو بيتين من

---

[١] -أمين ، أحمد،"حياتي" ،ص٤٤.

الشعر، و يسأله عن إعراب مفرداته ، و يصحح له أخطاءه ثم يتعشى ويكتب ما كُلّف به من وظائف في المدرسة ، وبعد ذلك ينام، و راحته تقتصر على عصر يوم الخميس و يوم الجمعة و كثيراً ما كان يحرم صباح يوم الجمعة من الراحة لعمل واجبه المدرسي، أوالقراءة مع أبيه.

سبب هذا البرنامج الغريب أن أباه كان حائراً في مستقبله أيوجهه إلى الجهة الدينية فيعده للأزهر ، أم يوجهه الوجهة المدنية فيعلّمه في المدرسة الابتدائية والثانوية؟ وكان أحمد أمين يدرك حيرة والده من كثرة استشارته لمن يثق برأيهم وكل ذلك لا ينقذه من حيرته فأمسك العصا من وسطها ،وأرهق بذلك ابنه بين الكتّاب والمدرسة، وبسبب ذلك الضغط كان أحمد أمين يهرب أحياناً من الكتّاب ظهراً، أو يدعي المرض ، ولكن إذا اكتشف والده أمره يعاقبه بشدة.

استمر في المدرسة و كان متفوقاً في اللغة العربية، و فوق المتوسط في الحساب و ضعيفاً في اللغة الفرنسية ، انتقل من السنة الثانية إلى الثالثة ومن الثالثة إلى الرابعة ، و أبوه لايزال يفكر في مستقبله، و يسأله فيجيبه بأنه يحب البقاء في المدرسة يتردد كثيراً، ثم يستخير ا ، ويخرجه من المدرسة إلى الأزهر.

لم يكن يرغب أحمد أمين بلبس العمامة لما تسبب له من مضايقات، فقد كان الأولاد يتضاحكون عليه إذا رأوه يرتديها فيشعر بالضيق والخجل، ويحاول أن يسير في الحارات الخالية من الناس .

- **الأزهر وأحداثه:**

كان الأزهر غامضاً بالنسبة إليه فهو لا يعلم نظامه ولا منهجه ولا مستقبله اصطحبه والده إليه وعندما وصلا سمع عند الباب صوتاً غريباً كدوي النحل، وكان ذلك صوت الطلبة، ورأى والده يخلع نعليه عند الباب، ويطويهما ويمسكهما بيده ففعل مثله ودخل على إيوان كبير وقد فُرش ذلك الإيوان بالحصير بشكل كامل وفيه أعمدة كثيرة ممتدة وضِع بجانب كل عمود كرسي عالٍ، وجلس عليه شيخ معمم أمامه حلقة من الطلبة والشيخ يقرأ و يفسر والطلبة ينصتون ، فوجد بذلك أن الأزهر كان امتداداً للكتّاب لا امتداداً للمدرسة.

رأى طلبة وعلى أيدهم أرغفة من الخبز يعرضونها للبيع فسأل والده عن ذلك ، و قد أخبره إن الطلاب الذين يتقدمون في العلم يعطى لكل طالب ثلاثة أو أربعة أرغفة كل يوم فيقوم الطالب ببيع ما يزيد عن حاجته ويشتري بثمنه إداماً له ، وقد حصل طه حسين على تلك الأرغفة عندما درس في الأزهر.

ذكر أنه بعد أن يقيد الطالب في سجل الأزهر يترك له حرية اختيار العلوم التي يدرسها و الكتب التي يقرأها، و إذا لم يحظ بمن يساعده على تنظيم أموره وإرشاده ضاع ولم يصل إلى غايته،فالجهد ملقى على عاتق الطالب في الأزهر يقول أحمد أمين:"والتعليم في الأزهر إذ ذاك ، وكما رأيناه إلى عهد قريب – يلقي عبء الطالب كله على نفسه من غير أن يحمل أحد أي عبء عنه، فما عليه إلاّ أن يسجل اسمه في دفاتر الأزهر ثم يفعل ما يشاء، إلى أن يتقدم لامتحان العالمية ، فهو الذي يختار مدرسه ويختار علومه، ويحضر أو لا يحضر، و يجد أو يلعب ...."(١)

جاء الشيخ الذي جلس على كرسيه، وبدأ بشرح الدرس، حاول أن يفهم تعليقاته واعتراضاته فلم يستطع، فشرد ذهنه في ذكريات المدرسة، ودروسها التي كان يفهمها و أصحابه في المدرسة والطلاب في الأزهر الذين لا صلة له بهم، ثم عاد ذهنه إلى ما يلقيه الشيخ فوجده في الجملة نفسها والاعتراضات والإجابات نفسها و استمر الشيخ على هذه الحالة مدة ساعتين أوأكثر حتى قال ا أعلم، وبذلك شعر أحمد أمين بالسرور لأنه قد انتهى.

أجرى أحمد أمين مقارنة في أثناء شروده بين المدرسة والأزهر ويبدو أنه كان ميالاً إلى المدرسة بسبب دروسها المنظمة ،وإلى أصدقائه الذين كان يفضلهم على طّلاب الأزهر وأساتذته الذين يمتلكون أسلوباً مختلفاً في عرض موادهم عن شيوخ الأزهر، لم تكن هناك صلة بينه و بين الطلبة ولا بينه و بين شيوخ الأزهر ولم يكلّف واجباً يعمله في البيت، وعلى هذا النمط جرت الأيام .

تعرف على صبيين من القاهرة من أبناء العلماء كانت النعمة ظاهرة عليهما حاول أن يتأنق مثلهما ، و لكن كان ذلك من وراء والده لأنه لا يفضل ذلك ، وكانا يشكوان مما يشكو

---

(١) أمين، أحمد ، "زعماء الإصلاح في العصر الحديث" ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،ص٢٨٥

منه بأنهما لا يفهمان و لايستفيدان ، و اقترح أحدهما أن يلعبوا القمار، فأعجبهما الاقتراح و أخذوا يلعبون، ولم يشعر بهم أحد، ولكن بعد أشهر تنبه ضميره، وفهم أن ما يفعله يؤدي إلى عواقب سيئة فترك صحبتهما، وعاد إلى دروسه، وهنا تظهر صراحة أحمد أمين في هذا الأمر فقد كان موضوعياً، وتحدث عن خصوصية متعلقة به كيف زاولها وكيف انتهى منها.

تجاوز المرحلة الأولى الشاقة ، كان متّقد الذهن لم يهتم بما يقوله شيوخ الأزهر في الشيخ محمد عبده من زندقة ، وإلحاد كان يحضر دروسه في تفسير القرآن ، و يسمع منه " دلائل الإعجاز " للزمخشري و" أسرار البلاغة " وقد كان أحمد أمين متلهفاً لدروس الشيخ محمد عبده فحضر درسين اثنين، وفهم منه ما لم يفهم من شيوخ الأزهر، وكان هذان الدرسان آخر دروسه رحمه ا .

وقف أحمد أمين موقفاً إيجابياً من الشيخ محمد عبده فقد ذكر أن له دوراً في حركة الإصلاح حيث يقول :"لقد أيقظ الشيخ محمد عبده الشعور الديني،وأشعر المسلمين أنهم يجب أن يهبوا من رقدتهم لإصلاح نفوسهم وتكميل نقصهم ،وألا يعتمدوا على الفخر بماضيهم ، بل يبنوا من جديد لحاضرهم ومستقبلهم.."[1]

كان أحمد أمين يجلس قبل الدروس مع صاحبه الذي تعرف عليه بعد أن ترك صحبة الصبيين وكان يكبره بخمس أوست سنوات فيوضح له بعض ما غمض من العبارات وبذلك يستطيع أن يتابع الشيوخ فيما يقولون إلى حد ما، وأقبل صاحبه مرة وفي يده جريدة "المؤيد" و أطلعه على إعلان مفاده حاجة الجمعية الخيرية الإسلامية إلى مدرسين للغة العربية، والأجر ثلاثة جنيهات، وأغراه بتقديم الطلب وحضور الامتحان .

تقدم أحمد أمين للامتحان وعند صدور النتيجة كان ترتيبه الثالث، وهم يحتاجون إلى أربعة وقد قابل الطلاب الأربعة الرئيس المشرف على التعليم في الجمعية الخيرية الإسلامية وهو حسن باشا عاصم وكان من عظماء مصر عرف بالحزم، و التشدد في الحق و التزام العدل .

---

[1] المرجع السابق ،ص٣٣٧.

في أثناء مقابلته سأل كلاً منهم أسئلة في المعلومات العامة ، ثم استبعد الرابع لقصره و قبحه، واتخذ قراره بتعيين الأول في مدرسة القاهرة ، والثاني في الإسكندرية والثالث في طنطا،لما أخبر أحمد أمين والده تحير و اضطرب ، وكان يرغب برفض الوظيفة ، و لكن عذره أن مستقبل ابنه في الأزهر مظلم وأخيراً قبل بسفره إلى طنطا .

كان قد بلغ من العمر ستة عشر عاماً ، وقد كان متوتراً لأنه لم يركب القطار في حياته، وعندما وصل إلى طنطا أخذ عربة لتوصله إلى المدرسة ، و في المدرسة قابل الناظر، وطلب منه أن يعطيه حجرة خالية بالمدرسة لينام فيها وتكون بذلك مسكنه ، واهتدى أخيراً إلى غرفة في بيت غير مناسبة له فساءت حالته في البيت و المدرسة.

طلب نقله إلى القاهرة، وجاء الرد بأن الجمعية ليس لديها مانع إذا رضي أحد مدرسي القاهرة بالبدل، فذهب إلى القاهرة، وطلب من مدرس في الجمعية أن يبادله، و عرض عليه أن يتنازل عن نصف مرتبه، فرفض فاستقال أحمد أمين، ورجع إلى الأزهر .

لم تعجبه طريقة التدريس في الأزهر ، وموقفه من طريقة الأزهر في التدريس مشابه لموقف طه حسين، ولكنه استفاد على يد والده ورأى أن والده كان يمتاز عن كثير من شيوخ الأزهر بأنه قادر على الإفهام، ويرى في الحواشي والتقارير مضيعة للوقت، ويقول في ذلك :"لم أستسغ أبداً طريقة الأزهر في الحواشي والتقارير وكثرة الاعتراضات والإجابات ، وإنما كانت فائدتي الكبرى من أزهر آخر أنشأه لي أبي في غرفة من غرف بيتنا.."[١]

ربما يعود ذلك إلى تدريسه في بعض المدارس الأميرية، واتصاله بأساتذتها، وقد درس اللغة العربية لسفير أمريكا في مصر، وانتُدب لتدريس بعض الوجهاء مما أكسبه ذوقاً في التعليم، و قدرة على التفهيم، وله مزية أيضاً وهي كثرة مطالعاته في كتب الأدب والتاريخ واللغة واهتمامه بجمعها وذلك لم يكن معروفاً عند كثير من الأزهريين .

بقي أحمد أمين غير مرتاح لوجوده في الأزهر ، ورأى بعض زملائه يقدمون طلباً للدخول في مدرسة دار العلوم ، فقدم طلباً، وكان الأمر سهلاً عليه لأنهم يمتحنون في حفظ

[١] أمين ،أحمد ،"حياتي"،ص٦٧.

القرآن وهو يحفظه و في حفظ الألفية و فهمها و هو يحفظها و يفهمها، ولكن قبل الامتحان لابد من الكشف الطبي وهو قصير النظر ،فذهب إلى دكتور إنكليزي، وقد كتب له نظّارة تناسب مشكلته ومع ذلك تقدم للامتحان، فرسب وحزن لذلك الرسوب، وعاد إلى الأزهر .

تأثّر أحمد أمين بطه حسين كان واضحاً في سيرته، وأرد ذلك التأثر إلى الفترة الزمنية الواحدة وأنهما من قطر واحد ، ودرسا في الأزهر قد أنجز طه حسين سيرته قبل أحمد أمين كما ذكرت في بداية الفصل حيث كتب طه حسين سيرته عام١٩٢٧ وأصدرها عام١٩٢٩ بينما كتبها أحمد أمين ١٩٥٠ ، وقد أشار إلى ذلك التأثر الدكتور إحسان عباس حيث يقول :"وقد تأثر الأستاذ أحمد أمين بكتاب الأيام حين كتب سيرته في كتاب أسماه"حياتي" وليس سبب هذا التأثّر ماأحرزه كتاب الأيام من شهرة أدبية فحسب ، بل هو في تلك النشأة الأزهرية المشابهة لنشأة صاحب الأيام..."[1]

- **تدريسه في مدرسة راتب باشا ثم مدرسة والدة عباس باشا :**

اطّلع في إحدى الجرائد على إعلان من وزارة المعارف تطلب فيه مدرسي لغة عربية بأجر قدره أربعة جنيهات شهرياً ، تقدم للامتحان و نجح و هذه المرة المدرسة كانت في الإسكندرية ، وهي مدرسة راتب باشا ، لم يكن اسم الإسكندرية مرعباً كطنطا فقد أصبح عمره ثمانية عشر عاماً ، و لم يعد يخاف ركوب القطار، سافر فرأى البحر لأول مرة وسحِر بجماله فقد كان يجلس إليه، و يتأمل في أمواجه، فينسى غربته .

استأجر حجرة في بيت قريب من مسجد البوصيري كان أعظم ما كسبه في الإسكندرية تعرفه على شخصية قوية وهو أستاذ للغة العربية في مدرسة رأس التين الثانوية في الثانية و الأربعين من عمره ، طويل القامة ، معتدل الجسم ، جميل الوجه ، اتخذه أخاً كبيراً ، كان يعتنق الطريقة النقشبندية إذا ذكر ا ذكره بقلبه لا بلسانه .

كان ذكياً حر الفكر يؤيد الشيخ محمد عبده في دعوته للإصلاح ، لايؤيد الأوهام والخرافات، سماه تلاميذه الشيخ الإنكليزي لترفعه، وحريته و صدق قوله وسعة فكره،وكان

---

[1] -عباس ،إحسان ، "فن السيرة" ،ص١٤٦

أحمد أمين لا يعرف إلاّ الكتاب فعلّمه الدنيا التي ليست في الكتاب كان يعامله والده وشيوخ الأزهر على أنه طفل أما صديقه فقد عامله على أنّه رجل ، كانت تتم لقاءاتهم بعد العصر أو يوم الجمعة.

كان أبوه المعلّم الأول وذلك الأستاذ المعلم الثاني له، أيقظه من خموده ، وحرره من التقاليد البالية، حيث يقول:" وعلى الجملة فلئن كان أبي هو المعلم الأول فقد كان هذا الأستاذ هو المعلم الثاني انتقلت بفضله نقلة جديدة ، وشعرت أني كنت خامداً فأيقظني، وأعمى فأبصرني،وعبداً للتقاليد فحررني، وضيق النفس فوسعني .....".[١]

وبقيت صداقتهما سنين استفاد خلالها من علمه و تجاربه وحسن حديثه إلى أن جاءت الحركة الوطنية، فتحمس أحمد أمين لها تحمس الشباب، ونظر الأستاذ إليها نظرة الشيوخ، الأول قومها بقلبه والثاني قومها بعقله فقام بنقد زعماء الحركة الوطنية ، فكره أحمد أمين هذا النقد و دفعته الحماسة الوطنية إلى نقد أستاذ له نقداً فيه شيء من العنف فغضب صديقه الأستاذ وخاصمه، حاول أحمد أن يسترضيه وألح في ذلك فسامحه ولكنه توفي فحزن عليه أحمد أمين، وشعر بالحسرة تجاه موته .

درس في مدرسة راتب باشا في الإسكندرية السنة الرابعة الابتدائية ، وهذا كان فخراً كبيراً لأن من يدرس السنة الرابعة ينظر إليه على أنه أرقى مدرس للمادة ، وقد كان متميزاً في تدريس القواعد ، أما دروس الإنشاء فلم يكن بارعاً فيها بل كان بعض التلاميذ يكتبون خيراً مما يكتب.

سعى والده بعد سنتين في القاهرة لتعيينه مدرساً بمدرسة والدة عباس باشا الأول و هي المدرسة التي تعلّم فيها وهو صغير و قد فرح لذلك كثيراً، و درس السنة الأولى والثانية لأن أساتذته كانوا يحتلون السنة الرابعة وكعادته ظهرت قوته في القواعد دون الإنشاء ، ولكن في آخر العام كانت نتيجة المدرسة في الشهادة الابتدائية باهرة ، ففرح الناظر لذلك وأراد أن يكتب خطاباً إلى إدارة الوقف يخبرها بهذه النتيجة ، فلم يجد إلاّ أحمد أمين ومن حسن حظّه

[١] -أمين،أحمد ،"حياتي"،ص٧٥.

أنه كان يحفظ مقدمة "دلائل الإعجاز" فسرق الأسلوب و باهى بالمدرسة ، وفضلها على سائر المدارس فُسر الناظر لذلك ، و رد إليه اعتباره في الإنشاء أيضاً .

في ذلك العام مرض بحمى التيفود، و لم يرسل إلى مستشفى وقد تُرك أمره ، ومن حين لآخر تأتي عجائز الحارة فتصف لأمه وصفات بلدية لمساعدته ، ويزوره والده قبل ذهابه إلى العمل ، ويضع يده على جبهته و يقرأ الفاتحة ، و آية الكرسي ، و المعوذتين ، وهكذا حتى نجا بأعجوبة ، ولم يمكث في هذه المدرسة إلاّ سنة .

- **دراسته في مدرسة القضاء الشرعي:**

ُأعلِن عن الدخول في مدرسة القضاء فتقدم وخشي من الكشف الطبي أكثر من خشيته من الامتحان، وخاف أن تتكرر مأساة رسوبه في دار العلوم ، و فعلاً رسب في امتحان النظر،واعتقد أنه سيظل في عمله المتواضع ، لكن حدث أمر وهو أن عاطف بك بركات ناظر المدرسة أجل البت في المقبولين إلى ما بعد الامتحان بسبب كثرة الراسبين وكان عدد المتقدمين أكثر من مئتين.

ُأجري الامتحان في اللغة العربية نحواً و صرفاً ، وفي الفقه ، والبلاغة ، و الحساب ، والهندسة ، و الجغرافيا ، والتاريخ فكان امتحاناً صعباً رسب فيه كل المتقدمين إلاّ خمسة ، و كان الثالث فشفع ذلك له عند ناظر المدرسة.

قُبِل الطلاب الخمسة وضم إليهم تسعة من أحسن الراسبين، ففرح أحمد أمين لذلك لأنه كُفِي شر التّسكّع في المدارس الأهلية، وأيضاً سيدرس علوماً منظمة في مدرسة منظمة وقد ُأريد في هذه المدرسة أن يثقف الطالب ثقافة دينية من تفسير و حديث و فقه وثقافة لغوية أدبية من نحو و صرف و أدب ، وثقافة قانونية وثقافة عصرية من جغرافيا و تاريخ و طبيعية و حساب .

كانت المدرسة تحت إشراف سعد باشا زغلول وهو ناظر المعارف اختار لها ناظراً من أكفأ الناس وأقربهم إليه، وهو عاطف بك بركات، وكانت المدرسة مزيجاً عجيباً من الأساتذة ، هذا شيخ أزهري و بجانبه أستاذ للتاريخ تخرج في جامعات إنكلترا وأستاذ الطبيعة

تخرج في جامعات فرنسا، وغيرهم من الأساتذة ويتحدث هنا عن مدرسة القضاء وطلابها وأساتذتها فيقول :" بدأتِ الدراسة بالقسم العالي في هذه المدرسة ، و مدته أربع سنوات و كان فصلنا أربعة عشر طالباً ، كثير منهم يناهز الثلاثين وله لحية طويلة ومنهم من هو متزوج و له أولاد و كان الطلبة كالأساتذة ، منهم الأزهري القح الذي لا يعرف عن الدنيا شيئاً، ومنهم ابن البلد المتمدن الذي عرك الدنيا وعركته، ومنهم بين ذلك ".[1]

كان نظام المدرسة مرهقاً، وكان هناك امتحان كل ثلاثة أشهر، وقد قال عن ذلك النظام " ونظام المدرسة شاق عنيف ، فليس هناك ملاحق ، وليس هناك إعادة سنة، فمن رسب في أول امتحان آخر السنة رفِض ،وفي كل ثلاثة أشهر امتحان ، ومن رسب في هذا الامتحان الثلاثي حرم من مكافأته وهي جنيه ونصف كل شهر، وما تجمع من هذه المكافآت التي حرم منها بعض الطلبة تُمنَح مكافآت للمتفوقين.." [2]

وكل يوم ثلاثاء عصراً في فناء المدرسة، يدعى أستاذ من الخارج ، أو من المدرسة ، أو طالب من المتفوقين لإلقاء محاضرة في موضوع من إعداده وأحياناً كان يحضر سعد باشا زغلول أو قاسم أمين تلك المحاضرات .

أمضى أحمد أمين أيامه في تلك المدرسة بالجد والتعب، فيدرس في النهار ، ويحضر في الليل ، حتى أوقات الألعاب الرياضية كانوا يؤدونها بعنف ، والذي زاد من تعبه تنافسه مع طالب كان أفضل منه في العلوم الأزهرية، وكان أحمد أمين أفضل منه في العلوم العصرية فغلب أحمد أمين في السنتين الأوليين، وغلبه أحمد أمين في السنتين الأخريين .

لم يكن يرفّه عن نفسه إلاّ أياماً كان يخرج إلى كوبري قصر النيل، ويذكر أنه قاوم خجله مرتين أو ثلاث مرات، وذهب للاستماع إلى الغناء في صالة تسمى ألف ليلة بالأزبكية من مغنّية اسمها توحيدة، وقد ذهب متخفياً لأن المدرسة كانت تعاقب من تعلم بذهابه إلى تلك الأماكن .

---

[1] - أمين، أحمد ،"حياتي" ،ص ٩٠.
[2] -المصدر ذاته ،ص٩٥.

قُرر إنشاء الجامعة ، وتبرع بخمسمائة جنيه، وتحمس بعض الوجهاء وعقدوا اجتماعاً حضره سعد زغلول وقاسم أمين والشيخ عبد العزيز جاويش و محمد فريد و غيرهم، وأنشؤوا الجامعة عام ١٩٠٨، وكان رئيسها سعد زغلول ، وبعد تعيينه ناظراً للمعارف وقع الاختيار على الأمير أحمد فؤاد .

اختير لها بناء وهو بناء الجامعة الأمريكية اليوم ، وأعجبه بعض محاضراتها، و كان يحضرها في غير التزام بسبب ثقل أعباء مدرسة القضاء، وقد انتهت حياته المدرسية بموقف ثقيل يوم الامتحان النهائي ، الامتحان التحريري مضى بسهولة و كان الأول ، أما الامتحان الشفوي فكان في موضوعات مختلفة من نحو و بلاغة و منطق و أصول الفقه وكل موضوع عبارة عن جملة أو جملتين من كتاب .

أُعطِي الطلاب قبل الامتحان الشفوي عشرة أيام للتحضير، ومر عليه شيخ أزهري بعد ثلاثة أيام ليعرف كيف يحضر، و سأله أسئلة لم يعرف لها رداً، فخاف عليه من الرسوب وزاره مرتين ، وقد مر على زملائه أيضاً.

جاء موعد الامتحان ، وبدأ بالقراءة من الكتاب الأول، و بدأتِ الأسئلة تنهال عليه ، منها ما يجيب عنه، ومنها يعجز في الإجابة عنه، وبقي على هذه الحالة ست ساعات دون راحة والممتحنون يخرجون بفترات متقطعة للراحة، وتناول القهوة والليمون ،وسبب عجزه عن الإجابة أغلب الأحيان أن الأسئلة كانت محفوظة مرّن عليها الطلبة المتعمقون في الدراسة الأزهرية ، و هو لم يمرن عليها لأنه اعتمد في دراسته على أبيه .

و أخيراً أفُرج عنه، وسمِح له بالخروج فلما أراد النهوض لم يستطع مد رجله، وأخذ في ذلك فترة من الزمن حتى عرف كيف ينهض وكيف يمشي، ولم يعرف كيف قضى بقية نهاره وليلته فقد نجح ولكنه تأخر من الأول إلى السادس ، وكان هذا الامتحان الأزهري أول وآخر امتحان شاق في مدرسة القضاء، لأن عاطف بك احتج، فسهل الامتحان وقصر مدته وتساهل الممتحنون في درجاته .

كان أحمد أمين ضعيفاً في الإنشاء عندما كان مدرساً في المدارس الابتدائية، فانعكس الأمر في مدرسة القضاء ،فقد توفّق في كتابة موضوع "أثر القرآن الكريم في تدوين العلوم" حيث يقول عن تطوره في الإنشاء: " كنت وأنا مدرس في المدارس الابتدائية غير متفوق في الإنشاء، فانعكس الأمر في مدرسة القضاء ، ففي الشهر الأول من دخولي المدرسة طلب إلينا أستاذ الأدب أن نكتب في موضوع " أثر القرآن الكريم في تدوين العلوم" وصادفني التوفيق في كتابة هذا الموضوع كما صادفني أن وقعت ورقتي في يد عاطف بك بركات فاستسحنه وكان لا يعجبه العجب- وكان كلما أتى زائر للمدرسة طلب الورقة وقرأها عليه وسمع منه استحسانه..."[1]

أُعجب عاطف بك بتفوقه في الإنشاء ، وحفزه ذلك على الكتابة فكان ينال أعلى الدرجات لأنه يقرأ ما في نفس أحمد أمين أكثر مما يقرأ ورقة الإجابة، ويمكن القول إن عاطف بك كان له دور كبير في صقل موهبته في الكتابة من خلال تشجيعه ، ودفعه ذلك إلى الاتصال بالجرائد فكتب في جريدة " المؤيد " مقالاً عنوانه " خطأ العقلاء " وكان مضمونه نقد سعد باشا على تركه نظارة المعارف ولكن الشيخ علي يوسف لم ينشره إما لضعفه، أو لظروف سياسية متعلقة بالموضوع.

تعرض في السنة الثالثة لحادث خطير كاد يتسبب في فصله من المدرسة ، ويعود ذلك إلى اختيار موضوع في احتفال المدرسة بعيد رأس السنة الهجرية وهو أسباب ضعف المسلمين، وبنى محاضرته على أن أسباب الضعف ترجع إلى أمرين أساسيين،وقد ذكر هذين الأمرين حيث يقول :" وبنيت محاضرتي على أن أسباب ضعفهم ترجع إلى شيئين أساسيين الأول فساد نظام الحكم في البلاد الإسلامية و ماجره ذلك من ظلّم للرعية ....والثاني رجال الدين فقد شايعوا الحكومات الظالمة وأيدوها..."[2]

وقد سببت له صراحته مشكلة كبيرة لولا أن طُلِب منه أن يرجع ذلك إلى الحكومات ورجال الدين السابقين .

---

[1] أمين ، أحمد،" حياتي" ،ص١٠٣.
[2] المصدر ذاته ، ص١٠٥.

لما انتهى من الخطبة دوى المكان بالتصفيق، أخافه استدعاء عاطف بك له ، وسأله إن كان قد أصيب بجنون وإن ما قاله لا يقال، وطلب منه المحاضرة، وتحدث إلى الشيخ الخضري بكلام بين من خلاله أن أحمد أمين يقصد الحكومات الماضية، ورجال الدين الماضين ، أما الحكومات الحاضرة فلا مأخذ عليها فهي عادلة ، وهي التي رعت مدرسة القضاء ، ورجال الدين اليوم مثال للنزاهة .

أخبره عاطف بك بأن بقاءه في المدرسة بيد القدر، وإذا ذكرت الجرائد ما قاله فسيضحي به حرصاً على المدرسة وكان عاطف بك معذوراً ، لأن المدرسة يحاربها الخديوي ورجال الأزهر كارهون لها ، فقد كان يعد الكلام في السياسة جريمة كبرى وأخيراً شاء القدر أن يبقى في المدرسة .

لم يشهد إضراباً في المدرسة إلاّ مرتين:المرة الأولى كان الإضراب فيها سهلاً يكاد يكون عاماً في أثناء تشييع جنازة المرحوم مصطفى كامل عام ١٩٠٨، والمرة الثانية عندما أجبرهم الناظر على القيام بالألعاب الرياضية في مكان مشمس والجو حار، فاستأذن الطلبة أن يلعبوا في الظل لكنه رفض، وكانت حجته أن على الطلبة التعود على الخشونة، والصبر على الشدائد فامتنع الطلبة عن اللعب ووقفوا في الظل.

ارتعب الناظر من ذلك الأمر لأنه كان أولَ حادث من نوعه وأقبل في حالة عصبية وأمر الطلبة أن يصعدوا إلى صفوفهم فرفضوا ، فرأى أن المخاطبة بشكل جماعي غير مجدية فنادى طالباً ضعيفاً، وأمره أن يخرج أمام الصف ففعل وهدده إما أن يصعد إلى فصله، أويخرج من باب المدرسة إلى الأبد، و كان الناظر جدياً و يلتزم بوعده ولا يتراجع عن كلامه، فتردد الطالب قليلاً ، ثم صعد إلى فصله، و نادى الثاني وقال له ما قاله للأول فالتزم بأمره ، و شعر عند ذلك بأنه منتصر ، و أعلمهم بأنه لا فائدة مما يفعلون ، فانصرف الطلاب و بذلك انكسر الإضراب.

كان يخفّف من مشقة الدرس في المدرسة مداعبات الطلبة ففي الفصل طلبة ماكرون عركوا الحياة وعرفوا الدنيا وفيهم قليلو الحيلة وفيهم الوسط، وهذا التنوع في شخصية الطلبة يكسر حاجز الروتين، ويذهب شيئاً من التعب ويريح نفسية الطلبة.

بعد أسبوع من التحاقهم بالمدرسة تكشّفت الأمور، و تبينت مواضع القوة ومواضع الضعف فاستغل الأقوياء الضعفاء ، ووقفوا لهم بالمرصاد يحصون غلطاتهم، ويؤولون تصرفاتهم بما يدفعهم للضحك من أعماق القلب فكل ذلك عوضهم عن الدروس القاسية والعناء.

وقد وجد الدكتور عز الدين إسماعيل أن القصة النفسية في القرن العشرين تتفق في كثير من جوانبها مع علم النفس التحليلي الذي تأسس على يد فرويد، (١٨٥٦-١٩٣٩) وأرى أن ذلك الأمر صحيح لأن الكتّاب دونوا سيرهم والسيرة هي حديث الكاتب عن ذاته، وهذه الذات تتأثّر بما يحيط بها من أحداث فتنعكس الأحداث على نفسيته يقول بذلك:"وقد وجد كتّاب القصة في القرن العشرين كثيراً من الحقائق التي استكشفها هؤلاء العلماء متاحة لهم،ولما كانت مشكلتهم الكبرى هي كذلك فهم الحياة والإنسان فقد وجدوا في تلك الحقائق المستكشفة ضالتهم ،وراحوا ينسجون هذه الحقائق في قصصهم "[١]

- **حديثه عن عائلته وأحزانها:**

عائلته مؤلفة من أبيه وأمه وهو وأخ وأخت أكبر منه وأخ وأخت أصغر منه أي مؤلّفة من خمسة أولاد والأب والأم، كان أخوه الأصغر شاباً مرحاً ذكياً وكثيراً ما كان يثور على تقاليد البيت فهو يذاكر ويلعب ويجد ويهزل ، التحق بمدرسة تابعة للأوقاف تجمع في تعليمها بين العلوم الدينية والمدنية ، وبعد أن تخرّج فيها التحق بمدرسة القضاء ، وكان التدريس في المدرسة يقسم إلى مرحلتين:الأولى مدتها خمس سنوات، والثانية مدتها أربع سنوات.

مرض أخو أحمد أمين الشاب وارتفعت حرارته،وخاف كل من في البيت عليه، وأحضروا له الطبيب وتبين أنه مصاب بحمى التيفوئيد وحالته خطيرة، وأعلمهم الطبيب إنه بحاجة لنقله إلى المستشفى ، ولكن والديه رفضا لأن المستشفى مرتبط في ذهنيهما بالموت ، واشتد مرضه وبعد معاناة شديدة لفظ أنفاسه الأخيرة ، فامتلأ البيت حزناً وأقيم المأتم ، كانت تجتمع في كل خميس النساء للعويل وتُدعى المعددة لتغني غناء حزيناً .

[١] إسماعيل، "عز الدين ،"التفسير النفسي للأدب"، دار العودة ودار الثقافة، بيروت،١٩٦٢،ص ٢١٠.

تمكن الحزن من أحمد أمين أشهراً حتى سمّي في مدرسته بمالك الحزين وقد ذكر أحمد أمين كيف أن الحزن أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً ولكنه تجدد مع أخيه الكبير الذي عانى من المرض يقول :" ومضت سنة وبضعة أشهر والحزن يتحول من نار مشتعلة إلى نار هادئة قد علاها بعض الرماد ، وجاء رمضان وأنا في السنة الثالثة من مدرسة القضاء، فنغر الجرح الذي لما يندمل، واشتعلت النار التي لما تنطفئ ".[1]

كان الأخ يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، التحق بالأزهر، تزوج وخلّف ابناً وبنتاً ، وكان يمضي أوقاته بين بيته ومسجده وأزهره، وفي ليلة من ليالي رمضان تناول سحوره، ثم نام وبعد فترة سمعوا زوجه تصرخ فقد كان ممدداً على الأرض.

أحضر أحمد أمين الطبيب إلى البيت وبعد فحصه أخبرهم بأنه أُصيب بشلل في النصف الأيسر من دماغه ، فاعتنى بأخيه، وبعد فترة أخذ يتحسن ولكن بعد شهرين أصيب مرة أخرى وكانت تلك الإصابة أشد من سابقته ، وعندما حضر الطبيب أخبرهم بأن حالته لاشفاء منها ، وأخيراً تُوفي ، فكان حزن العائلة شديداً ، وحج الوالدان رغبة منهما في التخلص من حزنهما.

- **تعيينه قاضياً في الواحات:**

واجهت أحمد أمين مشكلة وهي أن مدير المحاكم الشرعية عينه قاضياً في الواحات الخارجة، وحاول عاطف بك أن يساعده ويغير الواحات إلى بلد آخر فلم يستطع يتحدث عن هذه المشكلة فيقول: " ولكن أتت مشكلة أخرى وهي أن مدير المحاكم الشرعية أبى إلا أن يعينني قاضياً في الواحات الخارجة وهي بلد بعيد، ...فحاولت مااستطعت، وحاول عاطف بك ما استطاع أن يغير الواحات بأي بلد آخر فلم نستطع ، فتوكلت على ا ، وقبلت الوظيفة ، واستعددت للسفر إلى الواحات ، وقد قضيت فيها ثلاثة أشهر ....."[2]وكتب في تلك الفترة مذكرات يومية لتلك الرحلة.

[1] أمين، أحمد ،"حياتي" ،ص١١٦.
[2] المصدر ذاته ،ص١٢٥.

وصل إلى أسيوط ،وبعد أن أمضى يومين فيها رأى المدينة ومبانيها ومتاجرها ومساجدها، ثم ركب قطار الصعيد بعد منتصف الليل، واستغرقت الطريق من الصعيد إلى الواحات تسع ساعات .

حلّ ضيفاً على معاون المدير وبعدها بحث عن بيت يسكنه، واهتدى أخيراً إلى بيت أجرته ثمانون قرشاً في الشهر زار كتّاباً في الواحات ، شكله أسطواني بني على صخرة أرضه طينية جافة .

صلى الجمعة في مسجد البلدة ، وقد استغرب مما سمع في الخطبة فقد كان الخطيب يحثّ على الزهد، ويحذّر من السفر إلى أوربا لقضاء الصيف مع أن أهل الواحات لا يجدون ما يأكلون إلا بعد جهد ، ولم يسمعوا باسم أوربا قط إلا من الخطيب .

ومن مذكراته حديثه عن مجالس القضاء الذي جلس فيه أول مرة وشعر بالارتباك يقول:" اليوم جلست أول مرة في مجالس القضاء فتهيبه ، لأني مع دراستي الفقه بأكمله دراسة واسعة عميقة ، وأصول الفقه بأكملها دراسة واسعة عميقة كذلك ....مع كل هذا تهيبت هذا المجالس، وخجلت من نفسي ، وخجلت ممن حولي...."(١)

واجه قضية طلبت فيها امرأة نفقة من زوجها الغائب ، وجلس الكاتب عن يمينه نادى الحاجب المدعية فحضرت ،ونادى المدعى عليه فلم يحضر وبسبب ذلك ارتبك، ولم يدر ماذا يملي على الكاتب فهرب من الإملاء عليه وحكم في القضية كيفما اتفق ، وشعر بأنه موقف مخجل يدل على أن العلم غير العمل .

شعر أحمد أمين بفراغ كبير لأن القضايا التي عرضت في الأشهر الثلاثة كانت تسع قضايا فقط، ويكفي الفصل فيها ساعة من الزمان ، فحاول ملء فراغه بأمرين : الرحلات إلى الآثار الموجودة في الخارجة ، وقراءة الكتب .

وأمتع رحلة تحدث عنها رحلته إلى باريس ، وهي بلدة صغيرة وبدائية بدوية تحمل اسم أكبر مدينة مدنية تبعد عن الخارجة نحو مئة وعشرين كيلو متراً.

---

١ -المصدر السابق،ص١٣٢.

رأى في الطريق آثاراً رائعة ، وشجر الدوم الكثير ، ولمس في قومها كرماً عربياً ولهجة عربية جميلة ، وقد كان يتلذذ في سماعها وخصوصاً من النساء اللاتي كن يترافعْن إليه في شكوى أزواجهن، وكان لأهلها عادات غريبة منها إذا مات كبير منهم لبست النساء أفضل لباس عندهن ،وبعد ثلاثة أشهر جاء كتاب من محكمة أسيوط الشرعية بنقله من القضاء إلى مدرس بمدرسة القضاء .

- **تعلّمه الإنكليزية:**

كان أهم دروسه في مدرسة القضاء دروس الأخلاق ،وقد رأى أنه بحاجة شديدة إلى تعلّم لغة أجنبية وكان مصدر دروسه في الأخلاق مذكرات عاطف بك بركات التي نقلها عن الإنكليزية .

كان لسيدة إنكليزية أثر كبير في عقله ونفسه وهي الآنسة بور وهي في الخامسة والخمسين من عمرها ، فقد قبلت أن تدرّسه اللغة الإنكليزية بجنيهين كل شهر ،وكانت تعامله معاملة أم قوية لابن فيه عيوب من تقاليد بالية، ويتحدث عن دراسته معها فيقول:" ابتدأت أدرس معها الجزء الثالث من سلسلة كتب بيرليتز ، أقرأ فيه وتفسر لي ماغمض وتصلح لي ما أخطأت ثم أضع الكتاب ، وأحدثها وتحدثني في أي موضوع آخر يعرض لنا ...."[١]

ويذكر محمد حسين هيكل أن أصحاب النشأة الأزهرية الذين أتقنوا اللغة العربية سعوا إلى الاطّلاع على لغات أخرى يقول: "أساتذة كلية الآداب في الجامعة المصرية من الذين يقومون بتدريس الآداب العربية، كلهم من ناشئة الأزهر أودار العلوم أوالقضاء الشرعي،وكلهم قد شعروا بالحاجة ،بعد إتقانهم اللغة العربية إلى دراسة لغات أخرى ودراسة آداب أخرى ، سواء منها ما تُرجم إلى العربية وما استطاعوا استيعابه بلغة غيرها، وهاهم أولاء الدكتور طه حسين وزملاؤه الأساتذة :أحمد أمين ومصطفى عبد الرزاق وعبد الوهاب عزام ،هم جميعاً من أبناء هذه المدرسة – الأزهر- وهم اليوم جميعاً من الذين شعروا بالحاجة الماسة للاتصال

[١] المصدر السابق،ص١٤٤.

بعلوم اللغات الأخرى وفلسفتها وآدابها ليكونوا لأنفسهم صورة صحيحة مما يحتويه الوجود من حق وجمال."[1]

كانت بداية تعلّمه للغة الإنكليزية دراسة الجزء الثالث من سلسلة كتب "بيرلتيز" يقرأ فيه، وتفسر له ما غمض وتصحح له ما أخطأ، أصبحت صلته بها وثيقة ،وأخذت تعتني به من ناحية الدقة في اللغة الإنكليزية إضافة إلى الإشراف على سلوكه وأخلاقه .

كان في السابعة والعشرين من عمره، وكانت حركته كحركة الشيوخ يمشي في وقار متزمتاً في حياته ، فلا موسيقى ولا تمثيل فوضعت له مبدأ هو:" تذكر أنك شاب"[2]

ورأت أيضاً فيه قلّة اهتمام بالجمال فلا يهتم بجمال زهرة أوصورة أوطبيعة، فوضعت المبدأ الآخر: " يجب أن يكون لك عين فنية " [3]

وقد كانت محبة للأزهار تشتريها، وتنسقها كل فترة بقيت معه أربع سنوات ، انتهى خلالها من الجزء الثالث من سلسلة كتب "بيرليتز" وقرأ معها كتباً أخرى في الأخلاق وفي علم الاجتماع ،وقد رآها يوماً مصفرة الوجه مضطربة الأعصاب، فسألها عن السبب فأخبرته إنها ذهبت إلى كوبري النيل ، وأرادت أن ترمي نفسها في النيل لكنها أخفقت في الانتحار.

حزن عليها أحمد أمين لأنه علم بضرورة إرسالها فوراً إلى مستشفى أمراض عقلية، سألها ماذا حل بها ؟ فأجابته: أنها فقدت الإرادة ، تولّت القنصلية الإنكليزية أمرها وسفّرتها إلى بلدها ، وبعد مرور سنتين بعثت له برسالة تعلمه أنها شفيت .

وفي الوقت الذي كان يدرس فيه مع الآنسة بور قال له صديق:إنّه يعرف أسرة إنكليزية تتكون من زوج وزوجة يرغبان بتعلّم اللغة العربية فوافق، دون أجر فهي تعلّمه الإنكليزية وهو يعلّمها العربية، تميزت هذه المرأة بجمال الطلعة ،وكانت تعيش مع زوجها في المدرسة الخديوية الثانوية عيشة أرستقراطية ، كانت هذه السيدة تغذّي عواطفه برقتها وجمالها ، كما كانت الآنسة بور تغذّي عقله بثقافتها وخبرتها ، وعندما اشتدت الحربِ رحل زوجها فلم

[1] هيكل، محمد حسين، "ثورة الأدب" ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السنة المحمدية ،١٩٦٥،الطبعة الثالثة، ،ص٣٠ .
[2] - أمين ،أحمد ، "حياتي" ص١٦٤.
[3] -المصدر ذاته ص١٦٤.

يعرف عنه وعنها خبراً ورأى أحمد أمين أنه مدين في إنتاجه في التأليف والترجمة لهذه المرحلة .

إن ترجمة الروايات العالمية خير دليل يحمل في طياته رغبة الأديب في اكتشاف أدب غيره، والمقارنة بين عمله وعمل غيره ، ومن ثم الأخذ منها ما يدعم طريقته في الكتابة وبذلك تتم له مسألة التأثّر، فالترجمة ليست حكراً على أدب دون آخر لأننا أينما نذهب نجد مؤلفات مترجمة سواء أكانت عربية أم غربية.

وقد وجدت الدكتورة مكارم الغمري أن هناك وسائط تساعد على وصول الآداب إلى آداب أخرى مما يفسح المجال أمام الباحث المقارن للقيام بعمله تقول:" وتعتبر دراسة العوامل المساعدة الوسائط والتي يتم من خلالها نفاذ الآداب إلى آداب أخرى من الموضوعات الخصبة أمام الباحث المقارن، فمن خلال الوسائط يتحدد شكل التأثيرات والاتصالات الأدبية ،ولذا فدراستها بمثابة مرحلة هامة من دراسة التأثيرات ، وهناك العديد من الوسائط مثل الرحلات ،والبعثات الدبلوماسية ،والترجمات ..."[١]

وقام أحمد أمين برحلات عدة إلى دول عربية وأجنبية وببعثات دبلوماسية أدت به إلى الاستفادة من غيره من المعارف وساعدته الكتب المترجمة على ذلك ،وسعيه إلى تعلّم اللغة الإنكليزية ليستطيع قراءة الكتب الأجنبية بنفسه.

- **المكتبة العربية والمكتبة الإنكليزية:**

أخذ أحمد أمين يستفيد مما تعلّمه من اللغة الإنكليزية، فأصبح له مكتبات يشتري منها الكتب ، مكتبة عربية في حي الأزهر ، ومكتبة إنكليزية في شارع المغربي في الحي الإفرنجي،وكان صاحب المكتبة العربية رجلاً غريب الأطوار من أصل أناضولي تربى في المدارس الفرنسية، يتقن الفرنسية قراءة وكتابة، كانت فلسفته في الحياة تشاؤمية على أثر صدمة تلقّاها ، فقد تاجر في القطن ، ودخل البورصة وربح حتى صارتِ النقود كالتراب في يده ، وبعدها خسر، ونتيجة لتلك الخسارة صار كئيباً لا يهتم بالمال ولا الحياة ، ولا الناس.

[١] ـ الغمري ، د. مكارم ، "مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي "، سلسلة عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،العدد ١٥٥ ،مطابع الشروق،الكويت،١٩٩١،ص٢٨.

يقصده هواة الكتب، فيجلسون ويتحدثون في كل شيء يشربون القهوة ويدخنون ثم قد يشترون وقد لا يشترون ،وله خاصة يتميز بها عن غيره من تجار الكتب العربية بأنه يعرف الكتب العربية التي طبعها المستشرقون في أوربا ، يحضرها بسهولة ويسر ،وميزة أخرى ، وهي معرفته هواة الكتب من زبائنه ، وما يناسبهم .

ويتحدث عن المكتبة الإنكليزية فيقول:" وأما المكتبة الإنكليزية فمكتبة مرتبة منظمة ليس فيها موضع لجلوس ولا قهوة ولا تدخين ، ولاحديث لصاحبها إلا كتاب يباع وثمن يدفع ، قدصفّت فيها الكتب تصفيفاً علمياً ، فهذا مكان للقصص ، وهذا مكان لكتب الاجتماع..."[1]

إذا سئل صاحبها عن كتاب اتجه يميناً أو يساراً، ونظر نظرةً فاحصة في وقت قصير، فأخرج الكتاب المطلوب بعكس صاحب المكتبة العربية الذي يتجه يميناً، ويتجه يساراً بحثاً عن الكتاب المطلوب في مكتبته غير المرتبة ، ثم يطلب من المشتري العودة بعد يومين لأخذ الكتاب المطلوب وقد سر أحمد أمين بزيارة المكتبة ، وكان يشتري كتباً في علم الأخلاق ليستعين بها على تحضير دروسه.

حضر دروسه من الكتب العربية والإنكليزية معاً ، وقد شُغِف بنظرية "النشوء والارتقاء" لدارون وأعد محاضرتين ألقاهما على طلبة مدرسة القضاء وبعض أساتذتها بحضور الناظر ، وكانت إحدى المحاضرتين في معنى النشوء، والثانية في تطبيق نظرية النشوء على الأخلاق ، وقد أحدثتا دوياً لأنهما أُلقِيتا على طلبة القضاء الشرعي، وقد أرسل شيخ الأزهر إلى ناظر المدرسة يسأله : كيف سمح لمدرس في المدرسة أن يلقي محاضرات في مذهب الزنديق دارون، فلم يرد الناظر على سؤاله.

- **أصدقاؤه خريجو مدرسة المعلمين العليا:**

تعرف على أصدقاء تخرجوا من مدرسة المعلمين العليا، وكان أكثرهم مرشحاً للبعثة إلى إنكلترا، ثم منعهم من ذلك قيام الحرب فقد كانت ثقافتهم عصرية بحتة، واختاروا قهوة

---

[1] -أمين ، أحمد ، "حياتي"،ص١٦٥.

تطلّ على ميدان عابدين صاحبها لغوي شاعر، فكانوا يجتمعون في تلك القهوة عصر بعض الأيام .

كانوا متعددي الأذواق ، فهذا مغرم بالقصص والمجلات الإنكليزية وله ذوق حسن في الاختيار، وذاك هوايته التاريخ مفتون بأسلوب الأوربيين في كتابته ، وقدرته على التحليل الدقيق ، وحريته في تقدير الأبطال والاعتداد بشخصيتهم ،وعالم آخر تخصص في الطبيعة والكيمياء، وجعل وقت فراغه في قراءة ديوان أبي الطيب وأبي فراس فكان يختار بعض أشعارهما ، وأيضاً عالم في الرياضة لا يقل ثقافة أدبية عن المختصين يقرأ في الأغاني والعقد الفريد ويتذوق ما يقرأ،وينقده كل أولئك كانوا مدرسة لطيفة مفيدة له ، مدرسة فيها الجد والعلم والفكاهة.

كان لتلك المدرسة دور في تقويم البدن كتقويم النفس فقد اشتركوا في نادٍ من نوادي الألعاب الرياضية، فتسابق في العدو مع العدائين ، ولعب كرة القدم، وجلس على العشب في الهواء الطلق ،كانوا يخرجون يوم الجمعة في رحلة إلى جبل المقطم يحملون معهم غذاءهم وشرابهم على ظهورهم يسيرون سيراً سريعاً ولا يستريحون إلا ساعة يتناولون فيها طعامهم،وشعر في تلك المدرسة أنه قريب من عقلية أصحابها ، ومزاجهم وثقافتهم وبالمقابل ابتعد عن عقلية زملائه القدامى ومزاجهم شيئاً فشيئاً ،وقد كون لنفسه نواة من الكتب الإنكليزية بجانب الكتب العربية.

إلى جانب هذه المدرسة من الأصدقاء ذوي الثقافة الإنكليزية لديه أصدقاء ذوو ثقافة فرنسية، وتقوم هذه الجمعية في بيته، أعضاؤها أغلبهم خريجو الجامعات الفرنسية ، وقد كان يغلب على الجمعية الأولى المحافظة والاعتدال، ويغلب على الجمعية الثانية التحرر والثورة على القديم، وقد كان يحضر فيها أحياناً بعض السيدات الفرنسيات وزوجات بعض المصريين ، وبعض العلماء من الأزهر ، ويثار الجدل ، وقد يكون الحديث ممتزجاً بين حرية فرنسية ، واعتدال إنكليزي ، ومحافظة أزهرية

و ذلك دليل على رغبة أحمد أمين في الاندماج بغيره من أصحاب الأفكار المختلفة ليطور من خلالهم ثقافته، وعندما سئل توفيق الحكيم عن التنافس بين تفكيرين مختلفين التفكير

الشرقي والغربي أجاب:"رأيي أن نصنع من كل هذه التيارات والاتجاهات نوعاً من "الكوكتيل" نمزجه مزجاً جيداً ونخلطه خلطاً تاماً، ونجرعه جرعاً هادئاً متئداً ليبعث في دمنا نشاطاً جديداً، وبعد ذلك نبدأ في أن ننتج من وحي أنفسنا نحن – فنحن أمة عريقة كالشجرة العريقة- ولنا أن نسمد الشجرة ونغذّيها بسماد مستورد من الشرق ومن الغرب ومن أسيا ومن أمريكا الجنوبية ومن أي بقعة من بقاع العالم فيها سماد ،ولكن عندما تزهر وتثمر الشجرة فلا تزهر إلاّ أزهارها هي، ولا تثمر إلا ثمارها..."[١]

قصد بالأزهار والثمار فكر الكاتب ذاته، وتصوراته التي استمدها من الشرق والغرب وأخذ منها ما يناسبه وهذا ما لمسته لدى كتّابنا العرب أحمد أمين وطه حسين وحنا مينه.

وقد أُعجِب بشاب تثقف ثقافة قانونية امتاز بالشجاعة الأدبية والصراحة فكان لا يقول إلا ما يعتقد به تزوج فتاة مصرية ، حملها على السفور فأطاعته ، وكان يزور معها الأصدقاء ويجلس هو وإياها في مقهى ولا يعبأ بنقد الناقدين، وكان وكيل نيابة في أسيوط نقدوا تصرفاته وشكوه للحقانية فقامت بلفت نظره، ولكنه بقي مصمماً على ذلك فنُقل إلى الإسكندرية ولم يغير رأيه ، وأخيراً أصيب بداء السل ، فتخلّى عنه أهله وأقرباؤه وهو على سرير الموت ألّف كتاباً ثم مات .

- **زواجه وأسرته:**

كثر الحديث في مجالسهم عن الزواج والأزواج وسعادة الزوجية وشقائها، فقرر أن يتزوج، ورغب أن تكون زوجة من طبقته فهو من طبقة متوسطة ويحمل شهادة عالية ، ومرتبه نحو ثلاثة عشر جنيهاً وهو مرتب ليس بقليل في ذلك الوقت ، ولكن وقفت العمامة حجر عثرة في طريقه فكان ينظر إلى ذي العمامة على أنه رجل متزمت وقليل التمدن ، وحريص على المال إلى أن دلّه مدرس معه في مدرسة القضاء على بيت فأرسل أمه وأخته لرؤية الفتاة فوافقت عليه، واستمرت الخطبة أربعة أشهر كانت مجالاً للتفكير في السعادة المرجوة، وكان قد بلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً .

---

[١] الحكيم، توفيق ،"ملامح داخلية "سيرة ذاتية" دار الشروق الأولى ،القاهرة ،٢٠٠٧،ص٥١.

أحب وهو في الخامسة عشرة من عمره ابنة الجيران وكان يجلس معها على كرسيين أمام دارها ويتحدثان، ولكن والدها أمرها بألا تقابله ، ثم أحب المدرسة الإنكليزية الشابة ولم تشعر بذلك الحب لأنه كان مكبوتاً في أعماقه، فقد كانت متزوجة ومخلصة لزوجها سعيدة بزواجها أخيراً تزوج وكان مستقلاً عن أهله ليتجنب النزاع بين الزوجة والأم وقد اعتمد في زواجه على الخيال لاعلى الواقع، ووجد أن الخيال يختلف عن الواقع اختلافاً تاماً عاش عيشة هادئة فيها لذة الاستكشاف فقد كان يتعرف على أخلاقها وتصرفاتها وكذلك هي.

صدِمتِ الزوجة بعد فترة عندما وجدته هادئاً غير مرح، ظنّت أنه لا يقدرها، أو أنه نادم على الزواج بها ، فأكّد لها أن هذا طبعه فصدقته بعد طول العشرة والمشكلة الأخرى أنه كان مدرساً وفي المساء يحضر الدروس، ويقرأ في غير دروسه وقد كان مشغولاً أول زواجه بإنهاء ترجمة كتاب " مبادئ الفلسفة " فلم تكن تتحمل في أيام زواجها الأولى هذا الوضع وأعدتِ العشاء مرة، وأخبرته بذلك لكنه لم يستجب لأنه كان منشغلاً بترجمة جملة في "مبادئ الفلسفة " ووصلتِ المشكلة لأهلها ولم تُحل إلا بعد عناء .

كان رأيه في عدد الأولاد يخالف رأي زوجه فهو يرغب بأن يكون لديه ولد أو ولدان لما يشعر به من مسؤولية تربية الأولاد ، ونصح بعض الأقارب زوجه بالإكثار من الأولاد لإلزام الرجل بهم ، وشغله بمتطلباتهم ،فرزقت بعشرة أولاد مات منهم اثنان في طفولتهما، وبقي ثمانية أولاد ستة صبيان وبنتان .

كان هناك مشكلة الخدم فهي لا تحب أن يكون للخادمة أية مسحة من جمال والحديث يطول بينهما حول خادمة خرجت وأخرى جاءت وخادمة سرقت، وأخيراً قرر عدم التدخل في الأمر وترك الحرية المطلقة لزوجه شرط ألا تذكر له أخبارهن، والمشكلة الثانية وسائل التفاهم فقد وجد أن العقل لا يجدي نفعاً في التفاهم، وأدرك أنه من الواجب ألا يلتزم المنطق لأنه إذا أراد الراحة والهدوء يجب أن يضحّي بالمنطق، ويقول الكلمة السخيفة إذا كانت تشعرها بالرضى.

لم تكن لديه مشكلة مالية فبعد تخرجه من مدرسة القضاء نُدب مدرساً للأخلاق بمدارس الأوقاف الملكية بمرتب آخر، ثم زاد رزقه وذلك عائد لما ربح من كتبه ومقالاته، وقد كان ميالاً للتبذير وهو مدخن وزوجه أميل إلى التدبير .

علّم ولده الأول في المدارس الفرنسية في الفرير، ثم نقله بعد السنة الثالثة الثانوية إلى مدرسة مصرية، ولما نجح كان مجموعه يسمح له أن يدرس الطب أوالهندسة فاختار الهندسة ، واعتنى بالولد الأول لأنه مثل لإخوته .

- **الحرب العالمية الأولى وأحداثها:**

خُلِع الخديوي عباس إبان الحرب العالمية الأولى ،ووّلي الأمير حسين كامل سلطاناً على مصر، فحز في نفوس المصريين تعيينه من قبل بريطانيا بعد أن أعلنت الحماية على مصر وكان والي مصر يعين من قبل سلطان الآستانة ،عانت مصر من ويلات الحرب ، واعتداء الإنكليز على الأهالي وتشغيل العمال المصريين رغماً عنهم ، ونزع السلاح من المصريين، واحتكار محصول القطن وتحديد ثمنه ، وقد قبض الإنكليز على سعد زغلول رئيس الوفد المصري .

هذه الأحداث جعلت مدرسة القضاء تغلي ، ومعها المدارس العليا الأخرى، فذكر أحمد أمين اتصاله بالثورة وعبد الرحمن فهمي سكرتير الوفد يقول: "ولما اشتعلت نيران الثورة كنت من المتصلين بعبد الرحمن بك فهمي سكرتير الوفد ، وكان يضم إليه جماعة من الشباب يوزع عليهم الأعمال......." [١]

طُلِب من أحمد أمين إلقاء الخطب السياسية في المساجد بعد صلاة الجمعة، وكتابة المنشورات التي يذكر فيها أهم الأحداث ،وكانت صلته شديدة بسكرتير سعد باشا زغلول، كامل بك سليم وعندما أُطلِق سراح سعد زغلول، وذهب كامل بك سليم مع الوفد إلى باريس، كان عليه وصف الحالة في مصر، وإرسال تقارير إلى سكرتير سعد زغلول ليطلعه عليها ، وكانت تلك التقارير سبباً في معرفته لسعد زغلول، فكثر اتصال أحمد أمين بسعد زغلول .

---

[١] المصدر السابق ،ص١٨٩.

وبعد انقسام الوفد ، واتّهام عدلي باشا وأصحابه ببعض الأمور كان أحمد أمين في صف سعد زغلول، ولكنه لم يرض مرة عن تجريح سعد زغلول لعدلي ، وسأله الأدلة على ذلك فلم تقنعه، مما جعل أحمد أمين يرد عليه فغضب منه سعد زغلول، واتّهمه بأنه سيء المنطق في ذلك اليوم .

أخذته السياسة فشارك في المظاهرات قويت الحركة الوطنية في مدرسة القضاء ، ولم يستطع عاطف بك بركات السيطرة على الأمور ، وكانت وزارة نسيم باشا وهي ليست على وفاق مع سعد باشا فاجتمع بعض الطلاب تحت شباك الحجرة التي ينعقد فيها المجلس ، وهتفوا بحياة سعد وسقوط وزارة نسيم، فاتّهم رفعت باشا عاطف بك بأنه دبر تلك المؤامرة، وأعلن مساء إحالة عاطف بك على المعاش ، وهذا الحادث أثّر في نفس أحمد أمين وأحزنه لأنه لازم عاطف بك نحو خمسة عشر عاماً في مدرسة القضاء تلميذاً ومدرساً ، واستفاد من تجاربه.

كانت ثورة مكسيم داخلية مع الفلاحين والعمال ضد القيصر، أما ثورة أحمد أمين فكانت خارجية على الإنكليز،وقد شارك في المظاهرات ووقف موقفاً معاكساً لطه حسين الذي كانت علاقته طيبة بسعد زغلول بينما علاقة طه حسين كانت فاترة بسعد زغلول، ويمكن أن أقول إن ثورة أحمد أمين وطه حسين واحدة تتمثل في مقاومة الاحتلال الخارجي وهم الإنكليز، وبالحديث عن ثورة حنا مينه فقد كانت داخلية وخارجية ، داخلية وذلك عندما أيد ثورة زنوبة ضد الدرك حيث قامت بإحراق مخزن الحبوب، وخارجية عند مشاركته في مظاهرة سلمية ضد الفرنسيين في السراي بسبب بطالة عمال المرفأ، والتي تحولت إلى معركة فكانت مأساة حقيقية.

وهذا مارآه الناقد الفرنسي فان تيجم أن الأدب العام يهتم بالوقائع المتشابهة يقول:"الأدب العام فهو يرى أن مهماته الأساسية أن يحصى أكبر عدد ممكن من الوقائع الأدبية التي تمثل وجود مشابهات أكيدة في بلدان مختلفة، وأن يحاول تفسير هذه المشابهات بتأثير علل مشتركة.."(١)

---

[١] ـ فان ،تيجم ، " الأدب المقارن" ، دار الفكر العربي،القاهرة،ص١٩٥.

وهذا ما ورد لدى كتّابنا من تشابه في الظروف والأحداث المحيطة بهم .

عيّن ناظر جديد للمدرسة ليس لأحمد أمين معرفة به لم يستطع كتم عواطفه تجاه عاطف بك ، فلم يستقبله عند حضوره ، ولم يسلّم عليه إلا إذا قابله صدفة ، وأعلن ذلك أمام مجموعة من الأساتذة ، وساءت حالته في المدرسة، قرر مرة مجلس الإدارة تعيين متخرج من مدرسة القضاء يدرس في المدرسة بشرط ألاّ يدرس الفقه ، فوجد أحمد أمين أن القرار مجحفٌ ، وتحدث مع المدرسين والطلبة وهاج الطلبة لِما سمعوا.

سمع الناظر الجديد بذلك فذهب إلى رئيس الوزراء عدلي باشا، وأخبره بأنه لا يستطيع العمل معه، فأصدر أمراً بنقله إلى القضاء، فعينه قاضياً في محكمة قويسنا الشرعية، وبذلك انتهت مرحلة سن الشباب وهي زهرة العمر التي استمرت خمسة عشر عاماً بين طالب ومدرس ، نال فيها أكثر ثقافته ، واستخلص تجاربه من الحياة ، ولم يظهر في السياسة ظهور زعمائها ، لأنه لم يكن شجاعاً كشجاعتهم ، ويخاف السجن والعقوبة ، وأسباب خوفه إشفاقه على والده وقد أصبح ابنه الوحيد،وبقي في القضاء أربع سنوات ، سنة في قويسنا وسنة في طوخ،وسنتين في محكمة الأزبكية

- **وفاة والده، وعاطف بك بركات**

مات والده في فترة القضاء ، وهو قاضٍ في قويسنا إثر عملية جراحية فقد بقي مريضاً فترة طويلة من غير أن يعرض نفسه على طبيب أخصائي ، انتهز فترة غياب ابنه في قويسنا ،وذهب إلى طبيب جراح فعمل عملية الفتق عن غير علمه، ثم بعثوا إليه وأخبروه فذهب إلى العيادة، وطمأنه الطبيب أن العملية نجحت ، لكن لم يمض يوم حتى أصيب بالتهاب رئوي قضى عليه في ساعات ومات ، وقد تحدّث عنه فقال:" وبذلك انتهت حياة حافلة شاقة مُلئت بالكد الدائب والسعي المتواصل في طلب العلم وطلب الرزق فقلّ أن يفارقه كتاب يقرؤه أو يكتبه ، ورزقه متصل بعلمه من درس يدرّسه أو كتاب يصححه أو نحو ذلك ..."[١]

كان أكبر رجل دين في الحي يسعى إليه الأغنياء والفقراء في أمورهم الدينية ويحترمونه، ويطلب أعيان الحي أن يقرأ لهم درساً دينياً في بيت من بيوت أحدهم ،بسيط في

[١] أمين ،أحمد " حياتي"،ص٢٠٠.

أكله ولبسه وشربه ونومه ، يحاسب أولاده إذا قصروا في عملهم محاسبة عسيرة وله ميزة أنه يرحب بتعليم البنت كما يعلم الابن فقد أرسل أخته الكبرى إلى المدرسة السيوفية في الوقت الذي كان يرى أغلب الناس أن تعليم البنت في المدارس جريمة لا تغتفر.

كان كل ما يشغله أزهره ومسجده وكتبه ، أما الأمور السياسية والاحتلال والحياة الاقتصادية والاجتماعية فلا يعلم عنها شيئاً ،فضل أحمد أمين على أخوته، فاعتنى بتعليمه لما كان يظهر له من استجابة وطاعة ، ويرجع الفضل إليه في علمه من يوم ذهابه إلى الكتّاب إلى يوم دخوله مدرسة القضاء ، فقد تعلّم منه الصبر على الدرس، وتحمل العناء بعد أن كبر ودخل مدرسة القضاء انقلب خوف أحمد أمين من أبيه إلى حب وإجلال له.

بعد فقده لوالده بقليل توفي والده الروحي عاطف بركات، فحزن عليه حزناً شديداً، ومعرفته بعاطف بك استمرت نحو ثمانية عشرعاماً، منها أربعة وهو طالب وعشرة وهو مدرس، وأربعة وهو يشتغل بالسياسة ، فبعد خروجه من المدرسة على الشكل الذي أشرت إليه، تفرغ للسياسة وانضم إلى الوفد ، ونفي إلى سيشل.

لما رجع وتولى سعد باشا الوزارة عين عاطف بك بركات وكيلاً لوزارة المعارف، فعرض عاطف بركات على أحمد أمين أن يكون أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق، فوافق ولكن عاطفاً أصيب بمرض السرطان، ومات قبل أن يتم ذلك، كان يتميز بقوة التحليل وسلامة التفكير وحرية الرأي وقوة الحجة ، كان قليل المجاملة ، محباً لعمل الخير.

التدريس في الجامعة، وتأليفه" فجر الإسلام":

تكلّم طه حسين معه بالهاتف يوماً، وهو قاضٍ بمحكمة الأزبكية وطلب مقابلته وعندما ذهب لمقابلته عرض عليه أن يكون مدرساً بكلية الآداب فتردد قليلاً ثم قبل ، وقد وجد أساتذة الكلية وكأنهم عصبة أمم مؤلفة من أستاذ إنكليزي وفرنسي وبلجيكي وألماني وقليل من الأساتذة المصريين، والطلبة أحرار في الحضور أو عدمه.

أشرت في بداية الفصل إلى أن أحمد أمين ، وطه حسين ولدا في الفترة الزمنية ذاتها، كانت تربط بينهما صداقة ، ويتحدثان معاً بالهاتف، وقد ذكر عامر العقاد أن طه حسين اتصل بأحمد أمين يعرض عليه العمل مدرساً بكلية الآداب حيث يقول: " بقي أحمد أمين قاضياً شرعياً بمحكمة الأزبكية بالقاهرة حتى سنة ١٩٢٦، وذات يوم دقّ جرس التليفون في بيته بمصر الجديدة ،وكان المتكلم هو صديقه الدكتور طه حسين الذي عرض عليه في تلك المحادثة أن يعمل مدرساً بكلية الآداب، فتردد أحمد أمين قليلاً ثم قبل لاسيما أنه يحب التدريس ،ويفضله على عمله بالقضاء..."[١]

درس في أول سنة درسين درساً قرأ فيه "الكامل" للمبرد ، ودرساً قرأ فيه البلاغة فبحث في المكتبة الإنكليزية عن كتب في البلاغة، وقارن بينها وبين كتب في البلاغة العربية واختار خيرهما .

تميزت الجامعة عن المدرسة بالتشجيع على البحث ،وقد بحث الدكتور طه حسين وأحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادي في مشروع واسع خلاصته دراسة الحياة الإسلامية من نواحيها الثلاث في العصور المتعاقبة من أول ظهور الإسلام، فتخصص الدكتور طه حسين بالحياة الأدبية والأستاذ العبادي بالحياة التاريخية ، واختص أحمد أمين بالحياة العقلية ، وأخذ يحضر الجزء الأول الذي سماه " فجر الإسلام " حيث رسم منهجه ،ورتّب موضوعاته.

---

[١] ـ العقاد، عامر ،" أحمد أمين حياته وأدبه" ،منشورات المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ،ص٤٧.

وأتم الجزء الأول من " فجر الإسلام " في آخر سنة ١٩٢٨م ،وقد استقبل الناس هذا الجزء أحسن استقبال ،واستمر أحمد أمين في الكتابة فألّف كتاب "ضحى الإسلام " في ثلاثة أجزاء، ورتب موضوعاته .

- **رحلته إلى الأستانة:**

أتيحت له فرصة السفر خارج مصر سنة ١٩٢٨ وهو مدرس بكلية الآداب حيث استدعاه الأستاذ أحمد لطفي السيد مدير الجامعة، وأخبره بأن الأمير يوسف كمال يريد البحث في مكتبات الأستانة عن كتب جغرافية قديمة ، وطلب منه أن يختار له اثنين فوقع اختياره على أحمد أمين وعبد الحميد العبادي فقبلا.

وقد أشار الدكتور غسان السيد أستاذ الأدب المقارن بجامعة دمشق إلى بعض الأمور التي أدت إلى الاتصال بالثقافة الغربية يقول:"لقد أتاح الاتصال المبكّر بالثقافة الأوربية عن طريق البعثات العلمية والحروب الاستعمارية الاطّلاع على نمط جديد من الحياة الثقافية استوجب نظرة متفحصة مزدوجة على الذات والآخر" .[١]

هذا ما حدث مع أحمد أمين عندما سافر إلى الخارج، وأحياناً كان السفر لأسباب علمية وأحياناً أخرى بسبب ظروف الحرب فقد كان عضواً في لجنة سافرت إلى لندن لوضع مشروع اتفاق من أجل فلسطين .

مكث في الأستانة أربعين يوماً ، وقد رغب في أن يدون مذكرات يومية قبل أن ينام وقد بدا بذلك أقرب إلى المؤرخ تلك المرة الأولى التي رأى البحر فيها من داخله عندما كان على ظهر الباخرة ، في اليومين الأولين كان البحر وديعاً، في اليوم الثالث هاج فأصيب بدوار ، ونزل أزمير في ذلك اليوم ، وفي اليوم الرابع وصل إلى الأستانة ، وأدرك جمالها عندما شاهد ضواحيها .

---

[١] السيد ،د.غسان ،"دراسات في الأدب المقارن والنقد"،مطبعة زيد بن ثابت،١٩٩٦ص١٦٨

ُأعجِب بنظافة الأتراك فعلى سبيل المثال عندما كان يدخل إلى بيت الشخص الفقير يجده قد فُرش فرشاً بسيطاً، ولكنه يتميز بالنظافة، ولا يسمح التركي لنفسه، أو لضيفه أن يدوس على الفرش بنعله .

وهناك ميزة أخرى ألا وهي الهدوء فقد أمضى أربعين يوماً لم ير فيها نزاعاً أو مشاجرة في الشارع، وقد كان يدخل المقهى وهو مملوء بالناس، فإذا أغمض عينيه يظن أنه لا أحد فيه فهم كما يقال عنهم إنكليز الشرق.

وقد كان يورِد في مذكراته ذهابه صباحاً ومساء إلى مكتبات الأستانة ، وأهم ما في الرحلة عندما كان يخرج للتجول في الشوارع ، ويزور القرى ويرى الناس وهم يمشون في تلك الشوارع وهم يندمجون به، وقد زار مرة مسجد السلطان أحمد وهو مسجد كبير عظيم .

وقد أشار إلى أن الأتراك كانوا يحرصون على قضاء يوم الجمعة في الضواحي فهو يوم العطلة الرسمية ، حيث تُغلَق فيه الحوانيت وتُعطل الأعمال وساوت الرجل سياسياً واجتماعياً ومدنياً ، وفُتِحت لها أبواب الكسب والوظائف.

السفور لم يكن السفور قانوناً بل دعوة دعا إليها مصطفى كمال أتاتورك وألح فيها، فاستجابتِ المرأة لها، أما مساواتها بالرجل اجتماعياً فقد نص عليها القانون المدني، فساوى بينهما في الميراث ، وشرع للمرأة أيضاً مساواتها بالرجل في الحقوق السياسية فلها حق بأن تنتخِب و تُنتخَب ، عِني بتعليمها وفُصِل الدين عن الدولة .

مِنِع الإسراف في جهاز العروس فلا تقام أفراح أكثر من يوم واحد، ُألغِيت الطرق الصوفية، وُأغلقت الزوايا، وحرّمت الألقاب الصوفية من درويش وأستاذ ونقيب،حدّد يوم الجمعة عطلة إلزامية للمصانع والمخازن والمتاجر وغير ذلك، ومن لم يعطّل يعاقب باستثناء الأفران والجزارين وبائعي الخضر والدخان والصيدليات، تلك أهم مظاهر الانقلاب التي ذكرها أحمد أمين في تركيا.

قابل أحمد أمين علي بك فوزي، فبقي معه نحو ثلاث ساعات، ودار الحديث حول شؤون مختلفة استفسر فيها عن الأحوال الاجتماعية في تركية فأجابه بأنه يجب أن يراقب

التطور الحادث في تركيا مراقبة جيدة ، لأن مصر مرتبطة بتركيا ارتباطاً كبيراً من تلك الناحية ، وهناك عادات وتقاليد مصرية كثيرة مأخوذة من تركيا فإذا حدث أي تغيير في تركيا فسيؤدي إلى تغيير في مصر .

وتحدثا حول أكبر مظهر للانقلاب التركي وهو السفور، فذكر أحمد أمين رأي علي بك فوزي في السفور حيث يقول: " إن أكبر مظهر للانقلاب التركي هو السفور، وقد أفاد الأمة التركية من حيث إصلاح الزواج، فكل من الزوجين يرى صاحبه ويأنس به قبل عقد الزواج، وثم إن السفور مكّن المرأة من معرفة كثير من شؤون الدنيا ، وكانت تجهلها ...."[١]

سأله رأيه في القبعة فاستحسنها ، وعدها أفضل من الطربوش للرأس والعين ، فهو لا يحب الطربوش ، تحدث معه عن أحاديث شخصية منها هل لا يزال يحن إلى مصر فأجابه إن حنينه شديد ، لكنه يرغب بالإقامة في تركيا لأنها الصدر الرحب الشرقي والأوربي.

شعر أحمد أمين عندما قارن نفسه برفاقه في أثناء سفره بأنه أكثرهم تحفظاً، وأقلهم ابتهاجاً، وأشدهم حنيناً إلى وطنه وأهله ،ومن ناحية أخرى فكّر عند عودته إلى مصر في إنشاء مطبعة ينشر فيها الكتب القيمة التي وجدها في الأستانة، ويكون هذا العمل مربحاً له مادياً وأدبياً.

خُتِمتِ الرحلة بمأساة قبل وصول الباخرة إلى الإسكندرية بيوم وذلك عندما صعد فوق ظهر الباخرة ، وأراد الجلوس على كرسي من قماش وهذا الكرسي يقفل ويفتح ، فتحه وأخذ يسند يده على خشبتيه الجانبيتين فانفلتت خشبته الخلفية، ووقع إصبعه الخنصر بين الخشبتين الجانبتين فانقطع طرفها العلوي ، وتدلت لحمتها ، وسال دمه ، وحضر طبيب الباخرة فأعاد اللحمة المتأذية إلى مكانها وربطها ، لما وصل مصر ذهب إلى الجراح فطلب منه تصوير عظمة الإصبع بالأشعة فوجدها سليمة، و ترك ذلك الحادث أثراً واضحاً في إصبعه.

---

[١] أمين ، أحمد ، " حياتي"،ص٢٣٠.

سفره إلى بلاد الشام والعراق والحجاز:

سافر إلى الشام في إجازة نصف السنة، وكانت مدتها خمسة عشر يوماً في الشتاء حيث خرج مع مجموعة من الطلبة والأساتذة وقد أشرفتِ الكلية على الرحلة ، رحلوا من القاهرة إلى القنطرة وعبروا القنال ، واخترقوا صحراء سيناء بالقطار، فوصلوا محطة اللد،ثم استقلوا قطاراً آخر إلى بيت المقدس ، واستمتعوا بمناظر الجبال والوديان .

زاروا بيت لحم ، والمسجد الأقصى وقبة الصخرة، ثم رحلوا إلى البحر الميت وساروا إلى أريحا ونهر الشريعة وشاهدوا الجسر الفاصل بين فلسطين وشرق الأردن، ثم مروا بنابلس ووصلوا بعد الناصرة، بلدة السيد المسيح عليه السلام بيت لحم ثم طبرية، ثم ساروا بعدها إلى دمشق حيث زاروا المسجد الأموي فسحِروا بعظمته ثم ركبوا القطار إلى حلب فتجولوا فيها وأُعجِبوا بنظافتها ، ثم معرة النعمان وحماه ووصلوا إلى بيروت، فزاروا الجامعة الأمريكية ومدرسة الآباء اليسوعيين، وأخيراً عادوا على ظهر الباخرة إلى الإسكندرية.

تحدث أحمد أمين عن الفائدة التي جناها من لذة الرحلة فيقول :" لقد استفدت من هذه الرحلة رؤية هذه البلاد وأهلها، وعرفت طرفاً من حياتها الاجتماعية ومشاكلها السياسية ومناظرها الطبيعية ...."[١]

وقد ناقش توفيق الحكيم مسألة تناول الأديب للأحداث فهي تختلف من أديب لآخر تبعاً للمجتمع الذي يعيشه، وأيضاً تعمق الأديب في تلك الأحداث ، وأجد هنا أنه من خلال ذلك يظهر عمق الكاتب، أو سطحيته في الكتابة يقول توفيق الحكيم:"وهنا يختلف أيضاً بين أديب وأديب، وفنان وفنان ...فحوادث البيئة، وقضايا العصر عملة ذات مراتب وطبقات ،فيها قروش النيكل، وفيها عشرات الفضة، وفيها جنيهات الذهب...فهناك الأديب أوالفنان الذي لا يرى من حوادث البيئة غير الحي أو القرية أو المدينة التي يعيش فيها ويعرف أهلها وأحوالها ، فيصفها ويصورها أدق وصف وأبرع تصوير ..وهناك الأديب،أوالفنان الذي يضيف إلى هذا

[١] المصدر السابق،ص٢٤٤.

التصوير الدقيق للحي أو القرية أو المدينة نفوذه إلى روح مشكلاتها العامة لا الخاصة بكل شخصية من الشخصيات.."[1]

رتبت كلية الآداب في السنة التي تليها رحلة إلى العراق وكان وقتها في إجازة نصف السنة ، وكان أعضاؤها بعض أساتذة الحقوق وكلية الآداب ، وبعض الطلبة اجتازوا في هذه الرحلة الطريق التي اجتازوها في رحلتهم إلى دمشق تقريباً، ثم ركبوا السيارات من دمشق إلى بغداد ،وفي بغداد التقوا بالشاعرين الكبيرين جميل الزهاوي ومعروف الرصافي ، واستمعوا إلى شعرهما .

قرروا السفر إلى الموصل، ووصلوا بالقطار إلى كركوك حيث باتوا فيها ، وشاهدوا فيها منابع البترول وكيف تحفر الآبار، وأوقفهم المطر الغزير عن متابعة السير إلى الموصل فعادوا من كركوك إلى بغداد ، وودعوا أهلها ، وتابعوا طريقهم إلى تدمر فشاهدوا قبورها وآثارها ،ووقفوا على أطلالها ، وذكروا الزباء وما قاله العرب والإفرنج عنها ، وباتوا ليلتهم فيها.

تابعوا طريقهم إلى دمشق ومنها إلى بيروت مخترقين جبال لبنان العالية وعادوا إلى مصر سالمين ،وقد وجد أحمد أمين أن هذه البلدان فلسطين وسوريا والعراق ولبنان بلاد متقاربة في الحياة الاجتماعية ،وسافر أيضاً إلى الحجاز للحج سنة ١٩٣٧ برفقة بعثة الجامعة المصرية .

- **سفره إلى الغرب:**

سنحت له الفرصة سنة ١٩٣٢ برؤية الغرب كما رأى الشرق حيث اختير عضواً في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في هولندة ، وقرر السفر قبل الموعد بنحو شهرين ليزور ما يمكن زيارته من المدن الأوربية، وأبحر إلى مرسيليا مع صديقه الدكتورعبد الرزاق السنهوري .

[1] الحكيم ،توفيق، "فن الأدب"، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، المطبعة النموذجية ،ص٢٦٥-٢٦٦.

زارا مرسيليا وتجولا فيها، ثم سافرا إلى ليون وأقاما فيها ثلاثة أيام، شاهدا معالمها وجامعاتها ، ثم سافرا إلى باريس وأقاما فيها نحو عشرة أيام ، وضع له صديقه برنامجاً رتّبه بإمعان ليريه أهم مافي باريس من جد ولهو وعلوم وفنون وأبنية ضخمة وآثار رائعة.

أبرق إلى صديق له حتى يجهز له مسكناً في لندن ، ويستقبله في المحطة وقد أقام فيها نحو أربعين يوماً شاهد الريف الإنكليزي ، وتعرف أحوالها الاجتماعية قدر المستطاع، وسافر أخيراً إلى ليون بهولندة حيث كان ينعقد المؤتمر، وقد استمعوا في هذا المؤتمر إلى أبحاث المستشرقين في الإسلام والأدب العربي والهندي والصيني وما إلى ذلك.

جاء اليوم الذي سيلقي فيه بحثه ، وكان موضوعه " نشأة المعتزلة" وكان ذلك اليوم صعباً عليه لأنه لم يعتد في حياته أن يخطب باللغة الإنكليزية ، وقد طُلِب منه إلقاء المحاضرة باللغة العربية فرفض ، لأن أكثر المستمعين لا يفهمون العربية فألقاها في خجل .

رجع من هولندة إلى فرنسا ، وأقام أياماً أخرى في باريس، واستقبله فيها صديق آخر لم يكن قاسياً كصديقه الأول بل كان رفيقاً به ، واستمتع بالراحة والهدوء أخذ السفينة من مرسيليا إلى مصر فأصابها عطب، واضطر قبطانها أن يعرج بها على إيطاليا ، واستغرق إصلاحها أياماً، وفي تلك الفترة زار المدن الإيطالية القريبة ، ثم عاد إلى مصر، وأتم الاستفادة من هذه الرحل برحلة أخرى إلى أوربة نفسها سنة ١٩٣٨ زار فيها إيطاليا وفرنسا، واستمتع بجمال الطبيعة .

سيرة أحمد أمين هي قصة تحدث فيها عن نفسه، وراعى فيها الموروث العربي وطعمها بالثقافة الأجنبية من خلال اطّلاعه على اللغة الغربية، وسفره إلى الغرب وقد تحدث الدكتور عبد ا   أبو هيف عن الأمور التي ساهمت في تطور القصة العربية الحديثة، وهي الموروث الذي حافظ عليه الكتّاب العرب، إلاّ أنهم طعموه بالثقافة الأجنبية من خلال الترجمة، حيث يقول:"وتفيد النظرة الجدية لتطوير القصة العربية الحديثة أن هذه القصة استمرار للتقاليد الأدبية العربية في القص ، وأن المكونات التراثية هي الأساس في تطورها أما المؤثرات

الأجنبية ، مباشرة أو ترجمة أو اقتباساً فتتضافر مع مؤثرات عصرية أخرى لتؤلف دلالات التجديد في حداثة القصة العربية اليوم".(١)

- **حياته العامة والخاصة:**

رقّي في كلية الآداب من مدرس إلى أستاذ مساعد، ومكّنه ذلك أن يصبح عضواً في مجلس إدارة الكلية ، كان المجلس مؤلفاً من أساتذة عرب وأجانب يتكلم أحدهم بالعربية وآخر بالفرنسية وثالث بالإنكليزية .

مِنع أن يكون أستاذاً لعدم حصوله على الدكتوراه، فقدم طلباً لنيل الدكتوراه ، وقدم لذلك كتابي "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام" بوصفهما رسالةً للمناقشة ،واقترح أن يكون أكثر الممتحنين من الأساتذة الأجانب المستشرقين ، وصمم وزير المعارف على رفض طلبه ، ولم يتم الامتحان.

أحس بعض أخوانه من أساتذة الجامعة، وأعضاء التأليف بعدم عدالة ذلك التصرف فأقاموا حفلة تكريم له ،وبعد الحفل بأيام شعر بخمود شديد في جسمه ، ولدى عرضه على الطبيب قرر أنه مصاب بالسكري ، وطلب منه الاعتماد على السوائل أياماً، ثم بعد ذلك جعله يتّبع حمية دقيقة في الأكل تجنّب فيها النشويات والسكريات ، ومنذ ذلك الوقت اضطر إلى أخذ حقن الأنسولين.

أشار إلى أن الجامعة قررت منح الأستاذية من غير دكتوراه، واستثنته بسبب موقفه الذي كان يطالب فيه باستقلال الجامعة يقول :" وبعد ذلك أُريد أن يمنح غيري الأستاذية من غير دكتوراه وأُحرم أنا لمواقفي السابقة في المحافظة على استقلال الجامعة، فطلبت أن تُؤلَف لجنة لبحث مؤلفاتي فاختير لذلك لجنة من الأستاذين المستشرقين الدكتور شاده والأستاذ برجستراسر " (٢)

أقر الأستاذان المستشرقان استحقاقه الأستاذية، وقامت وزارة المعارف بإخفاء التقرير لأنه مخالف لما كانت ترغب ، فطُلِب من العميد أن يطلب التقرير من الوزارة فقامت

[1] أبو هيف، د. عبدالله، "القصة العربية الحديثة والغرب"، اتحاد الكتاب العرب،دمشق، ١٩٩٤،ص٧١
[2] أمين، أحمد ،" حياتي" ،ص٢٦٤.

بالمماطلة ثم أرسلته ، وحاولت إخفاءه في مجلس الجامعة ، ولم يستطع الحصول على الأستاذية إلا بعد جهد، وبعد أن قدم استقالته لأنه لم يعامل معاملة زملائه،وأختير ليكون ممثلاً لكلية الآداب في مجلس الجامعة ، وبقي على ذلك نحو عشر سنوات، وساعدته خبرته الواسعة ،وتجاربه الكثيرة .

لقد علّمه عاطف بك بركات قول الحق ولو كان مراً، ونصرته فحدثت حادثة في المجلس في أول انتخابه كانت بمثابة اختبار له ، فقد أُعلِن عن كرسي لأستاذ القانون الروماني في كلية الحقوق ، كان أفضل المتقدمين أستاذاً إيطالياً وأستاذاً فرنسياً ففضلوا الأستاذ الإيطالي لأهمية مؤلفاته في ذلك الموضوع، وفضل وزير المعارف الفرنسي لاعتبارات مجهولة ،وقف مع اثنين من زملائه بجانب الأستاذ الإيطالي ،وأخيراً بعث إليه وزيرالمعارف، وعندما انتهى حديثه معه سأله وزير المعارف عن سبب معارضة الأستاذ الفرنسي، فأجابه إن معالي الوزير يسره أن يرى رجاله يدافعون عما يعتقدون أنه الحق.

أخيراً أقر مجلس الجامعة تعيين الأستاذ الإيطالي، فكان ذلك نجاحاً باهراً شجعه على المضي في تلك الطريق، فقد استفاد من المجلس تجربة أخرى،وهي أن أغلب الناس يتضايقون ممن يعارضهم، ويحاولون إفشاله، ولكن إذا علموا أنه يدافع عما يعتقد في لباقة من غير أن يمس شعورهم كان موضع احترام من مؤيديه وخصومه معاً .

أشار الدكتور عبد المحسن طه بدر إلى أن الأديب الذي يعي تجربته، ويقارنها بتجارب الآخرين تجعل نظرته عادلة نحوهم يقول: "ومادام الأديب واعياً لتجربته على ضوء مقارنتها بتجارب الآخرين ، فإن ذلك سيعمق من تجربته، يفسح آمادها ويجعل نظرته إلى الحياة غير محصورة في نطاق اهتماماته الخاصة، وذلك مما يفسح السبيل ليكون أكثر عدالة إزاء الآخرين ،...وبذلك يساهم عن طريق الكشف عن هذه الاهتمامات والاستجابة الصحيحة لها في تمهيد الطريق لحياة إنسانية أفضل.[1]

شغل مركز عميد كلية الآداب سنة ١٩٣٩ بعد أن استلمه الدكتور طه حسين والدكتور منصور فهمي ، وشفيق بك غربال ، حيث عينه المرحوم محمود فهمي النقراشي باشا عميداً .

---

[1] -طه بدر ،د. عبد المحسن، "حول الأديب والواقع"، دار المعارف ،القاهرة ، الطبعة الثانية،١٩٨١ ، ص٢٧١

بقي في العمادة سنتين، وقد أسف على ضياع وقته وإيقاف عمله العلمي ، فلم يؤلّف في تلك الفترة كتاباً ، وسبب ذلك كثرة الطلبات والشكايات والعلاوات ،وكانت مدة العمادة ثلاث سنوات، وبعد سنتين حدث اختلاف في وجهات النظر بين وزير المعارف وبينه فقدم استقالته من العمادة وصمم عليها فقُبِلت، وبعدها أخذ يتم سلسلة "فجر الإسلام"و"ضحى الإسلام".

عندما كان أستاذاً بكلية الآداب سنة ١٩٣٦م ماتت أمه وهي في الثمانين من عمرها كانت طيبة القلب أمية لا تقرأ ولا تكتب ،محبوبة من قبل أهل حارتها ، مات ثلاثة من أولادها ولذلك عانت في حياتها.

عاد إلى الكتاب الذي هو أوفى صديق وبدأ بإعداد الجزء الأول من "ظهر الإسلام" والاشتراك في نشر كتاب "الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيان التوحيدي ، اشترك مع الأستاذ أحمد حسن الزيات في إخراج مجلة "الرسالة " فكان يكتب في كل أسبوع مقالة تغلب عليها الصبغة الاجتماعية ،والنزعة الإصلاحية .

اعتاد ومنذ بدايته بالكتابة إلى الاهتمام بالمعنى أكثر من اهتمامه باللفظ وتوليد المعاني أكثر من الزخارف اللفظية ، كذلك الأمر تعود من الأدب الإنكليزي الدخول في الموضوع من غير مقدمة ، وإيضاح المعنى دون تصنع .

حالت الظروف دون الاستمرار في مجلة "الرسالة "وأخرجت لجنة التأليف مجلة "الثقافة" وعهدت إليه أن يكون مديرها فكان يقرأ المقالات الواردة إليها ، ويحرر فيها كما كان يحرر في الرسالة .

طُلِب إليه أن يكتب في مجلات أخرى منها "الهلال" و"المصور" ففعل،وقد جمع مقالاته وزاد عليها في سبعة أجزاء سماها " فيض الخاطر " وطُلِب إليه أن يذيع أحاديث في محطة الإذاعة فأذاع مقالات تعمد فيها الحديث إلى ما يقارب العامية لتناسب جمهور السامعين.

ذكر حنّا الفاخوري أن الدكتور طه حسين نقد أحمد أمين عندما حاول التقرب إلى لغة العامة لأنه أراد من الأديب أن يرفع العامة ليشعروا بقيمة الأدب الرفيع يقول:"وطه حسين

يأخذ على أحمد أمين محاولة التقرب إلى لغة العامة، ومذهبه في ذلك أنه من واجب الأديب أن يرفع العامة إلى حيث يذوقون الأدب الرفيع لا أن ينزل بالأدب على مستوى العامة"....[1]

نُدِب سنة ١٩٤٥ مديراً لإدارة الثقافة بوزارة المعارف ، واختصاص تلك الإدارة النظر في اختيار الأساتذة الذين يندبون إلى الأقطار العربية ، وتنظيم العلاقة بين مصر والبلاد الشرقية، والبلاد الأجنبية في الشؤون الثقافية وتنظيم الإذاعة المدرسية، وتنظيم الحياة الاجتماعية للطلبة خارج المدرسة، واستخدام السينما في الثقافة .

حدث في سنة ١٩٤٦ حادث غريب عده أحمد أمين من أعاجيب القدر عندما ذهب إلى دار الحكومة بالإسكندرية لزيادة صديق له، وهوسكرتير مجلس الوزراء وعند خروجه قابل الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا وزير الخارجية في ذلك الوقت، وسأله رأيه في السفر إلى لندن ليكون عضواً مع ممثلي مصر في مؤتمر فلسطين، فاعتذر في بادئ الأمر ولكن الوزير صمم على ذلك فقبل.

ركب أحمد أمين الطائرة إلى لندن، وكانت تلك المرة الأولى التي يركب فيها الطائرة نزلت الطائرة في لندن، ووجد نفسه في جو سياسي يختلف عما تعود عليه بين كبار الساسة من العرب يتناقشون على غير النمط الذي ألفه في مجلس الكليات، ومجلس الجامعة .

تشكّلت لجنة صغيرة من ممثلي العرب ،وممثلي الإنكليز حتى يضعوا مشروع اتفاق وقد استطاع أن يخلو في لندن إلى أصدقاء له خبروا إنكلترا قبل الحرب وفي أثناء الحرب وبعدها، فأصغى إلى حديثهم في شؤون إنكلترا الاجتماعية فوجد ناسها كسائر الناس ، وعقليتهم كسائر العقليات ، وقد أعجبه منهم توزيع الاختصاص ، والنظام الدقيق ثقة الكبير بالصغير والصغير بالكبير ، معالجتهم الأمور معالجة علمية منظمة، وذهب أيضاً إلى سويسرا لفترة قصيرة مع بعض أصدقائه ، وتمتعوا بمناظرها الطبيعية ومنها إلى مرسيليا وقد كسب في تلك الرحلة أموراً كثيرة، لكنه خسر ما اتصل بفلسطين.

[1] الفاخوري ،حنّا، "الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث"، دار الجيل، بيروت ، الطبعة الثانية ،١٩٩٥،ص٣٥٠

خاض أحمد أمين في غمار السياسة فكان مشاركاً في أحداثها، يقول الدكتور شوقي ضيف:"اختير عضواً في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في بروكسل...ثم ينتدب مديراً للثقافة ويمثل مصر في مؤتمر فلسطين الذي انعقد بلندن سنة ١٩٤٦.."[1]

أُحيل على المعاش بعد بلوغه الستين، ففكر في أن يكون هيئة لنشر الكتب القديمة يستقل بالعمل فيها ، من أجل ملء وقت فراغه بعد إحالته على المعاش، وحال دون ذلك اتصاله بلجنة التأليف والترجمة فعمل اللجنة من جنس ما ينوي عمله ، ويأسر حريته فيما ينشر مجلس إدارة اللجنة .

وفي أحد الأيام وهو عاكف على القراءة والكتابة والدرس، وإذ به فجأة يرى وكأن نقطة سوداء على نظّارته ، فحسبها أول الأمر نقطة ماء سقطت عليها فمسحها، ثم وضعها على عينيه ،ولكن لم يتغير شيء فالمشكلة في العين وليست في النظّارة ، وكان ذلك اليوم وقفة عيد الأضحى فبحث عن طبيب، ولم يجده إلا بعد عناء.

كشف الطبيب على عينيه فظهرت على وجهه ملامح الكآبة، وأخبره بأن المرض هو انفصال في الشبكية وليس له دواء إلا إجراء عمل جراحي، فلم يقتنع وزار أكثر من طبيب وأجمعوا كلّهم على التشخيص وطريقة العلاج، باشر علاجه في المستشفى، وصار نهاره ليلاً بل أكثر من ليل فالجلوس ممنوع، والتقلب على الجوانب ممنوع ،فأخذ يفكر في الدنيا وسخافة الناس الذين يشغلون أنفسهم بأمور تافهة.

كان يعزي نفسه بأن حوله في الحجر المجاورة في المستشفى مرضى يتألمون وهو لا يتألم ، وقد أتى الطبيب بعد خمسة عشر يوماً من العملية،وأخبره إنه سيكشف عن قاع العين، وهناك احتمالان إما أن تكون أعصاب العين لم تقو على الالتحام وهذا يعني إخفاق العملية وإما أن تبدأ بالالتحام وهنا يعني الأمل في النجاح .

شعر أن الأربع والعشرين ساعة تعادل أربعة وعشرين شهراً عنده لأنه كان ينتظر نتيجة إما الفشل وإما النجاح، مر خلال ذلك على ذاكرته بشاربن برد (٧١٤-٧٨٤م)وأبو

[1] ضيف، د.شوقي ، "الترجمة الشخصية" ، ص١٢٤

العلاء المعري(٩٧٣-١٠٥٧م) حتى يكونا عزاء له، بشاربن برد عاش كما يعيش المبصر يمزح ويضحك ويقول: إنه إذا لم يستطع العشق بالنظر يعشق بالأذن ، استمتع بالحياة المادية ،أما أبو العلاء فحزن واسترسل في حزنه،وأعرض عن لذات الحياة الدنيا، وتحول الحزن إلى سخط على الناس،ورأى أنه لو أصيب في عينيه لكانت طبيعته أشبه بطبيعة أبي العلاء المعري الذي فقد بصره وهو في الرابعة من عمره.

حضر الطبيب بعد انتظار طويل ، وفحص العين فوجد أنها بدأت تلتحم، كانت الأيام الآتية حرجة، وتحتاج إلى عناية كبيرة وقلة حركة، رفع الطبيب الرباط عن العين السليمة بعد أربعين يوماً، وبقي الرباط على العين المريضة كانت الرؤية غير واضحة في العين السليمة، فأخبره الطبيب بأن العين تسترد وظيفتها شيئاً فشيئاً .

سأل الطبيب أن يسمح له بالخروج من المستشفى لعدم وجود عناية بالنفس حيث رأى أنه يجب أن يكون هناك ممرضات للنفس كممرضات الجسم يؤنسْن المريض بأحاديثهن ويقرأْن له فوافق الطبيب شرط الالتزام بتعليماته بعد فترة أخذت تضيء العين تدريجياً، ولكن وجد نفسه مستعصية على الشفاء، وسبب ذلك طول الرقود مع الظلام، والثاني أن طبيب العيون لا يزال يمنعه عن القراءة والكتابة، وكانت حياته كلها قراءة وكتابة، ولما حرم منهما أحاطه فراغ رهيب .

كان يدخل المكتبة فيزيد ألمه ويرجع ذلك لوجود كتب كثيرة ونهم للقراءة وهو ممنوع من ذلك، وأصبح يشعر بحب الضوء، وكراهية الظلام وحب النهار، وكره الليل بشكل غريب أفادته تلك التجربة المرة أن خير هبة يهبها ا للإنسان مزاج هادئ ، وأخيراً لم يستطع تجاوز أزمته إلا بعد سنة تقريباً، ولكن العين اليسرى التي نجحت عمليتها أصيبت بمرض آخر وهو الماء الأبيض والعين ستزداد ظلمة كلما تحرك الماء، وسيجري الطبيب له العملية بعد أن يتجمد الماء ،بسبب ذلك ضعفت قدرته على القراءة والكتابة، واضطر للاستعانة أحياناً بمن يقرأ له ويكتب .

منِح سنة ١٩٤٨ بقرار من مجلس كلية الآداب، ومجلس الجامعة الدكتوراه الفخرية نال بذلك لقب الدكتور،ومنِح أيضاً جائزة الملك فؤاد الأول، والغاية منها تشجيع العلم وحث العلماء على الإنتاج المثمر .

أحمد أمين واحد من الكتّاب المصريين المتميزين الذين كتبوا آثاراً تستحق الترجمة واطّلاع الآخر عليها وقد أشار الدكتور عبد ا أبو هيف إلى اهتمام الروسي بترجمة الأدب العربي الحديث في مصر وهذا دليل واضح على تأثّر الأدب الروسي بالأدب العربي، كذلك الأمر تأثر الأدب العربي بالروسي، وظهر ذلك في سيرة حنامينه الذي تأثر بمكسيم غوركي ويظهر من خلال ذلك نضوج التبادل الثقافي بين الأدبين العربي والروسي ، وهذا التبادل ليس مقتصراً على بلد دون الآخر فهو قائم بين الآداب كلها دون استثناء حيث يقول الدكتور عبدا أبو هيف "وصل الاهتمام إلى ترجمة مئات الأعمال القصصية لموجات القصاصين الجدد في الأقطار العربية كافة مع الإشارة إلى أن اهتمام الاستعراب السوفيتي حتى مطلع السبعينات كان منصباً على الأدب العربي الحديث في مصر..."[1]

جاءت المنحتان عقب العملية الجراحية في عينه فلم يشعر ببهجة في قلبه كما يجب ،وفي السنة ذاتها أيضاً أنشأت الجامعة نظام الأستاذ غير المتفرغ فعيّن أستاذاً غير متفرغ في كلية الآداب، ولم تقف إحالته على المعاش دون ذلك فعاد أستاذاً كما كان يحضر المحاضرات، ويلقيها.

خاتمة:

كتبت عنه الموسوعة العربية :"ضاق بالتعبير القائم على الزخرف والتنميق، والاهتمام باللفظ والرصف ، وكان من دعاة تيسير العربية ، لتكون أكثر مرونة ، ومطاوعة لألفاظ الحضارة ومصلحاتها "[2]

وكتب أحمد أمين سيرته الذاتية بعنوان " حياتي" بعد أن كتب مؤلفات نقدية مهمة "قصة الأدب في العالم" ،"النقد الأدبي " و"فجر الإسلام" "(١٩٢٨) و"ضحى الإسلام"و"ظهر

[1] -أبو هيف، د.عبد الله ،"العرب والحوار الحضاري "، وزارة الثقافة ،دمشق، ٢٠٠٧،ص٧٩
[2] الموسوعة العربية ، رئاسة الجمهورية ، هيئة الموسوعة العربية ، المجلد الثالث ، دمشق، الطبعة الأولى،٢٠٠١،ص٦٨٨.

الإسلام" و"فيض الخاطر" فهو مؤرخ وناقد وأستاذ جامعي ومترجم ،عمل قاضياً ، ومدرساً في الثانوية والجامعة وكتب في مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات وكما أوضحنا فلقد تزوج عام ١٩١٦ أي عندما بلغ التاسعة والعشرين من عمره وهو والد لثمانية أطفال ، ستة صبيان وابنتين، حاول تعليمهم قدر الإمكان ، وكان راتبه يساعده على ذلك.

حياة أحمد أمين مجموعة من المراحل فيها شيء من الغرابة، وفيها كثير من خطوط متعرجة أولها بعيد عن آخرها، فيها مفارقات ومخالفة للاحتمالات فمن كان يراه وهو في مدرسة أم عباس الابتدائية يظن أنه سيكمل دراسته الابتدائية والثانوية ، ويشغل وظيفة ربما وظيفة معلّم أو قاضٍ أو مهندس، ثم يعدل اتجاهه فجأة إلى الأزهر ، ومن كان يراه في الأزهر يعتقد بأنه سيكون عالماً من علمائه أوإماماً في مسجد ، ثم تغير اتجاهه مرة أخرى إلى مدرسة القضاء ، فكان أكبر الظن أن يكون قاضياً شرعياً ولكن تغير هذا الاتجاه فاتصل بالجامعة، وكان أستاذاً بكلية الآداب منذ عام ١٩٢٦وعميداً لها خلال عامي ١٩٣٩-١٩٤١، فكانت حياته متغيرة متحولة حسب كل مرحلة من المراحل التي مر بها.

الخاتمة ونتائج البحث":

مامر في هذا الكتاب هو حديث عن أدباء أربعة ، ثلاثة منهم عرب وأديب روسي تحدثوا عن أنفسهم من خلال فن هو فن السيرة الذاتية ، والحديث بدأ منذ مرحلة الطفولة المبكّرة لدى الكتاب الأربعة، واختلف الكتّاب الأربعة في المرحلة التي أنهوا فيها سيرهم أحمد أمين استمرت سيرته إلى مايقارب نهاية حياته حتى عام ١٩٥٠م ، وكتب طه حسين سيرته "الأيام" بمناسبة بلوغه الأربعين من عمره أي سنة ١٩٢٩، والجزء الثاني بمناسبة بلوغه الخمسين عام١٩٣٩والثالث عام١٩٦٧.

انتهت سيرة حنّا مينه سنة ١٩٣٩م عندما بلغ عمره خمس عشرة سنة، ويعني ذلك توقف سيرة حنا في بداية مرحلة الشباب تقريباً كتب "بقايا صور"سنة ١٩٧٥، و"المستنقع"١٩٧٧ و"القطاف"١٩٨٥، وأنهى مكسيم غوركي كتابة أحداث سيرته أيضاً كما أنهاها حنامينه في بداية شبابه عندما كان عمره تسعة عشر عاماً وقد كتب الجزء الأول "طفولتي"بين عامي ١٩١٣_١٩١٤والثاني "بين الناس "١٩١٥_١٩١٦والثالث "جامعاتي ١٩٢٣"

وقد اخترت ثلاثة أدباء عرب، وأديباً روسياً لأن الرسالة في اللغة العربية ومضمون السير الأربع هو حديث الكتّاب بشكل عام عن أنفسهم ،والأشخاص المحيطين بهم ، والأحداث التي مرت بهم خلال الفترة التي عاشوها ،بما فيها من أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية كانت تلك الأحداث على ارتباط وثيق فيما بينها،واستنتجت مايلي :

١-بالحديث عن الأوضاع الاقتصادية فقد عانى الكتّاب جميعهم من مشكلة الفقر ولكن بدرجات متفاوتة وصل فقر حنامينه درجة دفعته إلى أكل الأعشاب، فالوالد كان مستهتراً راغباً دائماً بالشرب والنساء ،ولا يهتم بأوضاع الأسرة إضافة إلى رغبته المتواصلة في السفر، وعدم فلاحه في مهنة معينة ،ويقع على عاتق أمه تحمل مسؤولية أولادها بسبب استهتار الأب.

فقد مكسيم والده وهو طفل في الرابعة من عمره أي عام ١٨٧٢، وهذه مصيبة في حياته ، فاضطر إلى الرحيل مع والدته إلى بيت جده، وهنالك عانى من الفقر عندما طلب منه

جده أن يخرج بين الناس فعمل أعمالاً كثيرة وشاقة لتأمين لقمة العيش حيث عمل بائعاً للأحذية،وعند بيت أخت الجدة، وحمالاً في الميناء، وغسالاً للصحون على ظهر باخرة ،واصطاد العصافير، وجمع الجوز الذي خبأته السناجب للشتاء، وعمل في أرض المعرض، وأيضاً عند رسام للأيقونات ،وعند خباز،والأجر الذي كان يتقاضاه لايتناسب مع تعبه ،ولا يكفيه لسد رمقه.

ولد طه حسين في أسرة متواضعة مادياً ، فمردود الوالد لم يكن كافياً لإعالة أفراد أسرته بشكل مرضٍ،وهو لم يعمل في صغره لأنه ُأصيب بآفة العمى وهو في الرابعة من عمره، وتحدث عن الفقر في قريته وعندما ذهب إلى الأزهر،تحدث عن فقر سكّان الربع وطبيعة طعامهم وكيف كان يبيع طلاب الأزهر المتقدمون في الدراسة بعض الأرغفة التي كانت تُعطى لهم ليشتروا بثمنها إداماً.

تحدث أحمد أمين عن الفقر، ولكن معاناته كانت أقل من غيره من الكتاب فقد كان والده يدرس ومردوده المادي مقبول،وذكر في رسالته الفقر عندما تحدث عن الحارة، وقسم طبقاتها إلى فقراء،ومتوسطي الحالة ،وبينهم رجل ثري، فالناس في المجتمعات التي كان يحيابها الكتاب فقراء على الأغلب.

٢-الأوضاع الاجتماعية :كان الجهل مناصراً للفقر لأن الناس كانوا يعملون فقط ليقتاتوا لذلك لم يكن لديهم وقت للتعليم، ونسب الذين يقرؤون، ويقومون بتعليم الأطفال قليلة جداً، وأذكر أنه عندما مرض حنامينه، وطُِلب منه تبرير غيابه بحثت أمه في القرية عن شخص يكتب لها ذلك، ولكنها لم تجد وأخيراً كتب لها شخص يعمل في الفحم بعض الأحرف غير المفهومة ،وعندما ذهب إلى المدير لم يفهم منها شيئاً فتبين أنه لا يعرف الكتابة .

الأحوال الصحية كانت متدهورة ،وأكبر دليل آفة العمى التي أصيب بها الدكتور طه حسين، وتعود إلى مرض بسيط يعالج في هذه الأيام بسهولة وهو مرض الرمد، ويمكن أحياناً أن يفقد الشخص حياته لقلة العناية بالصحة، فقد توفى أكثر من أخ لحنامينه وهم صغار وكذلك أحمد أمين وطه حسين ومكسيم أيضاً فقد أخاه من أمه.

وعندما عانى كل من أحمد أمين ومكسيم غوركي من مشكلة في بصرهما لم يجدا طبيباً اختصاصياً لمعالجتهما فلجأا إلى طبيب من اختصاص آخر.

٣-الأحداث السياسية ليست بمعزل عن الأحداث الاقتصادية والاجتماعية ، فقد ذكر حنّامينه في سيرته أنه عندما توقّف العمل في المرفأ في إسكندرونة وكان يشكل المورد الأساس لكثير من الناس اشتدت أزمة البطالة ، وبدأ الناس يعانون من المجاعة بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية، ونتيجة لذلك ظهر ثائرون على تلك الأوضاع منهم فايز الشعلة الذي قاد مظاهرة ضد الفرنسيين والبطالة والجوع.

كان أعضاء المظاهرة من العمال والفقراء ،ولم يكن لأغنياء المدينة وجود بينهم وعندما وصلتِ المظاهرة السوق قام أصحاب الدكاكين بإغلاقها، وكان ذلك أول إضراب في المدينة ،وشارك حنا في النضال بقلمه منذ أن كان صغيراً فقد كان يرفعه الرجال على أكتافهم ليكتب على جذوع الأشجار اسماً لرجل ثوري، ويقوم الرجال بحفره بسكاكينهم.

وناضل الفلاحون أيضاً في قرية الأكبر في إسكندرونة ضد الملاكين بعد أن حلّت المجاعة بسبب الجراد الذي قضى على كل شيء، وبطلة ذلك النضال زنوبة التي وقفت في وجه الدرك الذين قاموا بضربها، وضرب الفلاحين لأنهم اقتحموا مخزن السيد بسبب المجاعة فتخلصت زنوبة من الدرك،وأحرقت المخزن،وقد قُتِلت برصاصة دركي عندما كانت فوق سقف المخزن.

وقد أثّرت الأحداث السياسية على حنّا،وذلك عندما تم سلخ لواء إسكندرونة عن سورية سنة ١٩٣٩ فأدت تلك الأحداث إلى هجرته من اللواء إلى اللاذقية، والعمل في ريفها بقطاف الزيتون ،وقد عانى الفلاحون من ظلم المطعون والشوباصي ،وقد جرت حادثتان الأولى لبدور التي أراد المعطون أن يغويها ولكنها رفضت، ولذلك اتهمها بسرقة الزيتون وسجِنت فترة ،والحادثة الثانية هي معاقبة الفلاح صخر لأنه قطف حفنة من الزيتون لإطعام أولاده الجياع، وبسببها سجن، ولكنه هرب من السجن، وقتل المطعون.

تحدث مكسيم غوركي عن الفلاحين وثورتهم ضد القهر والجوع التي كانت تشبه ثورة زنوبة، وقد حاول مكسيم أن يرشدهم إلى طريق الخلاص والحرية من خلال توعيتهم ليتمكنوا من الإمساك بزمام السلطة، وانتزاعها من يد القيصر،لأنه رأى أن للشعب الحق في اختيار الموظفين والشرطة وحتى القيصر.

وكذلك الأمر أخذ مكسيم على عاتقه العمل على تنبيه العمال إلى حقوقهم ،وقد غذّى أفكاره روماس الذي رأى أن سعادة الشعب هي أسمى سعادة ،وعندما عمل مكسيم عند ديرينكوف في المخبز كان يحمل الخبز، ويضع أحياناً بعض الكتب تحت أرغفة الخبز،ويدس بعض الطلاب في سلّته كتباً،أومنشورات وقد أدرك مكسيم أن رفع الظلم عن الشعب المضطهد يقوم على كاهل المثقفين.

كان مصراً على حث المثقفين إلى اتخاذ موقف واضح في المعركة الدائرة بين الشعب،ومضطهديه لأنه يعلم الدور الخطير الذي يلعبه المثقفون في الحياة الاجتماعية، وفي فترات التحول ،وذكر أن الأشخاص الذين وقفوا في وجه القيصر لم يسلموا من ظلمه ومنهم بليتنوف الذي أعتقِل لأنهم وجدوا عنده قصعة يصنع فيها الحبر لطباعة المنشورات ضد القيصر.

تأثر طه حسين بالأحداث السياسية فالحرب العالمية الأولى أخّرت سفره إلى فرنسا وعندما كان في فرنسا ردته الحرب إلى بلده لأن الجامعة مرت بأزمة مالية بسبب ظروف الحرب وعلى الرغم من أنه قضى وقته في فرنسا في أثناء الحرب العالمية الأولى إلاّ أنه لم يصرف نفسه عن أحداثها وأوضاع بلده وحقه أن يحيا حياة كريمة.

ولاحظ بعد عودته من فرنسا أن العلماء والمفكرين كانوا يؤمنون بالثورة ولكنهم كانوا يحسبون كل خطوة يخطونها، بينما كان العامة مؤمنين بالثورة وقد أخلصوا لها، وعرضوا صدورهم لرصاص الإنكليز، وقد انقسم الناس والمفكرون إلى فريقين : فريق مال إلى الوفد ويمثله سعد زغلول وفريق آخر مال إلى الوزارة ويمثلها عدلي باشا وقد مال طه حسين إلى الوزارة ،وقد عرض نفسه للغضب حتى يكون راضي الضمير.

أثّرت الحرب العالمية الأولى على أحمد أمين كما أثّرت على طه حسين، وقد ذكر أن مصر عانت من ويلات الحرب واعتداء الإنكليز على الأهالي، ونزع السلاح منهم ، واحتكار محصول القطن، وقُبِض على سعد زغلول رئيس الوفد المصري ، وكان أحمد أمين وقتها في مدرسة القضاء، وتلك الأحداث جعلت مدرسة القضاء تغلي.

اتّصل أحمد أمين بالثورة وبعبد الرحمن بك فهمي سكرتير الوفد الذي وزع على الشباب الأعمال ، وطُلِب من أحمد أمين إلقاء الخطب السياسية في المساجد بعد صلاة الجمعة وكتابة المنشورات التي يذكر فيها أهم الأحداث ، وعندما أُطلِق سراح سعد زغلول تعرف أحمد أمين عليه فكثر اتصاله به، وعند انقسام الوفد عن الوزارة وممثلها عدلي باشا وقف أحمد أمين في صف الوفد وممثله سعد زغلول بينما كانت علاقة طه حسين فاترة مع سعد زغلول.

شارك أحمد أمين في المظاهرات، ولم تكن وزارة نسيم باشا على وفاق مع سعد باشا فاجتمع بعض طلاب مدرسة القضاء تحت شباك الحجرة التي ينعقد فيها المجلس، وهتفوا بحياة سعد زغلول وسقوط وزارة نسيم، وبسبب ذلك أُحيل عاطف بك بركات على المعاش لأنه لم يستطع السيطرة على الطلاب،وإيقاف الأحزاب، وأثّرت تلك الحادثة في نفس أحمد أمين لأنه لازم عاطف بك بركات أربعة عشر عاماً في مدرسة القضاء تلميذاً ومدرساً .

مكسيم غوركي من أهم مؤسسي الواقعية الاشتراكية ، وقد تأثر حنامينه بمكسيم غوركي وواقعيته الاشتراكية ، فقد تحدث كل منهما عن معاناة الفلاح والعامل ، حاولا إنصافهما، وظهر ذلك من خلال سيرتهما ومؤلفاتهما .

أما الدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين فقد كانت واقعيتهما نقدية ، فهما عرضا الواقع ومافيه من فقر وجوع عرضاً تصويرياً،ولم يعالجا قضايا العامل والفلاح وحاولا نقده دون السعي إلى حلول مناسبة للتخاص من ذلك الواقع المؤلم.

٤-وبالحديث عن مراحل تعليم الكتّاب الأربعة، والأشخاص الذين مروا في حياتهم وأسهموا في دعم موهبتهم أقول: إن مراحل دراسة طه حسين وأحمد أمين متقاربة فقد درس أحمد أمين

في الكتّاب ثم في مدرسة أم عباس الابتدائية، ثم اتجه إلى الأزهر وبعدها إلى مدرسة القضاء، ودرس في طنطا، وعمل قاضياً في الأزبكية، وقد اتصل به طه حسين وطلب منه التدريس في الجامعة، وقد استلم منصب العمادة فترة معينة من الزمن بعد الدكتور طه حسين .

درس طه حسين في الكتّاب والأزهر، ثم انتقل إلى الجامعة وبعدها ذهب في بعثة إلى فرنسا لنيل الدكتوراه، ودرس بعد عودته من فرنسا في الجامعة واستلم العمادة أيضاً، أما حنا مينه فقد تلقى تعليمه في مدرسة أرثوذكسية،ثم انتقل إلى مدرسة الرشدية،وبالحديث عن مكسيم غوركي فلم يدخل مدرسة إلا شهراً واحداً، وكانت مدرسته وجامعته هي الحياة التي استقى منها ثقافته العامة.

كان هناك أشخاص لهم تأثير في حياة الكتّاب وإبداعهم، فأول من دعم أحمد أمين وسانده والده الذي اهتم بترتيب برنامجه لدرجة أنه أرهقه، ويعود ذلك إلى حيرة والده أيوجهه إلى الوجهة الدينية فيعده للأزهر،أم يوجهه إلى الوجهة المدنية فيعلّمه في المدرسة؟ وأخيراً وجهه إلى المدرسة. وشخص آخر كان له دور في تشجيعه وهو الأستاذ عاطف بك بركات الذي كان ناظراً في مدرسة القضاء عندما استحسن موضوعاً كتبه أحمد أمين بعنوان"تأثير القرآن في تدوين العلوم" وقد كان يعاني أحمد أمين وقتها من ضعف في الإنشاء، ولكن بسبب ذلك الموضوع شهد له عاطف بك بركات بتفوقه في الإنشاء ،وقد دفعه إلى الاتصال بالجرائد فكتب في جريدة "المؤيد".

لم ير والدا طه حسين أن آفة العمى يمكن أن تقف حائلاً بينه وبين العلم فقد أرسله والده إلى الكتّاب، واستطاع في الكتّاب حفظ القرآن، ثم أرسله إلى الأزهر بصحبة أخيه الأزهري،وعندما اتصل بالجامعة حاول الكتابة، وشجعه على ذلك الأستاذان أحمد لطفي السيد وعبد العزيز جاويش وكان الأستاذ أحمد لطفي السيد يدعو إلى الاعتدال ،أما عبد العزيز جاويش فقد كان يحرض على الإسراف ، فإذا اقتصد طه حسين نشر في جريدة "الجريدة" التي كان يشرف عليها أحمد لطفي السيد، وإذا أسرف نشر في صحف الحزب الوطني.

كان لطه ثلاثة أصدقاء ساعدوه في رسالة الدكتوراه التي قدمها في مصر وهي "تجديد ذكرى أبي العلاء المعري" استطاع بفضل صديقه الأول أن يفرغ لدروس اللغات

السامية، وبفضل الصديق الثاني استطاع طه سماع آثار أبي العلاء، والصديق الثالث اشترى أداة من أدوات الطباعة، واستأجر ناسخاً كتب الرسالة بالحبر الذي يلائم تلك الأداة .

وفي أثناء سفره إلى فرنسا تعرف على فتاة فرنسية ساعدته في رسالته التي قدمها في فرنسا عن ابن خلدون بعنوان "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" فقد كانت تقرأ له اللاتينية والترجمة الفرنسية "لمقدمة ابن خلدون" وتاريخ اليونان والرومان ومقتطفات من الأدب الفرنسي،وبقيت هكذا حتى استطاع الظفر بدرجة الدكتوراه.

دعم مكسيم في مسيرته أشخاص منهم جده الذي علمه القراءة، واستجابته لجده جعلت جده يهتم به أكثر ويقلّل من عقابه، وتمثل دور جدته من خلال القصص التي كانت ترويها فحثّته بذلك على التأمل وشكّل من تلك القصص مخزوناً ساهم في دعم أفكاره عندما بدأ بالتأليف .

بدأت والدته بتثقيفه، فاشترت له بعض الكتب منها " مبادئ القراءة الروسية " فتعلم أحرف الهجاء المستعملة في غير الكتب الدينية ،وأخذته أمه إلى المدرسة مع ساشا ابن خاله ولم يبقيا إلا شهراً واحداً بسبب ابن خاله ساشا الذي غفا في المدرسة،وأخذ يصيح في نومه فسخر منه الطلاب فقرر عدم الذهاب إلى المدرسة، وشعر مكسيم بالغيرة منه، وبعد فترة توقف عن الذهاب إلى المدرسة.

ومن الشخصيات التي أسهمت في تثقيفه أيضاً زوج الخياط التي كانت تذهب إلى المكتبة مرتين في الأسبوع، طلب منها كتاباً، وتحدث معها عن عدم وجود وقت فراغ لديه لأنه كان يعمل عند بيت أخت الجدة وكان العمل مرهقاً، ويستلزم وقتاً طويلاً، فأخبرته بأن من يرغب بالقراءة يجد الوقت لذلك فحثّته من خلال كلماتها على المثابرة .

وهناك امرأة أخرى تابعت ماقامت به زوج الخياط وهي المرأة التي لقبها بالملكة مارغو، فأخذ يستعير منها الكتب ومن تلك الكتب التي استعارها كتاب هو مجموعة قصائد بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) فقرأها ولكثرة ماكرر تلك القصائد حفظها، وقد سحِر بموسيقاها.

وبالحديث عن حنا مينه فقد كان لوالدته دور كبير في إعمال فكره، وذلك عن طريق الحكايات التي كانت ترويها لأولادها، وهم في كوخ موجود في حقل من حقول التوت في السويدية، وأيضاً عندما سجلته في المدرسة الأرثوذكسية، وبعدها في المدرسة الرشدية .

وأثّر أيضاً بحنا مينه والده الذي كان يمتلك قدرة على سرد الأحداث ، ويستطيع أن يشكّل من أية حادثة بسيطة قصة،وذلك من خلال قدرته على إمساك الخيوط ومركزتها وعقدها وحلّها فيخرج بقصة،وعنصر التشويق لديه أكثر إتقاناً من الحدث ذاته ، وتلك الطريقة أثارت خياله وعززت الرغبة في داخله للكتابة.

تميز كتابنا بنهمهم الشديد للقراءة، وقد تعرضوا لبعض المشكلات في بصرهم نتيجة ذلك النهم للقراءة ، باستثناء الدكتور طه حسين الذي فقد بصره منذ طفولته ،ولكنه كان نهماً إلى الاستماع لمن يقرأ له فتميز بحسن الإصغاء.

٥- كانت سيرة مكسيم غوركي، الذاتية هي أقدم هذه السير الذاتية الأربع وتليها سيرة طه حسين فسيرة أحمد أمين فسيرة حنامينه ، هذا يتناسب مع تاريخ ميلاد كلّ من هؤلاء العمالقة الأربع تقريباً لأن مكسيم غوركي ولد عام ١٨٦٨ وكلهم انتقلوا إلى رحمته تعالى ، أما حنامينه فما زال على قيد الحياة أطال ا عمره .

ينتمي أدب غوركي ومينه إلى الواقعية الاشتراكية ، وهذا يعني أنهما صورا العمال والكادحين والفلاحين على أنها طبقات تستحق الاحترام ويحتاجها المجتمع ،وتخاف الدولة البورجوازية تنظيماتها، ووصفا ذلك في سيرتهما الذاتية وفي مؤلفاتهما الإبداعية الأخرى وآمنا أن المستقبل لهذه الطبقات ودرسا الفلسفة الماركسية.

أما الدكتور طه حسين وأحمد أمين فهما تلقيا دراسة دينية في الأزهر، ودرسا في الجامعة، وانتميا إلى مدرسة أدبية تختلف عن المدرسة الواقعية الاشتراكية، وانعكس ذلك في سيرتهما الذاتية، فهما يؤمنان بالإنسانية والشعبية والموضوعية وكلها صفات المدرسة الواقعية النقدية فلم يصفا الثورات والاضطرابات على أنها شرارة نور للمستقبل، ووصفا الفقراء وليس العمال وهناك فرق بين الفقراء والعمال ، ولا أعتقد أنهما اطّلعا على الفكر الاشتراكي، الذي

انتشر انتشاراً واسعاً في القرن العشرين ، ولاسيما بعد قيام ثورة ١٩١٧ في روسيا وبعد انتصار الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية مابين ١٩٣٩-١٩٤٥ فهذا كله لا نجد له أثراً في أدبهما ، وبذلك فأمامنا أربعة أدباء ينتمون إلى مدرستين مختلفتين .

ويتلخص الفرق الكبير الثاني في أن كلاً من غوركي ومينه روائيان ، في حين أن طه حسين وأحمد أمين هما ناقدان أديبان وأستاذان جامعيان ، وهذا الفرق انعكس في السير الذاتية التي بين أيدينا .

فغوركي وحنامينه يقدمان لنا السيرة الذاتية على شكل رواية السيرة الذاتية في حين أن طه حسين وأحمد أمين يقدمان تاريخ السيرة الذاتية ، فالخصائص الفنية عند غوركي ومينه أكثر وضوحاً منها عند طه حسين وأحمد أمين.

وجدت من خلال قراءتي لسير الأدباء الأربعة أنهم بذور نبتت في أرض تصلح للإبداع ،وتلك الأرض هي الفقر والجوع والألم والأحداث المحيطة،والحكايات التي كانت تسرد عليهم في الطفولة، والأشخاص الذين دعموهم وشجعوهم .

إن الجهد المتواضع الذي قمت به في هذه الرسالة يمكّن القارئ من التعرف على سير الكتّاب الأربعة بشكل موجز، والاطّلاع على أوجه التشابه والاختلاف بينهم قدر المستطاع، وأرجو بذلك أن ينال ما كتبته رضى القارئ،ويسهم في مساعدة الدارس في مجال السيرة الذاتية ولو قليلاً.

Conclusion

In this book, four writers were reported, three of whom were Arabs and the fourth was Russian, who talked about themselves via an art called ''Autobiography''. they started their biographies by talking about their early childhood, but the stage in which each one ended his autobiography varied. Ahmad Amen's continued his autobiography until the end on his life in ١٩٥٠, meanwhile Taha Hussein wrote his autobiography in the occasion of reaching the age of forty in ١٩٢٩, hence he talked about the first half of his life, because he died in ١٩٧٣.

Hanna Mina's autobiography ended in ١٩٣٩ when he turned fifty years old, which means that his autobiography stopped almost in the beginning of his youthhood. Hanna wrote "Baqaya sowar (pictures remainders)" in ١٩٧٥, and "Al-qetaf (picking) " in ١٩٨٥. Maxim Gorky ended his autobiography – which he wrote in ١٩١٣- the same way Hanna Mina did, i.e. in the beginning of his youthhood.

I decided to write about three Arabic writers and a Russian one because the thesis is in Arabic , and because the four autobiographies included the writers' writings about themselves in general, the people surrounding them and the incidents they witnessed during their lifetimes, including the political, social and economic incidents which where closely interconnected with each other.

Talking about economic incidents, the four writers suffered from poverty to different extents. Hanna Mina was so poor that his poverty forced him to eat snails and grass, because his father was a reckless man who just cared about drink and women. Hanna cared for his family situations and always willed to travel, and he did not master any job as well, meanwhile his mother bore the responsibility of her children because of the father's recklessness.

Maxim lost his father when he was a child, so he and his mother had to go and live in his grandfather's house where he suffered from poverty. His grandfather asked him to go and find a job. he practiced many hard jobs in order to make a living ; he worked for his grandmother's sister,

had jobs as a shoe dealer, a porter in the harbor, and a dishwasher on the deck of a ship, and he also hunted birds and gathered the nuts which the squirrels hided for winter , worked in the fairground, an icon painting shop and a bakery, but the pay was not equal to his efforts, and was barely enough to keep him alive.

Taha Hussein was born into a low-income family. his father's income was not enough to satisfactorily provide for his family. Taha was not able to work because he lost his sight when he was three years old. he talked about poverty in his village, and when he went to Al-azhar, he talked about the poverty of the people living in the area and about their foods and he also mentioned that Al-azhar high students sold the loaves of bread which were given to them in order to buy food.

Ahmad Amin talked about poverty, but his suffering was less than the others, because His father was a teacher whose salary was adequate. he mentioned poverty when he talked about his quarter and classified people into a poor class and a middle class, among whom there was a wealthy man. Thus people in the societies in which writers lived were poor in most cases.

Ignorance was associated with poverty because people worked just to keep themselves barely alive, so they did not have time for education, and the percentage of people who read and teach children is very small. for example I remember when Hanna Mina fell sick and was asked to justify his absence from school, his mother looked in the village for someone to write an excuse for him, but she did not find anyone, and at last someone who worked with coal wrote her some letters that do not make sense, and when Hanna gave the paper to the director, he did not understand anything, and it came out that that guy was illiterate.

Talking about health situations, they were very deteriorated.and the clear evidence about that is the blindness of Taha Hussein, which was because of a simple illness that can be cured easily nowadays, which is ophthalmia. Sometimes people can lose their lives because of poor sanitation as in the case of Hanna Mina who lost more than a brother

who died when they were children. in addition, the same thing happened to Ahmad Amin, Taha and Maxim who lost his half brother.

When Ahmad Amin and Maxim Gorky had some visual problems, they did not find any specialized doctor, so they went to doctors of other specializations.

Political situations cannot be separated from economic and social ones. Hanna Mina mentioned in his biography that when work in the harbor, which was the basic source of living for many people, stopped, unemployment aggravated, and people started suffering from famine because of the bad economic conditions, and as a result some revolutionists against this situations appeared such as Fayez Al-sho'la who leaded a demonstration against French, unemployment and hunger.

The participants in the demonstration were some workers and poor people, while wealthy people did not join them, and this was the first strike in the city. Hanna participated in the struggle with his pen since he had been young, thus men had used to lift him up and place him over their shoulders so that he can write the name of some revolutionist on tree stems, then the men had followed his action by engraving the revolutionist name with their knives.

Farmers in Al akbar village also struggle against the feudal lords after famine prevailed because of locust which killed everything. The heroine of this struggle was a woman called "Zannouba" who resisted the gendarmerie who hit her and the farmers because they broke into the master's warehouse because of the famine. Thus Zannouba escaped from the gendarmerie and burned the warehouse, but she was killed by a bullet which was shot at her by a gendarme who was on the warehouse roof.

Political situations affected Hanna when Eskandaron region was stripped from Syria in ١٩٣٩, which caused him to immigrate to Lattakia countryside where he practiced picking olive as a career. Farmers their suffered from the injustice of Al Mattoun and Al Shobasi, hence two

incidents took place there, the first one was when Al Mattoun tried to seduce Baddour who refused, so he accused her of stealing olive and put her in jail, and the second one was when a farmer called Sakr was punished because he picked an olive handful to feed his hungry children , so he was put in jail, but he could escape and killed Al Mattoun.

Maxim Gorky talked about farmers and their revolution against subjugation and hunger, which was similar to Zannouba's revolution, thus Maxim tried to guide them to the route of salvation and freedom by enlightening them so they can take hold over authority and get it off Caesar hands, because he considered that people have the right to choose the employees, police and even Caesar.

Maxim also undertook the task of cautioning the workers about their rights. His thoughts were fed by Romas who thought that people's happiness is the supreme happiness. When Maxim worked at Derekov bakery, he used to carry bread and sometimes put some books under bread loaves and some students also hided books and leaflets in his basket. Maxim realized that relieving oppressed people from injustice is literate people responsibility, and insisted on inciting those literate people to adapt a clear attitude in the battle between people and their suppressors because he was aware of the role that the literate class play in social life and in periods of change. He also mentioned that those who confronted Caesar were not safe from his injustice, such as Blitnov who was arrested because he was found to have a bowl in which he made ink for printing leaflets against Caesar.

Taha hussien was influenced by political situations, thus the first world war delayed his travel to France, and when he was there, he was sent back to his original country because the university had suffered from a fainancial crisis because of war. Although he spent his time in France during the First World War, he was not apart from its events and his country situations.

After coming back from France, he noticed that scientists and thinkers believed in revolution, but they considered each step they took,

meanwhile the public not only believed in revolution, but were loyal to it and faced the English bullets with their chests. People and thinkers were divided into two groups: the first group, which was represented by Saad Zagloul , was inclined to the delegation, while the second group was inclined to the ministry which was represented by Adli Basha. Taha Hussein in his turn was inclined to the ministry, and exposed himself to anger in order to be satisfied with himself.

The first world war influenced Ahmad Amin the way it influenced Taha Hussein, and he mentioned that Egypt suffered from the disasters of war. The English occupiers attacked people, disarmed them, and monopolized cotton corps. Saad Zagloul, the head of Egyptian delegation, was arrested while Ahmad Amin was in law school, which made the school flow in rage.

Ahmad communicated with the revolutionists and with Abdulrahman Bik Fahmi who assigned tasks to the guys, hence Ahmad Amin was asked to give political speeches in mosques after Al Jomaa prayer and to write leaflets in which he was required to mention the most important events. When Saad Basha was released, Ahmad Amin met him and communicated with him very often. When the delegation was separated from the ministry, Ahmad sided with the delegation and its representative Saad Basha, meanwhile Taha Hussein's relationship with Saad basha was cold.

Ahmad Amin participated in the demonstrations; Nasim Basha's ministry was not in agreement with Saad basha, thus some students of law school gathered under the window of the hall in which the session of the ministry was held ,hailed Saad and demanded that the government be overthrown. So Aatef bik was pensioned because he could not take control over the students and stop the parties, which influenced Ahmad Amin because he accompanied Attef bik for fifteen years in law school as a student and teacher.

Maxim Gorky is considered one of the most important establishers of communal realism. Hanna Mina was influenced by Gorky and his

communal realism, hence he talked about the sufferings of workers and farmers, and both of them tried to find solutions to these sufferings, which was apparent in their progress and works.

On the other hand, Dr Taha Hussein and Ahmad Amin were characterized by their critical realism, thus they described the reality in a descriptive way and tried to criticize it without trying to find suitable solutions to change that painful reality.

Talking about education stages of the four writers and the people whom they met, who contributed to supporting their talents, I can say: Taha Hussein education stages were somehow similar to Ahmad Amin's, thus Ahmad Amin studied in Al kottab, then in Om Abbas preliminary school, next he entered Al azhar, after that he studied in law school, and he also taught in Tanta and Worked in Al Azbakeya. He was called by Taha Hussein and asked to teach at the university, hence he occupied the position of the dean for a period of time after Dr Taha Hussein.

On the other hand, Taha Hussein studied in Al Kottab, then attended the university, then he went to France as an exchange student to attain the PhD. After coming back from France, he taught at the university and also hold the dean position. Meanwhile Hanna Mina received his education in an orthodox school, then went to Al-rushdeya school. While Maxim Gorky did not enter school, thus life was his school and university, from which he received his knowledge.

Some persons had an influence on the lives of these writers and on their creation, thus the first one who supported and strengthened Ahmad Amin was his father who regulated his son's schedules that he tired him, and that was because his father was confused between educating him in a religious way by sending him to Al Azhar and sending him to an ordinary school. In the end he sent him to school. Another person influenced Ahmad Amin, that person was sir Attef Bik Barakat who was the director of law school. Thus, Sir Attef liked a paragraph written by Ahmad Amin while he did not master writing paragraphs. And because of that paragraph, Sir Attef approved of Ahmad's efficiency and prompt

him to communicate with some newspapers, hence he wrote in Al moayyad newspaper.

Taha Hussein parents did not think that his blindness would hinder him from learning, so his father sent him to Al kottab where he could learn the holy Quran, then send him to Al azhar with his brother "Al Azhari", and when he communicated with the university, he tried to write, and he was encouraged by teachers Lutfi assayed and Abdulazeez Shawish. Sir Lutfi called for moderation, while Sir Abdul Azeez demanded for amplification, so that when he wanted to write moderately, he wrote in the newspaper, and when he wanted to exaggerate, he wrote in the national party journals.

Taha Hussein had three friends who helped him with his PhD thesis about " Abo Alalaa Al Maarry". The first friend helped him study the semitic languages, while he was able to listen to Almaarri works, and the third one bought him some printing tools, and hired a typist who wrote the thesis with the ink that suited those tools.

During his travel to France, he met a French girl who helped him with his thesis which he represented in France about Ibn Khaldoun, thus she read the latin version and the French translation of Ibn Khaldoun's introduction "Moqaddemat Ibn Khaldoun" as well as Romans and Grecians history and some collections of French literature, and she continued that until he could attain the PhD.

Maxim was supported by some persons in his progress including his grandfather who taught him how to read, and his good response made his grandfather pay him more attention and reduce giving him punishments, meanwhile his grandmother's role was to make him contemplate the meanings of the stories she used to tell him, hence these stories established an Intellectual Reservoir which supported his thoughts when he started composing.

His mother started edifying him by buying him some books such as "Principles of Russian reading ", so he learned the alphabetic letters used in books other than religious ones, and she took him to school with his

cousin Sasha, but they did not stay there more than a month because of his cousin who once slept in the class and started screaming during his sleep, which made his friends laugh at him, so he decided to stop going to school, hence Maxim felt jealous of his cousin and stopped going to school.

Among persons who contributed to the edification of Maxim was the tailor's wife who went to the bookstore twice a week, so he asked her to buy him a book, and he told her that he did not have free time for reading because he worked in his grandmother's sister house, and the work was tiring and required a long time, so she told him that whoever wants to read can find the time to do that, and as a result her words motivated him to work harder.

There was another woman who watched what the tailor's wife did, and she was the one whom he called her "Queen Margo". He borrowed her books including one about Boshkin poems which he read and learned by heart, and he was charmed by their music.

Talking about Hanna Mina, his mother played a great role in inciting him to think by the stories that she used to tell her children while they lived in a hut located in a berry farm in Sowaydyya, and when she registered him in the Orthodox school and in Al-rushdeya school.

Another person who influenced Mina was his father who had a good ability to tell events and make a simple story by holding , concentrating, combining, and decomposing the strings so that he came out with a story, and he was better in creating suspense than in describing the event itself, and this method simulated Hanna's imagination and enhanced his internal desire for writing.

Our writers were characterized by their great hunger for reading, except for Taha Hussein who lost his sight since he was a child, and they suffered from some visual problems as a result of that hunger.

By reading the progress of the four writers, I found that they were like seeds in a fertile ground that is suitable for creation, and that ground

was poverty, hunger, pain, stories which were told to them during their childhoods and people who supported and encouraged them.

At last, I would like to say that this modest effort is meant to enable the reader to know the progress of the four writers briefly, and to show him/her the similarities and differences among them as much as possible, and I also hope that this work is accepted by the reader and offers a little help to the autobiography researcher.

قائمة المصادر والمراجع العربية :

١- أبحاث نقدية ومقارنة ، الدكتور حسام الخطيب ، دار الفكر ،دمشق، ١٩٧٣.

٢- الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس المقدسي ،دار العلم للملايين، بيروت ، الطبعة الرابعة ،١٩٦٧.

٣- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الأول والثاني (الجزء الأول من الثورة العرابية إلى قيام الحرب العالمية الأولى الدكتور محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،الطبعة السادسة،١٩٨٣.

٤- الاتجاه الواقعي في الرواية العربية السورية ، سمر روحي الفيصل، منشورات اتحاد الكتّاب العرب،دمشق، الطبعة الأولى ،٢٠٠٠م.

٥- أثر التطور الاجتماعي (السياسي الاقتصادي) في الرواية المصرية ١٩٥٣،١٩١٢،الدكتور محمود شريف، دار الثقافة للطبعة والنشر، القاهرة ، ١٩٧٦.

٦- أحمد أمين حياته وأدبه ،عامر العقاد ،منشورات المكتبة العصرية،صيدا ،بيروت.

٧- الأدب العربي المعاصر في مصر، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة ، الطبعة الخامسة .

٨- الأدب في خدمة المجتمع ، عبد المعين الملّوحي ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٨٠م.

٩- الأدب مفهوماً وتدريساً ، محمود أحمد السيد ، دار الندوة للدراسات والنشر، دمشق.

١٠-الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة ،الدكتور حسام الخطيب ، مطابع الدوحة الحديثة المحدودة، الطبعة الأولى ،٢٠٠١.

١١-أدب وأدباء،سعيد الجزائري ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥.

١٢-أساليب السرد في الرواية العربية ، صلاح فضل ، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى،٢٠٠٣.

١٣-الإديولوجيا والأدب في سوريا، نبيل سليمان ، بوعلي ياسين ، دار ابن خلدون، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤.

١٤-الأيام ، (الجزء الأول) ،الدكتور طه حسين ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ،لبنان، الطبعة الثانية ،١٩٧٤.

١٥-الأيام (الجزء الثاني) الدكتور طه حسين، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٤.

١٦- الأيام (الجزء الثالث) الدكتور طه حسين ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،لبنان ، الطبعة الثانية ،١٩٧٤.

١٧-البحث الأدبي ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية.

١٨-بقايا صور ،حنامينه، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ،١٩٧٥.

١٩-الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ،الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم ، بيروت،دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

٢٠-الترجمة الشخصية ،الدكتور شوقي ضيف،دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة،١٩٥٦.

٢١-تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، عبد المحسن طه بدر،دار المعارف، القاهرة ،الطبعة الثالثة .

٢٢-التفسير النفسي للأدب ،الدكتور عز الدين إسماعيل ،دار العودة ودار الثقافة،بيروت،١٩٦٢.

٢٣-ثورة الأدب ،محمد حسين هيكل، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السنة المحمدية ،الطبعة الثالثة،١٩٦٥.

٢٤-الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)،حنا الفاخوري،دار الجيل، بيروت، ،الطبعة الثانية ،١٩٩٥.
٢٥-جماليات الرواية (دراسة في الرواية الواقعية السورية المعاصرة)،الدكتور علي نجيب إبراهيم ،دار الينابيع، دمشق،١٩٩٤.
٢٦-جوانب من الأدب والنقد في الغرب،الدكتور حسام الخطيب ،جامعة دمشق،١٩٨٢-١٩٨٣.
٢٧-حوارات وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية ، حنامينه، دار الفكر الجديد، بيروت، الطبعة الأولى ،١٩٩٢.
٢٨-حول الأدب والواقع، الدكتور عبد المحسن طه بدر،دار المعارف،القاهرة الطبعةالثانية، ١٩٨١.
٢٩-حياتي، أحمد أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة ،١٩٥٠.
٣٠-دراسات عربية وغربية،الدكتور لويس عوض، دار المعارف بمصر، القاهرة،١٩٦٥.
٣١-دراسات في الأدب المقارن ،الدكتور محمد التونجي،حلب ،١٩٨٢.
٣٢-دراسات في الأدب المقارن والنقد، الدكتور غسان السيد، مطبعة زيد بن ثابت،١٩٩٦.
٣٣-دراسات في الرواية ،فائق المحمد، صدر عن الشبيبة للنشر، طُبع بمؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، ١٩٧٨.
٣٤-الرؤية الإيديولوجية والموروث الديني في أدب حنا مينه، مراد كاسوحة، دار الذاكرة،حمص، الطبعة الأولى،١٩٩١.
٣٥-رحلة الأدب العربي إلى أوربا ،محمد مفيد الشوباشي، دار المعارف، القاهرة،١٩٦٨.
٣٦-الرواية السورية، نبيل سليمان ،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق،١٩٨٢.
٣٧-الرواية العربية السورية ،دراسة نفسية في الشخصية وتجربة الواقع،عدنان بن ذريل،دمشق ،١٩٧٣.
٣٨-الريف في الرواية العربية ، الدكتور محمد حسن عبد ا ،مطابع السياسة، الكويت،١٩٨٩.

٣٩-زعماء الإصلاح في العصر الحديث ،أحمد أمين ،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة .
٤٠-السيرة تاريخ وفن، الدكتور ماهر حسن فهمي ،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة ،الطبعة الثانية ،١٩٧٠.
٤١-السيرة الذاتية في الأدب العربي،تهاني عبد الفتاح شاكر،بيروت ،الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
٤٢-شوارد قلم في الأدب والنقد، محمد روحي فيصل ،دارطلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ،الطبعة الأولى،١٩٨٤.
٤٣-طه حسين أيام ومعارك ،نجاح عمر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت،صيدا .
٤٤-طه حسين بصيراً ،تأليف الدكتور صادق الكاشف،الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ،مطبعة المدني ،الطبعة الأولى ،١٩٨٧.
٤٥-العرب والحوار الحضاري ،الدكتور عبد ا أبوهيف، وزارة الثقافة ،دمشق ،٢٠٠٧.
٤٦-فن الأدب ، توفيق الحكيم ،مكتبةالآداب ومطبعتها بالجماميز، المطبعة النموذجية.
٤٧-فن السيرة ،إحسان عباس ،دار الثقافة بيروت،الطبعة الثانية .
٤٨-فن السيرة الذاتية من الأدب العربي حتى أوائل الثمانينات، الدكتورة مها فائق العطار، مطبعة الداودي، دمشق ، الطبعة الأولى ،١٩٩٧.
٤٩-في الأدب السوفياتي (دراسة تاريخية تحليلية موجزة)،جلال فاروق الشريف،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق،١٩٨٣.
٥٠-في تاريخ الأدب الحديث (الرواية – المسرحية- القصة) ،الدكتور فؤاد المرعي، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ،حلب،١٩٨٣.
٥١-في سوسيولوجيا النص الروائي، الدكتور عبد الرزاق عيد، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ،دمشق الطبعة الأولى ،١٩٨٨.
٥٢-القصة القصيرة في أعمال رابطة الكتّاب السوريين ، محمد عبد الواسع شويحنة، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق، الطبعة الأولى،٢٠٠٥.

٥٣-في فلسفة النقد ، الدكتور زكي نجيب محمود ،دار الشروق ،بيروت ،الطبعة الأولى ،١٩٧٩.

٥٤-القصة العربية الحديثة والغرب،الدكتور عبدا أبوهيف، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،١٩٩٤.

٥٥-المجموعة الكاملة ، طه حسين ، المجلد الحادي عشر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٧٤.

٥٦-المجموعة الكاملة ، سبعون ، ميخائيل نعيمة ، المجلد الأول،دار العلم للملايين، بيروت،١٩٧٠.

٥٧-القطاف ،رواية الجزء الثالث من "بقايا صور" و"المستنقع" ،حنامينه ،دار الآداب ،بيروت،الطبعة الرابعة ،٢٠٠٦.

٥٨-ماذا يبقى من طه حسين، سامح كريم، دار القلم ،بيروت،لبنان ،طبعة جديدة.

٥٩-محاضرات في تطور الأدب الأوربي ،الدكتور حسام الخطيب ، جامعة دمشق ،١٩٧٤-١٩٧٥

٦٠-مدارس الأدب المقارن،سعيد علوش،الناشر:المركز الثقافي العربي،الطبعة الأولى،١٩٨٧.

٦١-المدخل إلى الآداب الأوروبية ،الدكتور فؤاد المرعي،منشورات جامعة حلب،الطبعة الثانية ،١٩٨٠-١٩٨١

٦٢-مذاهب وأعلام في الأدب العالمي، الدكتور بديع حقي، دمشق،الطبعة الأولى ،١٩٩٤.

٦٣-مذكرات طه حسين، الدكتور طه حسين،دار الآداب بيروت،مطبعة دار الكتب، الطبعة الأولى ،١٩٦٧.

٦٤-مستقبل الثقافة في مصر، الدكتور طه حسين، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر،١٩٣٨.

٦٥-المستنقع (الكتاب الثاني من بقايا صور) حنامينه، دار الآداب ،بيروت الطبعة الأولى،دمشق ١٩٧٧.

٦٦-معارك طه حسين الأدبية والفكرية ،سامح كريم، دار القلم، بيروت ،لبنان،الطبعة الثانية ،١٩٧٧.

٦٧-معارك العقاد الأدبية،عامر العقاد،منشورات المكتبة العصرية، صيدا،بيروت.

٦٨-الموسوعة العربية ، رئاسة الجمهورية ، هيئة الموسوعة العربية ، المجلد الثالث ، دمشق ، الطبعة الأولى،٢٠٠١.

٦٩-الموسوعة العربية ، رئاسة الجمهورية العربية ، هيئة الموسوعة العربية ، المجلد الثامن ، دمشق ، الطبعة الأولى،٢٠٠٣.

٧٠-الموسوعة العربية ،رئاسة الجمهورية ، هيئة الموسوعة العربية، المجلد الرابع عشر ، ٢٠٠٦.

٧١-ملامح داخلية "سيرة ذاتية" توفيق الحكيم، طبعة دار الشروق، القاهرة ،٢٠٠٧.

٧٢-النقد الأدبي، أحمد أمين، الجزء الأول دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة،١٩٦٧.

٧٣-ملامح في الأدب والثقافة واللغة ،الدكتور حسام الخطيب ،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي،دمشق،١٩٧٧.

٧٤-مواقف وقضايا أدبية، الدكتور سهيل إدريس ،دار الآداب ،بيروت،الطبعة الأولى ،١٩٧٧.

٧٥-مي أديبة الشرق والعروبة ،محمد عبد الغني حسن،الناشر عالم الكتب، دار الثقافة العربية للطباعة ،القاهرة.

٧٦-نظرات في الأدب العربي الحديث، أحمد الخوص، دمشق، ١٩٨٣.

٧٧-نظرات في الأدب العربي الحديث ، محمد غازي التدمري ، كمال ياسين الغزي، دار الإرشاد ،حمص ،الطبعة الأولى، ١٩٩٦-١٩٩٧.

٧٨-نظرية الرواية، محمد كامل الخطيب ، وزارة الثقافة ، دمشق ،١٩٩٠.

٧٩-نقاط التطور في الأدب العربي ،الدكتور علي شلق، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٥.

٨٠-النقد الأدبي،أحمد أمين،الجزء الأول ،دار الكتاب العربي،بيروت،الطبعة الرابعة،١٩٦٧.

٨١-الواقعية الاشتراكية (المغامرة والصدى) الدكتور وائل بركات، منشورات وزارة الثقافة ،دمشق ،١٩٩٧.

٨٢-الواقعية في الأدبين السوفيتي والعربي ،الدكتور ماجد علاء الدين، دار الثقافة دمشق،الطبعة الأولى،١٩٨٤.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية:

١- الأدب العام المقارن ،تأليف :دانييل –هنري باجو،ترجمة : الدكتور :غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،١٩٩٧.

٢- الأدب المقارن ،تأليف : فان تيجم، دار الفكر العربي، القاهرة.

٣- الأم، مكسيم غوركي، ترجمة:مازن الحسيني وإسماعيل عبد الرحمن ،مطبعة الدار المصرية ، القاهرة ،١٩٥٧.

٤- بحوث سوفيتية في الأدب العربي، ترجمة: خيري الضامن ،طُبع في الاتحاد السوفيتي ،دار التقدم ،١٩٧٨.

٥- البرجوازيون،مكسيم غوركي،ترجمة وتقديم : أبو بكر يوسف حسين،مراجعة : ماهر عسل الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، المطبعة الثقافية،١٩٧١.

٦- بين الناس،مكسيم غوركي، المجلد الثاني ،ترجمة المحامي: سهيل أيوب،طُبع في الاتحاد السوفيتي ،دار " رادوغا" موسكو، ١٩٨٨.

٧- جامعاتي ،مكسيم غوركي ، المجلد الثاني ،ترجمة المحامي: سهيل أيوب،طُبع في الاتحاد السوفيتي ،دار "رادوغا" موسكو، ١٩٨٨.

٨- دراسات في الأدب والمسرح ،مجموعة من المؤلفين ،ترجمة :نزار عيون السود، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي،بدمشق، ١٩٧٦.

٩- رجال ونساء، مكسيم غوركي، ترجمة حلمي مراد، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق،بيروت،١٩٩٨.

١٠-السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، فيليب لوجون،بيروت ،الطبعة الأولى،١٩٩٤.

١١-طفولتي ،مكسيم غوركي ،المجلد الأول ، ترجمة: المحامي سهيل أيوب، طُبع في الاتحاد السوفيتي ،دار "رادوغا" موسكو، ١٩٨٨.

١٢-المتشردون ،مكسيم غوركي، تعريب عبد المعين الملوحي، إصدار دار الحياة، الطبعة الثانية،١٩٨٢.

١٣-مع الفلاحين ،مكسيم غوركي ،ترجمة :أحمد عطية، دار الفكر العربي ،مطبعة الاعتماد بمصر،١٩٥٧.

١٤-مكسيم غوركي ،بقلم مكسيم غوركي،ترجمة :بهيج شعبان ،دار بيروت، بيروت، ١٩٥٤.

١٥- النقد والأدب ،جان ستارونبسكي،ترجمة: الدكتور بدر الدين القاسم ، مراجعة:أنطوان المقدسي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ،١٩٧٦.

١٦-وراء الرغيف ،مكسيم غوركي ، ترجمة: بهيج شعبان، دار بيروت بيروت،١٩٥٤.

المجلات والدوريات

١- الأسبوع الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد ١١٨٥-٢٠١٠/٢/٦
٢- الأسبوع الأدبي ، بدمشق، العدد (٣٣٥) ٢٩ تشرين أول ١٩٩٢م.
٣- مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، الدكتورة مكارم الغمري ،سلسلة عالم المعرفة،العدد ١٥٥،سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب –مطابع الشروق، الكويت.١٩٩١.
٤- المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، تأليف : الدكتور شكري محمد عياد ،عالم المعرفة ،سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،مطابع السياسة ،الكويت، ١٩٩٣.
٥- "المعرفة" مجلة ثقافية شهرية ،أ.د. ممدوح أبو الوي السنة السادسة والثلاثون- العدد٤٠٣ نيسان"إبريل"١٩٩٧م.
٦- الموقف الأدبي،أ.د ممدوح أبو الوي،السنة الثامنة والثلاثون ،العدد(٤٥٥) آذار ٢٠٠٩،ميخائيل نعيمة وفن السيرة.

فهرس المحتويات

التسلسل	**الفصل الثالث:طه حسين**	**الصفحة**